# قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية

الأستاذ الدكتور
كريم حسين ناصح الخالدي

الأستاذ الدكتور
حميدة صالح البلداوي



www.darsafa.net

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

صدق الله العظيم

# قراءة لغوية ونقدية

## في الصحيفة السجّادية

# قراءة لغوية ونقدية

## في الصحيفة السجّادية

**تأليف**

الأستاذ الدكتور
كريم حسين ناصح الخالدي

الأستاذة الدكتورة
حميدة صالح البلداوي

**الطبعة الأولى**

**2010م - 1431هـ**

**دار صفاء للنشر والتوزيع - عمان**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2299/ 4/ 2009)

410

الخالدي، كريم حسين ناصح

قراءة لغوية ونقدية في الصحيفة السجادية / كريم حسين ناصح الخالدي، حميده صالح البلداوي.- عمان: دار صفاء للنشر 2009 .

( ) ص

ر . أ: (2299/ 4/ 2009)

الواصفات : / اللغة العربية/ / النقد الأدبي/ / التحليل الأدبي/

* تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الطبعة الأولى

2010 م - 1431 هـ

دار صفاء للنشر والتوزيع

عمان - شارع الملك حسين - مجمع الفحيص التجاري - تلفاكس4612190 6 962+
ص.ب 922762 عمان - 11192 الاردن

DAR SAFA Publishing - Distributing
Telefax: +962 6 4612190 P.O.Box: 922762 Amman 11192- Jordan
http://www.darsafa.net
E-mail :safa@darsafa.net
ISBN 978-9957-24-476-7 ردمك

# الفهرس

# تقديم

تتجلى في النصوص الخالدة ومضات ساحرة تملك لبّ الباحث وتستحوذ على حالاته الشعورية وقدراته العقليّة فلا يملك إلا أن يجنّد طاقاته وقدراته الثقافية للكشف عن وجوه الإبداع ، ومساحات الخلق، ومنابع الثراء التي تعجّ بها تلك النصوص، ومهما تكن قدرات الباحث أو الناقد وثقافته ومعارفه المكوّنة لشخصيته العلميّة والثقافية، فالأثر الإبداعي يستحوذ على تلك المكونات ويضعها في دائرة السحر التي تنبعث من تلك النصوص، فتندمج رؤى الباحث ونظراته واستنتاجاته في خضم أمواج النص الزاخرة بالجواهر واللآلئ التي تنتظر من يستخرجها، والعوالم المجهولة التي تبحث عمّن يكشفها، والمدن العامرة تحلم بمن يعبر إليها على جسور ثابتة تستمد قوتها من معرفة العقل، ودقة المقاييس، ونزاهة السريرة، ويتمخّض عن هذا الإندماج الطوعي بناء صروح فكرية ونقدية وعلميّة تقف جنباً إلى جنب مع المعطيات الفكرية التي ترمي إلى خدمة الفكر البشري، وتعميق الوعي الحضاري، وتطوير مسارب العطاء الروحي .

ولا يساورنا أدنى شك في أنّ الصحيفة السجادية من النصوص الإبداعية الزاخرة بشتى ألوان الصور البيانية الأخاذة ، وأنماط النسيج الفني المتماسك، والمعاني النفسية، والأفكار التي تخاطب العقل والوجدان لأنّها تمتلك خصائص فنية تدل على موهبة لغوية وإبداعية نادرة وقد وجدنا أن هذا النص المتلألئ بفنون النظم وألوان الوشي وأنماط البناء الأسلوبي المتألق مازال بعيداً عن أقلام المختصين بالدّراسات اللغوية والنقدية التي تكشف الغطاء عن الأسس والمعايير النحوية والأسلوبية المتبعة في صياغة نصوص الصحيفة وتجلي الغبار عن ملامح الجمال الفني الذي تميزت به أساليبها، وقد اقتصرت

الدراسات التي عنيت بهذا النص على الجوانب الفكرية والروحية والدينية توخت دراسة المضامين الفكرية والموضوعات الأخلاقية ، وربط هذه الموضوعات بالواقع الاجتماعي.

وقد عقدنا العزم على الغور في أعماق نصوص الصحيفة لاستجلاء الأنظمة اللغوية والأسلوبية وأوجه الجمال فيها والعلاقات الأسلوبية بين مقاطع النص وألوان الصياغة في نسيجه المحكم معتمدين في ذلك منهج الدراسة النصية التي تعتمد النص أساساً وتستنبط الآراء والأفكار من طبيعة الأثر الإبداعي وخصائصه الفنية مبتعدين عن التأثر بالآراء والأقوال والدراسات النقدية والأسلوبية السابقة لتكون هذه الدراسة مستمدة من روح النص وخصائص بنائه وطرائق نظم جمله وعباراته، وكان رغبتنا المشتركة في دراسة هذا النص الإبداعي في محاور لغوية و أسلوبية ونقدية دافعاً قوياً في اقتسام هذا الجهد على الرغم من اختلاف اختصاصينا، فكان الباب الأول بفصوله الثلاثة مخصصاً للدراسة اللغوية الأسلوبية حاول كاتبها أن يكون الدرس اللغوي مسخراً لاستجلاء أوجه الإبداع اللغوي والأسلوبي والدلالي في النص عبّرت عنه عنوانات فصوله الثلاثة (الدراسة الأسلوبيَّة، والدراسة الدلالية والنحويّة، ولغة الوجدان والقلب)، وسعى إلى أن يكون البحث غير أسير لصرامة القواعد، وجفاف الأحكام النحوية أو اللغوية بل يستفيد منها في إلقاء أقباس من نور على أنماط النظم في الصحيفة السجادية.

وكان الباب الثاني بفصوله الثلاثة كشفاً منهجياً ثمَّ نقدياً للمعايير التي يمكن استيحاؤها من عفوية النص وحكمة بنائه في ضوء الأسس التي وضعها عدد من الناقدين العرب ومنهم حازم القرطاجني، وقد اعتمدت الباحثة الأسس الجمالية التي بنيت عليها نصوص الصحيفة السجادية، لذا جاءت هذه الفصول قراءة نقدية فاحصة ، حاولت من خلالها أن يكون المعيار النقدي صادقاً في الكشف عن وجوه الجمال والإبداع في النص مع استجلاء السمات الروحية فيه.

ويطمح الباحثان أن يكون هذا الجهد المشترك فاتحة لدراسات نصيّة توظف فيها القيم النحوية واللغوية والنقدية للكشف عن وجوه الإبداع في النص لأنّ الفصل بين الدرس اللغوي والدرس النقدي يضفي على الدرس اللغوي ضبابيته فيغدو مفتقراً الروح النابضة بالحياة، وتضع الدرس النقدي في معزل عن الأسس السليمة للمنطلقات النقدية، لذا نرى أنّ التكامل في هذه الدراسة يمنح توجهنا تطلعنا مشروعاً لتأسيس توجه في البحث الأكاديمي اللغوي والنقدي يعتمد كلّ المعايير ويستند إلى الأسس الصحيحة للوصول إلى الغاية الأساسية وهي بيان سمات الإبداع في النص الأدبي، وتربط بين الدراسات الأسلوبية والنقدية والدلالية واللغوية ربطاً يضعها في دائرة واحدة وإن تعددت الخطوط الصادرة من مركزها.

وإنّه لشرف عظيم أن يكون النص التطبيقي لهذه الدراسة المتواضعة نصّاً إبداعياً لم تسلط عليه الأضواء من قبل على الرغم من أنّه يمتلك أبرز الخصائص الفنية للنص الإبداعي الخالد، ويستمد عظمته من المكانة العالية لمنشئ النص وهو الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، فكان النص مصباحاً كاشفاً عن بواطن منشئه وسرائره وفكره واتجاهاته الروحية والعقلية، حاولنا أن تكون أدواتنا البحثية ومسالك منهجيتنا جسراً يختزل الزمن ويزيح كلَّ تراكمات التاريخ للكشف عن ملامح الإبداع الأسلوبي، والتألق الفني، والتميز في البناء المتناهي لنصوص الصحيفة السجادية ، آملين أن يكون جهدنا هذا خالصاً لوجه الله لا نرجو سوى رضاه، ونيل ثوابه إنّه ولي التوفيق .

1

الباب الأول

# الباب الأول

# الدراسة اللغوية الأسلوبية

الفصل الأول:

(دراسة أسلوبيّة في الصحيفة السجاديّة)

الفصل الثاني:

(الدراسة الدلالية والنحوية في الصحيفة السجادية)

الفصل الثالث:

(لغة القلب والوجدان في الصحيفة السجادية)

# الباب الأول

# الدراسة اللغوية الأسلوبية

## الفصل الأول

## (دراسة أسلوبيّة في الصحيفة السجاديّة)

### مدخل الفصل

يُمتحن العقل البشري بقدرته على فهم طبيعة الظروف التي يعيشهاوتجاوزها إلى ما هو أفضل بتطوير الأدوات والوسائل التي توصله إلى الأهداف التي يطمح إلى تحقيقها ، وقد استطاع العقل العربي أن يبدع في عصور النهضة الإسلامية ويطور الوسائل التي تمكنه من الرقي والإزدهار الحضاري ، وكان الميدان اللغوي واحداً من الميادين التي أبدع فيها العقل العربي فبنى للإنسانية صرحاً شامخاً تسامى على مدى العصور، وصار تراثاً أفادت الأمم القريبة والبعيدة من معطياته فكان أساساً لنهضة فكرية شملت الأمصار التي تعدّ اليوم رائدة في مناهج البحث اللغوي ولا أقول هذا ادعاءً بل ثمّة أدلّة واضحة لا مجال لسردها تؤيد ذلك ويكفيني أن أشير إلى أنّ الأندلس كانت جسراً لنقل التراث العربي اللغوي وغير اللغوي إلى أوربا وما زالت مكتباتها عامرة بآلاف المخطوطات العربية التي تزخربمعطيات الفكر العربي ، ومن هذا المنطلق يُفتح لي الباب لأدخل في المجال الذي أردت الحديث عنه منطلقاً من موازنة أولية بين ماأبدعه أجدادنا وما نستطيع تسميته خمولاً فكرياً في الثقافة العربية المعاصرة يتضح من خلالها أنّ علماء العربية كانوا رواداً اقتحموا

مجاهيل البحث اللغوي ولم تكن لهم أيّة دراسات لغويّة سابقة ولم ينقل إلى العربية أي كتاب لغوي حتى ترجم حنين بن اسحاق مقولات أرسطو وقد ولد حنين عام 194 هـ أي بعد وفاة الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي توفي عام 175هـ بسنين ولا جدال فر أنّ الخليل نضجت في زمانه العلوم اللغوية بمستوياتها الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية والدلالية على نحو ما نراه في كتاب العين وكتاب سيبويه الذي نقل عن أستاذه الخليل بأمانة وتجرّد ، ثمّ علا الصرح واستطاع العلماء العرب وضع نظريات لغويّة ناضجة في اللغة ما زالت تصلح للدراسة في هذا العصر. أمّا العصر الحديث الذي شهد نهضة فكرية وصناعية واقتصادية في أوربا تغيّرت بموجبهاكثير من المفاهيم والنظريات وتطورت المناهج والأساليب المعرفية فلم يكن علماء اللغة العربية فيه على سمت أجدادهم في الريادة واقتحام المجهول في مجال اختصاصهم، ولا يملكون روحهم الإبداعية ، وقدراتهم في التجديد والتطوير، فقد بهرتهم الإنجازات العالمية في الفكر اللغوي وظلوا مشدوهين لايدرون ماذا يفعلون، وحين خرجوا من حيرتهم واندهاشهم لم يكن أمامهم سوى السير في أحد اتجاهين:

الأول: اقتصر فيه علماء العربية على دراسة الفكر اللغوي العربي القديم وذلك بحفظ القواعد والأحكام والتفسيرات والعلل والعوامل والأقيسة ونقلها إلى طلبة الجامعات من غير زيادة أو تطوير يساير روح العصر الحديث فانغلقت مداركهم على هذا التراث ولم يستطيعوا أن يكتشفوا فيه المنطلقات التي تقودهم إلى الإبتكار والإبداع لإيجاد المناهج والنظريات اللغوية العربية التي تنطلق من خصائص لغاتهم المغايرة لخصائص اللغات الأوربية ، ولم يستطع هؤلاء العلماء - إلا القليل منهم - على جلال قدرهم وعلو مكانتهم في فهم التراث أن يتخطواحدود المنهجية المعيارية التي تدور في فلك الصحة والخطأ ، وكان النحو عندهم هو الإعراب وحده وليست اللغة عندهم إلاّ قوالب ثابتة ننطقها على طريقة قل ولا تقل على الرغم من حاجتنا الماسة إلى تعلّم الإعراب ومعرفة الصيغ الصحيحة من كلام العرب ولكن هذا التوجه

وحده يقصر العقول على دوائر ضيّقة ويحصر الأفهام في أطر محددة تجعل الباحثين أصداء لما قاله السابقون من غير قدرة على الإنطلاق إلى مديات أرحب تنفتح على معطيات الفكر المعاصر ، وقد وصل الأمر بهؤلاء العلماء إلى حد الإصرار على تدريس كتب قديمة ألّفت في العصور المتأخرة في جامعاتنا العربية كشرح ابن عقيل لألفية ابن مالك وتوجيه الدراسات العليا في مسارات لا تخرج عن هذه الأطر فظهرت دراسات وأطاريح تنقل ما في كتب السابقين ـ رحمهم الله ـ من غير تفكير وتدبّرحتى تحجّرت العقول وتجمّدت القرائح فلا تجد تجديداً ولا تطويراً إلا ما ندر

الثاني: وهو اتجاه ابتعد فيه الباحثون عن أصول اللغة العربية وقواعدها وخصائصهاوانكبوا على دراسة المناهج الغربية المعاصرة التي صاغها المنظرون في ضوء خصائص لغاتهم وسماتها وأنماط تطوّرها وتغيّر وجوه دلالاتها بحسب الإستعمال وأمّا ما يذهب إليه بعضهم من أنّ اللغات كلها تشترك في الظواهر والخصائص فهو صحيح في جوانب ولكنه يبعد عن الحقيقة في جوانب أخرى لأن اللغة العربية ذات خصائص وسمات تتفرد بها عن غيرها وهذا ما يعرفه من من تعمق في فهم أسرار العربية وتوغل في دراسة علومها أما من يقرأ المتون ويطلع على اليسير منها فلا يعرف ما العربية وما شأنها لذا يقول مثل هذا القول ليكتفي بالنقل من مناهج الغربيين نقلاً حرفياً من غير إعمال للفكر. والنظريات الغربية لا شك نظريات لابدّ من الإطلاع عليها والإستفادة منها لأنّهاحصيلة جهود ونتاج عقول تبحث عن التجديد والتطوير لكنها لا تصلح أن تكون المناهج الوحيدة التي تدرس لغتنا في ضوئها وإن كانت مناهج عالميةكما يعدّها باحثون لأننا نربأ بعقولنا أن تكون تابعة فقط تتلقى من غيرها ولا تبدع وتكون عقول غيرنا هي الرائدة دائماً بل العلوم أخذ وعطاء نأخذ من غيرنابقدر ما نعطيهم، وفضلاً عن ذلك نحن ننظر إلى ارتباط لغتنابالقرآن الكريم نظرة خاصة تجعلنا ملزمين بالتفكير في إطار خصوصيتها هذه لتطوير مناهج البحث فيها بما يناسب نموها وتطورها في ضوء خصائصها

التي تنماز بها عن غيرها. ويلفت نظر الباحث أنّ الذين ساروا في هذين الإتجاهين هم من اللغويين والنقاد إذ نرى مسار الدراسات النقدية ينفصل تمام الإنفصال عن مسار الدرس اللغوي وينغمس كل فريق في مجال تخصصه وكأنّ الفريق الآخر لايعنيه من قريب أومن بعيد على الرغم من الدعوات الخيّرة التي وجهت إلى علماء العربية لتوحيدالإتجاه وهكذا صرنا في حال لا نحسدعليها سواء في البحث اللغوي أم البحث النقدي ،فلا نسمع بميلاد نظرية نقدية عربية أو ظهور منهج نقدي عربي ينافس المناهج الأوربية والأمريكية الحديثةويقتحم أروقة جامعاتهم ومؤتمراتهم ومنتدياتهم الثقافية ، ولا تتألق نظرية لغوية عربية معاصرة أو منهج لغوي يزاحم النظريات والمناهج الغربية لنقول لغيرنا ها نحن العرب نبدع ونجدد من جديد منتهلين من فيض تراثنا وكنوز معارفنا. وفي ضوء هذه المقدمات أستطيع أن ألج الباب الأهم في هذا الموضوع وهو الخوض في ضرورة بناء اتجاه عربي معاصر يمزج بين النقد الحديث والدرس اللغوي المعاصر من خلال التأسيس لأسلوبية عربية معاصرة تتضافر فيها كل الإختصاصات الصوتية والصرفية والنحوية والبلاغية والنقدية والدلالية بأطر جديدة تستقي من تراثنا مقومات النهوض وتبتدع لنفسها مسارات نظرية جديدة تجمع بين الأصالة والتجديدتقودها مواهب جامعية مؤهلة تجتمع فيها شخصية ثقافية تجمع فضلاً عن هذه الإختصاصات معارف أخرى كالإحاطة بعلم النفس وعلم الإجتماع وتحليل الأحداث التاريخية وحركة الإنسان وسط متغيرات الأحداث، ويمتلك من يقود هذه المسيرة قدرات ابداعية في تحليل النص واستجلاء الكوامن النابضة في النص والإستنارة بالظروف والأجواء النفسية والقيم الإجتماعية والدوافع الأخلاقية وسبر غور الباث والمتلقي باستشفاف القيم الجمالية في النص وأثرهافي نفس المتلقي من خلال التحري عن المشاعر والعواطف والأحاسيس المتحركة في النص ، وتلمس الآثار العقلية والفكرية والروحية التي يتركها النص في المتلقي ولا يتحقق ذلك إلا بالكشف الدقيق عن معاني الوحدات البنيوية في النص من

خلال تقصي دلالات كل صوت وحرف ولفظ وجملة وقطعة معنوية مفيدة ،واجـراء الموازنـات بينهـا وتفجـير الطاقـات المعنويـة في كـل منهـا بحسـب قدراتها على المواءمة والإنسجام مع مثيلاتها وتلمس الإيحاءات الدلالية التي تنبعث منها والأجواء الفكرية والشعورية التي تتولد من تقابل تلك البنى اللغوية في العربية ودلالاتها وتغير هذه الدلالات بتغير طرائق الإسناد والنسبة في التركيب ومعرفة تشعب المعاني بالوجوه المختلفة التي استطاعت في ضوئها لغتنا أن تكون من أكثر اللغات اختزالاً للألفاظ واتساعاً في المعاني وهي ظاهرة ما زال الباحثون يجهلون كثيراً من وجوهها. ولا أدعي أني أول من دعا إلى تأسيس أسلوبية عربية معاصرة فقد سبقني إلى ذلك عدد من الباحثين لأنّ ما أعرضه صار معروفاً في مجالات الدرس الأسلوبي المعاصر بل أريد من دعوتي هذه ولوج الباب الأكثر أهمية وهو البحث عن المسارب المؤدية إلى ابتكار المناهج المتطورة والنظريات الجديدة من خلال اعداد الطاقات المبدعة المعبأة بألوان الثقافة العربية وذلك باجتياز حدود الإختصاصات الدقيقة لكل من الناقد واللغوي وتوحيد المعارف اللغوية والمعارف النقديةفالناقد لابدّ له من أن يكون لغويّاً محيطاً بأسرار لغته وسماتها وخصائصها ودلالات أبنيتها وقوانين نظمها وتنوّع أنماط التعبير فيها وقنوات إيصال المعاني في أساليبها ولن يتحقق ذلك بالثقافة السطحية التي يلمّ بها نقّادنا في مجالات المعارف اللغوية بل يتحقق بإجراء البحوث والدراسات اللغوية التي يكون فيها الناقد لغوياً متخصصاً ولاأقصد بذلك معرفة آراء دي سوسير وبلومفيلد وهارس وتشومسكي وغيرهم ممن أبدعوا في دراسة لغاتهم بل ينبغي أن تكون هذه الثقافة شاملة تجمع فضلاً عن الإطلاع على المناهج الغربية الغور في أعماق لغتنا العربية بالإطلاع على الأسس والأصول الصحيحة ثمّ التحوّل إلى دراسة الخصائص اللغوية التي أشرت إلى عدد منها ومعرفة أسرار هذه اللغة باكتشاف أنظمتها التعبيرية وقنوات معانيها وعمارة نظمهاولا يعني ذلك أنّ الناقد يتخلّى عن معارفه النقدية ويبتعد عن تطوير أدواته النقدية بالإطلاع على المناهج النقدية

القديمة والحديثة والتسلّح بعدة الناقد الثقافية والفكرية ليكون قادراً على الإبداع والتطوير، ولافرق بين اللغوي والناقد في ذلك ، لأني لاأرى أنّ مجال البحث اللغوي هو معرفة أسرار اللغة التي أشرت إلى جوانب منها ، لأنّ هذه المعرفة ينبغي أن توضع في خدمة النصوص الأدبية وتقويمها وما جدوى أن أكون عارفاً بعلوم العربية من غير أن أسخّر ذلك لدراسة نصوصها، ولنا في علمائنا الأوائل أسوة حسنة فقد كان ابن جني اللغوي المشهور شارحاً وناقداً ديوان المتنبي وكان التبريزي من شرّاح الحماسة وله آراء نقدية فيهاوكذلك الآمدي وعبد العزيز الجرجاني فقد كانوا يدركون أنّ ثقافة اللغوي أساس مهم لنقد النصوص وهذا ما أوجزه ابن الأثير في ذكر الآلات التي ينبغي أن يمتلكها الناقد ومنها:

1 ـ معرفة علم العربية من النحو والصرف

2 ـ معرفة ما يحتاج إليه من اللغة وهو المتداول المألوف استعماله من فصيح الكلام غير الوحشي الغريب ولا المستكره المعيب

3 ـ معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي جاءت في حوادث خاصة بأقوام فإنّ ذلك جرى مجرى الأمثال

4 ـ حفظ القرآن الكريم والتدرب باستعماله وإدراجه في مطاوي كلامه[1]

وقال الدكتور داود سلوم ( وقد لمح إلى ذلك الجاحظ وابن قتيبة وابن المدبر وأول

من تشكل عنده المنهج الثقافي بشكل واضح هو ابن طباطبا العلوي ، ولعل أحسن من فصل ذلك وقرره وأعده إعداداً حسناً هو ابن سنان الخفاجي في سرالفصاحة بحيث أصبح وجه الشبه بين منهجه ومنهج ابن الأثير واضحاً جداً)[2]

---

(1) المثل السائر 42/1

(2) مقالات في تاريخ النقد العربي 392

وكـي لا نكـون مثـل الـذين آخـذناهم بتقـوقعهم ـ في دائـرة القـديم أجـد الفسحة مناسبة للدعوة إلى توجه الدراسات العليا ـ في جامعاتنا العربية لتكون مناهج البحث اللغوي فيها موجهة للإلتحام بمناهج البحث النقدي والمشاركة ـ في وضع الأسس المشتركة لبناء مناهج لغوية ونقدية متطورة تضع كلاً من اللغوي والناقد ـ في إطار واحد ، ولا يتحقق ذلك إلاّ من خلال توجيه مسارات الدراسات العليا بتغيير مفردات المناهج ودمج الدراسات اللغوية بالدراسات النقدية أو التنسيق بينهما وتحديد موضوعات لأطاريح الدكتوراه تلزم الطالب ببناء منهج نقدي لغوي ـ في ضوء الأسس اللغوية ومن خلال دراسة نصوص قرآنية أو شعرية ، وليس هذا بدعاً من الثقافة المعاصرة فقد سبقتنا محاولات كثيرة منها أسلوبية التعبير التي صمّمها ( بالي ) وخلفاؤه أو الأسلوبية المثالية التي وضع لبناتها ( ليوسبيتز) بتأثير مباشر من ( كارل فوسلر ) حيث حاول (سبيتزر) أن يصمّم جسراً بين اللسانيات وتاريخ الأدب بأثر من أساتذته ( مييه لوبك) ومؤرخ الأدب ( بيكير ) وغيرهما. ومنها الأسلوبية الجديدة التي ظهرت ـ في الولايات المتحدة الأمريكية ـ في كتابات ( داماسو ألونسو ) و( أمادوألونسو) و( سبويري ) و( هاتزفلد ) فقد ذهب الأخير إلى ضرورة دراسة أساليب العصور خاصة واهتم بالعلاقات القائمة بين الفن والشكل الأدبي ، وقد أخذت جامعة السوربون بتحريض من ( شارل) و( وانيه ) توجه أبحاثها أكثر فأكثر نحو دراسات تتجه إلى أسلوب الكاتب[1]

وجاءت محاولات ( ريفاتير ) لبناء نمط خاص من النظر الأسلوبي إلا أنه ظلّ قاصراً لخلطه بين اللغة والنص والمعنى وأثر المعنى كما يقول بيرجيرو[2]

وتلتها محاولات ما زالت تظهر بين آونة وأخرى غير أن الذي ندعو إليه يكتسب خصوصية يستمدها من خصوصية اللغة العربية وذلك بتوجيه الدراسات اللغوية والنقدية نحو تأسيس أسلوبية عربية تستوحي أنظمتها

---

(1) الاسلوبية بيير جيرو 87

(2) المصدر نفسه 126

ووسائل كشفها عن المقاصد من خصائص اللغة العربية ومسارات التعبير فيها عن المعاني وهذا ما لا يستطيعه إلا لغوي متمرّس في النقد وناقد مترع بثقافة لغوية أصيلة ولست أقول هذا تنظيراً مطلقاً بعيداً عن التطبيق بل أقوله في ضوء تجربة أسلوبية درست فيها سورتين من القرآن الكريم اخترتهما للكشف عن المعاني النفسية سخّرت فيها ثقافتي اللغوية المحدودة لاستجلاء النوازع النفسية في كتابي ( الخطاب النفسي في القرآن الكريم )وأنجزت مع زميلتي الدكتورة حميدة البلداوي التي تختص بالدراسات النقدية والأندلسية تأليف كتابنا هذا الذي نهجنا فيه منهجاً أسلوبياً كشفنا فيه عن الخصائص اللغوية والدلالية والجمالية في نصوص الصحيفة السجادية في ضوء تحليل الوحدات إلى مقاطع والمقاطع إلى جمل والجمل إلى ألفاظ وحروف وأصوات. وأجرينا الموازنات بينها لاستنباط القيم الجمالية لهذا النص البليغ من خلال الإيحاءات الدلالية الموصلة إلى اكتشاف الصور المعبرة عن الحالات الشعورية لتحديد المسارات النفسية والعقلية والروحية. ومن هذا المنطلق أخاطب العقول الجامعية والنقاد واللغويين الحاذقين للسير قدماً نحو تطوير مناهجنا النقدية واللغوية لتستقيم أدوات البحث وتماشي عظمة النصوص الإبداعية الخالدة حتى لا نصاب بالإحباط عند ملاحقة تطور البحث اللغوي كما حصل في أحد أقسام اللغة العربية في العراق حين اقترح أستاذ متمكن في النقد الأدبي موضوعاً درسته طالبة دكتوراه غير مؤهلة لغوياً غيرأنها ذكية ومبدعة في النقد الأدبي وكان موضوع بحثها ( التوازي في القرآن الكريم ) وبعد إنجاز الأطروحة أحيلت إلى خبراء من اللغويين فرفض ثلاثة منهم إجازة الأطروحة للمناقشة وأجازها الرابع بعد لأي ثمّ طالب أحد الثلاثة بإجراء تحقيق في كيفية إجازة تلك الأطروحة لأنّها في رأيه تخلّ بالنص القرآني. وهذه الحادثة تكشف عمق الهوة بين ثقافة اللغوي المتمسك بالعلوم اللغوية القديمة وثقافة الناقد المشبع بمناهج الفكر الغربي وتقرع نواقيس الخطر للتنبيه على خطل التوجيه المعرفي في كل من الدراسات اللغوية والدراسات النقدية في جامعاتنا ومحافلنا الثقافية لأننا كما يظهر نسينا أوتجاوزنا المثل العربية الرائدة التي

أغنت الفكر العربي والأوربي كالعالم النحوي والبلاغي والناقد عبد القاهر الجرجاني الذي وضع للفكر اللغوي والنقدي منهجاً رصيناً في دراسة النصوص الخالدة كالقرآن الكريم وهو العالم الذي عدّه كثير من المحدثين رائداً من رواد المنهج البنيوي سخّر فيه كل الإختصاصات البلاغية والنحوية والصرفية والدلالية والنفسية والإجتماعية لدراسة النص 0 ولا شك في أننا لانريد الإلتزام بمنهج الجرجاني أو غيره من علماء العربية ورواد فكرها الخلاق بل نذكّربهذه المثل لنقرع الأجراس مرات ومرات في مجالس البحث وأروقة الجامعات بغية إيقاظ النائمين في ظل الموروث أومظلة المستورد من الغرب ودعوتهم إلى العمل الجاد المبدع لإيجاد السبل الفكرية الباعثة على التطوير والإبتكار وتخطي المناهج القديمة ليكون المفكر العربي مؤهلاً لهذا التوصيف من خلال نزوعه إلى إيجاد المناهج العلمية المتطورة والدراسات اللغوية الرائدة التي تضعها في ميدان المنافسة الشريفة مع إنجازات العصر الفكرية وفي هذا المجال أرى من المناسب أن نفرق بين نوعين من أنواع الفكر اللغوي :

الأول: الفكر الذي يعتمد المعايير اللغوية والقوالب المقننة لتحقيق هدف معين هو مكافحة شيوع اللحن في الأساليب اللغوية والنصوص التعبيرية وهذا الفكر لا غنى لنا عنه في الدراسات الأولية وإعداد المدرسين المختصين باللغة العربية إعداداً سليماً يستمد مشروعيته من نبل الغاية منه لما نلحظه من من حملات تشويه للغة القرآن الكريم ومحاولات طمسها وإشاعة العجمة فيها وتغليب اللهجات العامية عليها

الآخر: الفكر اللغوي الشمولي الذي ينظر إلى اللغة العربية نظرة المفكر والمنظّر الذي يلاحظ مراحل تطورها ونسيج بنائها اللغوي والترابط المعنوي بين مكوناتها ويرصد المسارب الدلالية لكل وحدة بنيوية بدءً من أصغرها وهو الصوت وانتهاءً بأكبر وحدة معنوية مقصودة ؛ ويستنبط النظريات المعنوية والدلالية والأسلوبية التي تسير حركة البناء اللغوي في النصوص الإبداعية للموازنة بين وجوه تميزها وتفردها في التأثير الوجداني والنفسي

والعقلي في المتلقي وهذه النظريات تتجدد وتنمو بحسب التطور الفكري والمعرفي للناطقين باللغة ودارسيها.

ومن هذا التمييز بين هذين النوعين يتضح أنّ دعوتنا تنحصر في النوع الثاني من الفكر اللغوي وبذلك نقطع الطريق على من يرى أنّ اللحن المستشري في صفوف العرب يعطي المسوغات للإقتصار على مسارات التصحيح اللغوي وتلقين النحو بحسب المعايير القديمة، وإني لأعلم علم اليقين أنّ مثل هذه الدعوة لن تجد الأذن الصاغيةلأول وهلة ولن تجد من يرعاها في مؤسساتنا الجامعية والثقافية لأنّ القائمين عليها إمّا أن يكونوا من المشبعين بالثقافة الغربية، يجهلون أصول لغتهم وأحكامها وأنظمتها غير أنّ الذي يحث خطانا لتطوير هذا المنهج اللغوي سهو إدراكنا أنّ المنطلق الحقيقي لحلّ أزمتنا اللغوية هو الخروج من الدوائر الضيقة وعدم الإحتباس في الإختصاصات المحددة والإنطلاق إلى ميادين رحبة يتنفس فيها الدرس اللغوي بأكثر من رئة ويعالج مشكلاته اللغوية بمنهجية متطورة ويرتبط بأكثر من آصرة ليكون فكراً لغوياً شاملاً وقادراً على التعبير عن خصائص اللغة العربية تعبيراً دقيقاً والكشف عن الطاقات التعبيرية والدلالية الصريحة والرمزية والإيحائية للغة. وآمل أن يشمّر اللغويون والنقاد عن سواعدهم لمناقشة هذه الأفكار لتطوير المناهج اللغوية والنقدية في الجامعات العربية وبناء نظريات معاصرة في اللغة والنقد سوتلك هي الغاية التي خلق العالم اللغوي والناقد الأدبي من أجلها[1].

وآمل أن تكون دراستنا لأساليب الصحيفة السجادية محاولة لتجسيد ما دعونا إليه وتقديم نص تراثي يتسم بحسن السبك وجمال التعبيروسمو المعاني ونبل الغاية ومتانة النظم ودقة مسالكه من خلال دراسة أسلوبية

---

(1) هذا المدخل في الأصل مقال عنوانه ( نحو منهجية معاصرة في النقد واللغة ) للأستاذ الدكتور كريم حسين ناصح الخالدي نشرت في جريدة الأديب العراقية في عددها (131)في 16 آب ( أغسطس)2006

متواضعة أردنا أن تكون وسيلة للكشف عن القيم الجمالية والروحية وبيان وجوه الإبداع اللغوي والبلاغي في هذا النص العظيم.

## معاني الكلام في الصحيفة السجادية :

ومن يتأمل في نصوص الصحيفة السّجادية يجد روضةً منسقة الورود ، متعددة الألوان، زاهية المنظر، دقيقة التنسيق، بديعة الصور، يشعر المرء حين يقرؤها كأنّه في نُزهة بين حقول هذه الروضة لا يدري أيقف عند هذا اللون من الزهور، أم عند تلك الاضمامة من الغصون أم يتأمل في تلك التوزيعات البيانية المعبّرة، فهي نسيج بياني منقطع النظير، فالفواصل بين العبارات متناسقة، والبنى الإفرادية والتركيبية متناظرة ومتواشجة ، والتنويعات البنيوية مذهلة مشوقة تزخر بألوان التقديم والتأخير ، والحذف والذكر، والفصل والوصل فلا يدري القارئ على أيّها يقف وفي أيّ منها يدقق النظر فكلّ منها يستحق العناية والاهتمام والدراسة والتحليل لذا وجدت أنّ أول خطوة أخطوها هي دراسة الأساليب والمعاني التي برزت في الصحيفة دراسة سريعة لأنّ الوقوف الطويل والنظر العميق يحتاج إلى مجلدات ففي كلّ سطر ظاهرة أسلوبية ، وفي كلّ جملة و عبارة التفاتة معنوية أو دلالية .

وقد وجدت الصحيفة السجادية مجموعة من الأدعية لذا بدأت بأكثر المعاني وروداً في هذه الأدعية وهو معنى الدعاء .

## الدعاء:

إنّ العلاقة بين الانسان وربّه ، ربّ الكون ومالك كلّ شيء هي علاقة العبد الضعيف الذليل المسكين المستكين بربه القادر المهيمن الجبار العزيز ذي الجلال والإكرام ، وقد كانت صلة الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ بربه صلة المؤمن بوحدانيته ، التقي الزاهد بمغريات الحياة ، الخاشع المتضرّع، لذا أخذ أسلوب الدعاء عنده أشكالاً وصوراً معبّرة عمّا يجيش في نفس الإمام فهو يكثر من التلذذ بلفظة (اللهم) أو يا إلهي ، وقبل البدء

بدراسة هذا الأسلوب أذكر أهم الآراء في لفظة (اللهم) " قال الخليل رحمه الله اللهم نداء والميم ههنا بدل من (يا) فهي ههنا فيما يزعم الخليل رحمه الله آخر الكلمة بمنزلة (يا) في أولها إلا أنّ الميم ههنا في الكلمة كما أنّ نون المسلمين في الكلمة بنيت عليها ، فالميم في هذا الاسم حرفان أولهما مجزوم والهاء مرتفعة لأنّه وقع عليها الإعراب ، وإذا ألحقت الميم لم تصف الاسم من قبل أنّه صار مع الميم عندهم بمنزلة صوت كقولك ياهناه ، وأمّا قوله عزّ وجلّ ﴿ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾[الزمر46] فعلى (يا) فقد صرفوا هذا الاسم على وجوده لكثرته في كلامهم ولأنّ له حالاً ليست لغيره" [1] وقال المبرد " لا يجوز عنده - أي سيبويه - وصفه، ولا أراه كما قال لأنّها إذا كانت بدلاً من (يا) فكأنك قلت يا الله ثم تصفه كما تصفه في هذا الموضع فمن ذلك قوله: ﴿ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ [الزمر 46]"[2]

وروى ابن السراج عن أبي العباس المبرد قوله : " الدليل على صحة قول الخليل أنّ قولك اللهم لا يكون إلا في النداء لا تقول غفر اللهم لزيد ، ولا سخط اللهم على زيد كما تقول سخط الله على زيد ، وغفر الله لزيد ، وإنما تقول اللهم اغفر لنا ، اللهم اهدنا ، وقال فإن قال الفراء هو نداء معه (أم) قيل له فكيف تقول اللهم اغفر لنا ، واللهم آمنا بخير ، فقد ذكر (أم) مرتين ، قال ويجب على قوله أن تقول يا اللهم لأنّه يا الله آمنا ، ولا يلزم ذلك الخليل لأنّه يقول الميم بدل من (يا)"[3]

وقد أوردت التفاسير ما ذكرته كتب النحو في هذه اللفظة جاء في بيان السعادة " أصله يا الله حذف اداة النداء وأتي بالميم المشددة في الآخر عوضاً عنها تعظيماً لاسمه الشريف أن يؤتى بصورة النداء ، وتفخيماً للفظه واشعاراً باشتداد المحبة ، فإنّ شدة الحب كشدّة الغضب تقتضي التشديد في

---

(1) الكتاب : 2/196، 197 .

(2) المقتضب : 4/239 .

(3) الأصول في النحو : 4/239 .

اللفظ وقيل أصله يا الله أمّ بخير مخفف بحذف حرف النداء وهمزة القطع وعد التفوّه بهذا الأصل ، وعدم اجتماع الميم مع حرف النداء دليل الأول . " [1]

وهذا التأويل لا يتنافى مع الدليل العقلي ، ولكني أرى أنّه قد يكون صحيحاً وقد لا يكون، ذلك أنّ الاستعمال الذي ورد في اللغات الجزرية (السامية) للفظ الجلالة نحو (إيل ، وإلّو ، واللّه ، واله ) ترجح أن يكون لفظ (اللهم) واحداً منها، استفادت العربية منه في الدعاء .

وقد اعترض على اختصاصه بالدعاء لكونه يرد موصوفاً كما جاء في الآية الكريمة واجاز بعضهم اختصاصه بالدعاء.[2]

ولو تأملنا في استعمال الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ هذه اللفظة لوجدناه يتصرف فيه كثيراً إذ ترد في الدعاء في مواضع كثيرة في قوله " اللهم اخسأه عنا بعبادتك" [3] وقوله "اللهم يا منتهى مطلب الحاجات " [4] وقوله " اللهم إن تشأ تعف عنا فبفضلك " [5] و "اللهم إليك تعمدت بحاجتي" [6] ووردت في الصحيفة متبوعة بـ ( يا ) النداء نحو قوله " اللهم يا من..." [7] ووردت بعدها الفاء في كثير من المواضع نحو قوله اللهم فها أنذا قد جئتك" [8] [8] ووردت بعدها ( أيما ) نحو قوله "اللهم أيّما عبد تاب إليك" [9] وورد بعدها

(1) بيان السعادة في مقامات العبادة : 254/1 .

(2) شرح الكافية : 1/ 146 .

(3) الصحيفة السجاية : 85 .

(4) المصدر نفسه : 71 .

(5) المصدر نفسه : 63 .

(6) المصدر نفسه : 217 .

(7) المصدر نفسه : 132 .

(8) المصدر نفسه : 133 .

(9) المصدر نفسه : 135 .

بعدها مبتدأ أو ما يدخل عليه نحو قوله " اللهم أنت عدّتي "[1] وقوله " اللهم إنّك كلفتني من نفسي ...... اللهم لا طاقة لي .."[2] أو خبر المبتدأ نحو قوله " اللهم لك الحمد"[3] ووردت اللهم في سياق جملة تنزيهية نحو قوله " سبحانك اللهم وحنانيت"[4] وجاء لفظة ( اللهم ) بعدها سبحانك ثم أعقبتها جملة اسمية نحو قوله " سبحانك اللهم والعز إزارك "[5] وجاءت بعد ( اللهم ) جملة شرطية نحو قوله " اللهم من تهيأ وتعبأ واستعد لوفادة إلى مخلوق وجاء رفده ونوافله ، وطلب نيله وجائزته فإليك يا مولاي كانت اليوم تهيئتي .... "[6]

وقد تأتي لفظة ( اللّهم ) بين الفعل وما يتعلق به من حروف الجر نحو قوله " أسألك ـ اللّهم ـ بأنّ لك الحمد لا إله إلا أنت أن تصلي على محمد ."[7] وتأتي بعد فعل يرد بعده اسم منادى وحرف متعلق بذلك الفعل نحو قوله " وأسألك اللّهم ربنا بأنّ لك الملك .. :[8] ويأتي بعده حرف كالفاء أو الواو نحو قوله " اللهم فإني امرؤ "[9] وقوله " اللهم فكما أبقيتني له فأبقني لأمثاله"[10] لأمثاله"[10] وقوله اللهم وآدم بديع فطرتك"[11] ويلاحظ في الصحيفة السجادية أن أكثر الاستعمالات شيوعاً فيها هو الصلاة على محمد وآله بعد ( اللّـــــــــهم) كقولـــــــــــه

---

(1) المصدر نفسه : 96 .

(2) المصدر نفسه : 104 .

(3) الصحيفة السجاية : 196 .

(4) المصدر نفسه : 241 .

(5) المصدر نفسه : 241 .

(6) المصدر نفسه : 217 ـ 218 .

(7) المصدر نفسه : 217 .

(8) المصدر نفسه : 216 .

(9) المصدر نفسه : 228 .

(10) المصدر نفسه : 268 .

(11) المصدر نفسه : 247 .

" للّهم صلّ على محمد وآله وهون بالقرآن .. " [1] " اللّهم صلِّ على محمد وآله وألهمنا معرفو فضله . " [2] وقد تأتي ( اللّهم ) معترضة بين متلازمين في جملة كقوله وأقم به كتابك وحدودك وشرائعك وسنن رسولك صلواتك - اللّهم - عليه وآله " [3] ولم يخرج الإمام لفظة ( اللّهم) في هذا التصرف في الاستعمال عن معنى الدعاء وقد استعملالإمام في الدعاء فضلاً عن هذه اللفظة ألفاظاً أخرى كلفظ الجلالة بعد ياء النداء ( يا الله ) كما مثلت لذلك ، ولفظة (إلهي ) نحو قوله "أستوهبك يا إلهي نفسي " [4] ولفظة (ربِّ ) كقوله " ربِّ صلِّ على محمد وآله صلاةً تجاوز رضوانك " [5] واسم التفضيل في قوله " برحمتك يا أرحم الراحمين " [6] والاسم الموصول في نحو قوله " فيا من لم يعاجل المسيئين " [7] أو لفظة (مولاي) في قوله " مولاي مولاي " [8] وهذه الدعوات يسوقها بخشوع وتذلل تشعر به في الألفاظ التي تصاحب هذه الأدوات والأساليب الأخرى التي تصاحبها كالاستفهام أو الأمر أو النهي التي تخرج لأداء معنى الدعاء .

وما يلفت النظر في هذا الدعاء مهما تغيّرت أدواته أنّه يسخرّ كل لفظة وكل جملة لتعبّر عن اندماج روحي بالملأ الأعلى فلا تندّ لفظة و لا حرف عن ذلك.

---

(1) المصدر نفسه : 170 .
(2) المصدر نفسه : 176 .
(3) الصحيفة السجاية : 203 .
(4) المصدر نفسه : 160.
(5) المصدر نفسه : 201 .
(6) المصدر نفسه : 204 .
(7) المصدر نفسه : 207 .
(8) المصدر نفسه : 256 .

وقد تشعر بالدعاء في الجملة الخبرية في نحو قوله " إنّك طالبي إن أنا هربت ومدركي إن أنا فررت" [1] وكذلك الحال في الجملة الشرطية في نحو قوله " إن تعذبني فإني لذلك أهل ، وهو يارِبِّ منك عدل ، وإن تعفُ عنّي فقديماً شملني عفوك" [2] والجملة التنزيهية في قوله " سبحانك قدوس قدوس"[3] حيث يُشعر الإمام نفسه بضعفها أمام الإله العظيم الذي تخضع له كلّ الكائنات والذي قال عنه " تجبّر بالعظمة والكبرياء وتعطّف بالعز والبرّ والجلال ، وتقدس بالحسن والجمال " [4] ولا يطلب الإمام في أكثر أدعيته غير القرب إلى الله والتزلف إليه " إلهي عبيدك بفنائك ، سائلك بفنائك ، فقيرك بفنائك " [5] وقوله " إليك يرهب المترهبون ، وإليك أخلص المستهلون رهبة لك ورجاءً لعفوك " [6] وقد يكون طلبه خافياً يحسه المرء من خلال ألفاظ الجملة الشرطية " يا ربّ إن ترفعني فمن يضعني ، وإن تضعني فمن يرفعني " [7] فهو يقول يا ربّ ارفع مكانتي فإن رفعتني فلا يضعني أحد غيرك، ولا تضعني فإن تضعني فلا رافع لي غيرك .

وقد يكون دعاؤه إلى الله طلباً للاستجارة به من غضبه في عبارة جميلة "وأعوذ بك منك فأعذني " [8] ويأخذ الدعاء أحياناً صورة حقيقية يذكرها ثم يستفهم استفهاماً يخرج إلى الدعاء ، وهو ما كرره في دعاء التذلل قائلاً " مولاي مولاي أنت المولى وأنا العبد ، وهل يرحم العبد إلا المولى ، مولاي مولاي

---

(1) المصدر نفسه : 227 ـ 228 .

(2) المصدر نفسه : 228 .

(3) المصدر نفسه : 242 .

(4) الصحيفة السجادية : 244 .

(5) المصدر نفسه : 245 .

(6) المصدر نفسه : 245 .

(7) المصدر نفسه : 252 .

(8) المصدر نفسه : 253 .

أنت العزيز وأنا الذليل وهل يرحم الذّليل إلا العزيز " [1] وقد يسخّر الإمام أدوات النفي للتعبير عن الدعاء في نحو قوله " ما أنا بأول من عصاك فتبت عليه وتعرّض بمعروفك فجدت عليه " [2] أي اللهم تب عليّ وجد عليّ .

وقد يأخذ الدعاء طريقا لإدانة نفسه طلباً للعفو والمغفرة " إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمّارة ، وإلى الخطيئة مبادرة " [3] أي ربّ أمن نفسي من أن تأمر بالسوء أو تبادر إلى الخطيئة ، وقوله " إلهي أشكو إليك البلاء عدوّاً يضلني وشيطاناً يغويني " [4] أي ربّ احمني من ضلاله وغوايته .

وقد يأخذ الدعاء صيغة الماضي الخبري ليخرج إلى معنى الدعاء كقوله " إلهي استشفعت بك إليك ، واستجرت بك منك طامعاً في احسانك ، راغباً في امتنانك ... " [5] ويقصد اللّهم اشفع لي وقني ما يقود على غضبك ، وأجرني مما يغضبك ، وحقق لي احسانك وامنحني امتنانك ، وقد ينصرف الدعاء إلى الاعتراف بالذنوب كقوله - عليه السلام - " وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء ، وقابلها بالتقصير ، وشهد على نفسه بالاهمال والتضييع ، وأنت الرؤوف الرحيم ، البرّ الكريم الذي لا يخيّب قاصديه " [6]

ولله درّ الإمام تتدفق نفسه بالخشوع والطاعة وطلب الغفران بعفوية وهو خير من عاش في زمانه من البشر ، لذا تتداح الألفاظ في رحاب السماء خاشعة " بساحتك تحط رحال الراحلين ، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين فلا تقابل أمالنا بالتخييب والإيئاس ولا تلبسنا سربال القنوط والابلاس " [7] وقد يأخذ

---

(1) المصدر نفسه : 255 .

(2) المصدر نفسه : 276 .

(3) المصدر نفسه : 277 .

(4) الصحيفة السجادية : 277 .

(5) المصدر نفسه : 285 .

(6) المصدر نفسه : 287 .

(7) المصدر نفسه : 288 .

الدعاء طريق التعجب في قوله " سبحانك ما أضيق الطريق على من لم تكن دليله، وما أوضح الحق عند من هديته سبيله "[1] أي ربنا كن دليلنا في مسيرتنا واهدنا إلى سبيل الحق .

## الحصر والقصر:

وهو أسلوب عربي يعني تخصيص شيء بشيء بطريق معهود ، وقد قسمه علماء البلاغة إلى قصر حقيقي وغير حقيقي ، وكلّ منهما نوعان قصر الموصوف على الصفة ، وقصر الصفة على الموصوف ، والمراد المعنوية لا النعت والأول من الحقيقي نحو : ما زيد إلا كاتب ، إذا أريد أنّه لا يتصف بغيرها ، وهو لايكاد يوجد لتعذر الإحاطة بصفات الشيء ، والثاني كثير نحو: ما في الدار إلا زيد ، وقد يقصد به المبالغة .

وقد خلط النحويون بين هذا الأسلوب وأسلوب الاستثناء فعدّوا الحصر استثناءً مفرغاً وهو يتنافى والمعنى المقصود وذلك أن وجود ( إلا ) لا يعني أنّ الأسلوب استثناء في كلّ الأحوال لأنّ الاستثناء يعني اخراج شيء من شيء كقولنا حضر الرجال إلا زيداً ، وقالوا هو ادخال مما أخرجوا منه كقولنا لم يحضر الرجال إلا زيدٌ أو زيداً فقد أدخلنا زيداً فيما أخرجنا منه الرجال ، أمّا قولنا : ما زيد إلا شاعر فلا علاقة له بمعنى الاستثناء لأنه قصر للموصوف على الصفة ، لذا فكل استثناء مفرغ قصر ، وقد شاع هذا الأسلوب في الصحيفة السجادية بصيغ متعددة منها النفي وإلا ، والقصر بـ ( إنّما ) أو بالتقديم وغير ذلك والغاية الأساسية هي حصر الأفعال والصفات العظيمة بالله فهو الذي لا إله إلا هو " إنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك "[2] ولم يكتف الإمام بقصر الألوهية على الله بل أكد ذلك بصيغة الخطاب ( أنت) وزاد على ذلك (وحدك ) ثم أكد الكلام بنفي جنس الشريك

(1) المصدر نفسه : 292 .

(2) الصحيفة السجاية : 270 .

له ، وقصر الحول والقوة على قوته سبحانه وتعالى " فلا حول لنا إلا بقوتك ، ولا قوة لنا إلا بعونك "[1] لأنّ الإمام يدرك أنّ كل قوة تضعف بازاء قوة الله لأنّ الانسان مخلوق من ضعف، ومبني من الوهن، ابتدأه الله من ماء مهين ، فالله يملك كلّ شيء ويقدر على كلّ شيء لذا يستدل الإمام على عظمة الله وقدرته بما عرف في المجتمع، واعتاده الناس حين يخاطب إله الكون قائلاً " فلا يجير يا إلهي ربّ على مربوب ، ولا يؤمن إلا غالب على مغلوب ، ولا يعين إلا طالب على مطلوب، وبيدك يا إلهي جميع ذلك السبب وإليك المفرّ والمهرب."[2]

فقد جعل أمان المغلوب محصوراً في الغالب ، وعون المطلوب محصوراً في الطالب ، وهذا ما اعتاده الناس في أعرافهم الاجتماعية والدنيوية التي تسودها شريعة الغاب مستدلاً بذلك على قدرة الله وحصر الأمان والاستعانة به لأنّه يملك أسباب ذلك وخصّه دون غيره - سبحانه وتعالى - بأنّه الملجأ والمأوى فإليه دون غيره نفرّ ، وإليه دون غيره نهرب ، لأنّ دربنا في نهاية الأمر يوصل أرواحنا إلى بارئها ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر 27_28] لأنّ كل نفس ذائقة الموت فلا مهرب لها إلا بالعودة إليه ، وتقديم الجار والمجرور (إليك المفر ) تخصيص له وحصر المفرّ به ، ويسخر الإمام في كثير من المواضع التخصيص نحو قوله " فلك الحمد على ما فعلت "[3] في تعبيره عن حصر الحمد به جلّ وعلا ، ويؤكد بتكرير المقدم " بك بك بك استتر" [4] ومن يتصفح الصحيفة بعناية يجد الإمام يتدفق بلاغة في تعبيره عمّا آمن به ، وجرى في عروقه وسار في دمه من هيمنة الإله الجبار القادر العظيم الذي تتضاءل دونه أفعال البشر لذا حصر كلّ الأعمال العظيمة به نحو قوله " وما

(1) المصدر نفسه : 61 - 62 .

(2) المصدر نفسه : 100 .

(3) الصحيفة السجادية : 53 .

(4) المصدر نفسه :253 .

لي بعد أن حكمت على نفسي إلا فضلك "[1] وقوله "لا يندفع منها إلا ما دفعت ، ولا يكشف منها إلا ما كشفت "[2] وقوله "و لا تشغلني بما لا أدركه إلا بك عمّا لا يرضيك "[3] ويستعمل الإمام الأداة (إنّما ) في القصر قائلاً " اللهم إنّما يكتفي المكتفون بفضل قوتك ... وإنّما يعطي المعطون من فضل جدتك .. وإنّما يهتدي المهتدون بنور وجهك "[4] قصر اكتفاء المكتفين بفضل قوة الله واعطاء المعطين على فضل جدة الله ، وقصر اهتداء المهتدين بنور وجه الله جلت قدرته ، وحين ينفي أن يكون في نقمته عجلة قصر العجلة على من يخاف الفوت قائلاً " وإنّما يعجل من يخاف الفوت ، وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف "[5] ويلون الإمام صيغ التعبير عن هذا المعنى فيذكر الحصر في الجملة الأولى ويعطف عليها الثانية لتكتسب معناها من غير أداة حصر قال ـ عليه السلام ـ " إنّما يعجّل من يخاف الفوت ويحتاج إلى الظلم الضعيف "[6]

واستعمل الإمام مع إلاّ ألواناً من أدوات النفي فاستعمل الحرف (لم) قائلاً " ولم يكلفنا إلا وسعنا ، ولم يجشّمنا إلا يسراً ، ولم يدع لأحد منّا حجة ولا عذرا"[7] واستعمل (ليس) قائلاً " ليس يرد غضبك إلا حلمك ، ولا يرد سخطك إلا عفوك ، ولا يجير من عقابك إلا رحمتك ، ولا ينجيك منك إلا التضرع إليك"[8] فقد وردت (ليس) نافية ثم عطف عليها بـ (لا) أكثر من مرة ليزيد توكيد هذا الحصر . ولم يكتفِ بـ(ليس) و ( إلا ) بل استعمل ( ليس ) و

---

(1) المصدر نفسه : 96 .

(2) المصدر نفسه : 57

(3) المصدر نفسه : 210 .

(4) المصدر نفسه: 50 .

(5) الصحيفة السجادية : 220ـ 221 .

(6) المصدر نفسه : 220 221 .

(7) المصدر نفسه : 36 .

(8) المصدر نفسه : 220 .

( سوى ) وعطف عليها ( لا ) و ( حاشا ) و ( غير ) قائلاً " ليس لحاجتي مطلب سواك ، ولا لذنبي غافر غيرك حاشاك "[1] وكان الاقتصار على ( غيرك ) ممكناً لكنّه أراد زيادة الحصر والتخصيص فأردف ( غير ) بـ ( حاشا ) واستعمل في النفي ( لا ) في قوله " وحتّى لا تعي بطوننا إلا ما أجللت ، ولا تنطق ألسنتنا إلا بما مثلت ، ولا نتكلّف إلا ما يُدني من ثوابك ولا نتعاطى إلا الذي يقي من عقابك .... لا نشرك فيه أحداً دونك ، ولا نبتغي فيه مراداً سواك"[2] ويلاحظ في هذا النص أنّ الإمام لم يقتصر على ( إلا ) بل استعمال أدوات أخرى مثل ( سواك ) و ( دونك ) وهو يستعملها في كثير من الجمل استعمال ( غير ) و ( سوى ) فالله سبحانه وتعالى هو الذي ترد إليه الأمور وحده لا أحد سواه لذا جاء حصر الأحداث والأمور الجسيمة بذاته القدسيّة من بواعث استعمال الإمام هذا الأسلوب كثيراً .

## التوكيد :

في اللغة التوثيق والتحقيق قال الخليل " أكدت العقد ، واليمين وثقته ، ووكدت : لغة ، والهمز في العقد أجود "[3]

وهو أسلوب يستفيد منه المتكلم في اقناع المخاطب إذا كان شاكاً أو منكراً ، لذا نجد الصحيفة السجادية تعج بطرائق التوكيد المختلفة كالتوكيد بـ ( إنّ ) كقوله " إنّك تفعل ما تشاء وتحكم ما تريد إنّك على كلّ شيء قدير "[4] وقوله " إنّا إليك راغبون "[5] وقوله " فإنّ فضلك لا يغيض وإنّ خزائنك لا تنقص بل تفيض وإنّ معادن احسانك لا تفنى ، وإنّ

---

(1) المصدر نفسه :70 .

(2) المصدر نفسه : 176 ـ 177 .

(3) العين :5 / 379 .

(4) الصحيفة السجاية : 84

(5) المصدر نفسه : 149 .

عطاءك للعطاء المهنا "[1] ويلاحظ في الجملة الأخيرة أن التوكيد بـ ( أنّ ) جاء معززاً بتوكيد آخر هو اللام الداخلة على ( العطاء ) وهي اللام المزحلقة ، ذلك أن الإمام أراد أن يرد من أنكر عطاء الله ـ جلّت قدرته ـ وهذا ما أراده في كلّ توكيداته إذ يعلم أن المقصود بالخطاب هو القارئ أو السامع وليس الله لأنه يعلم أن الله ـ سبحانه ـ لا يحتاج إلى توكيد بل الشاك أو المنكر هو الانسان الذي يقرأ أو يسمع هذا الخطاب .

ويكثر في الجمل الفعلية إيراد نون التوكيد قال ـ عليه السلام ـ في حديثه عن الاستعاذة من شر الشيطان الرجيم " اللهم لا تجعل له في قلوبنا مدخلاً ولا توطنن له فيما لدينا منزلا "[2] فجاء التوكيد في الجملة الثانية زيادة في دلالة النهي الخارج على معنى الدعاء ـ كما يقول أهل البلاغة ـ خوفاً من نفوذ الشيطان إلى نفوسنا ، واستيطانه فيما لدينا ، وكان الإمام يكثر من استعمال ( النون ) في حالات الفعل الدال على الدعاء قال " ولا أظلمنّ وأنت مطيق للدفع عنّي ، ولا أظلمن وأنت القادر على القبض مني ، ولا أظلمن وقد أمكنتك هدايتي ، ولا أفتقرنّ ومن عندك وسعي ولا أطغينّ ومن عندك وجدي"[3] فالإمام يؤكد أنّ الظلم قبيح لأنّه شرك فلا يريد أن يظلم أحداً ولا يريد أن يُظلم فأكد الفعل في الحالين ودعا ربّه إلا ينزلق إلى الضلال ( ولا أضلنّ ) لأنّ الضلال مهلكة للانسان كما دعا الله إلى إبعاده عن الفقر لأنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ قادر على ان يرزقه فلا يلجئه إلى مذلة البشر ، وإبعاده عن الطغيان لأن الانسان مهما زادت قوته ضعيف بازاء قوة الله الذي أنشأه جنيناً ضعيفاً لا حول له ولا قوة لذا أكد الإمام هذه الأفعال لينجيه الله من من مهاوي الهلاك بها ومثله قوله " فلا يضيقن عنّي فضلك ولا يقصرن دوني عفوك "[4]

---

(1) المصدر نفسه : 189 .

(2) المصدر نفسه : 86 .

(3) الصحيفة السجادية : 95 .

(4) المصدر نفسه : 141 .

أما حروف التوكيد التي سميت بالحروف الزائدة فهي كثيرة الورود في تعبير الصحيفة السجادية قال " فما أنا بأول راغب إليك فأعطيته وهو يستحق المنع، ولا بأول سائل سألك فأفضلت عليه وهو يستوجب الحرمان "[1] فالباء في( بأول ) وتكرارها زاد التعبير قوة في أداء معنى التوكيد وكان الكلام يستقيم لو قال ( وما أنا أول راغب إليك ) لكنّه قصد التوكيد لنظرته الشاملة في تاريخ البشرية وكثرة من رغبوا إلى الله ومنه قوله " وكفى بك حسيبا "[2]

ويكثر في تعبير الصحيفة السجادية تكرار الألفاظ أو ذكر مرادفها أو المشتق منها لتوثيق الأحداث وتقوية معانيها لشغف الإمام بحب الله ـ سبحانه وتعالى ـ لذا يكثر الإمام من ذكر الله وصفاته نحو " ياعظيم ياعظيم يا كريم يا كريم "[3] وقوله " سبحانك قدّوس قدّوس قدّوس"[4]

وقد تتنوع هيئات اللفظة الواحدة نحو قوله تعالى: ﴿ واكشف غمي يا واحد يا صمد﴾[5] ومن جميل التكرار المعبّر عن معنى التوكيد في كلام الإمام ـ عليه السلام ـ تكرار حروف الجر كقوله " بك بك استترت"[6] فلم يرد القول إني استترت بك أراد بك وحدك لا غيرك أستتر ، فالتكرار يشير إلى أنّ الاستتار مخصوص بالله لا بغيره ، ويأخذ التكرار شكلاً آخر في كلام الإمام بذكر الاسم وتكراره مجروراً بحروف الجر نحو قوله " ولا تصال نفس بنفس ولا لحوق قدوم بقدوم "[7] وقد يأتي التكرار بالمصدر ( المفعول

---

(1) المصدر نفسه :
(2) المصدر نفسه: 227 .
(3) المصدر نفسه : 218 .
(4) المصدر نفسه : 242 .
(5) الصحيفة السجادية : 238 .
(6) المصدر نفسه : 253 .
(7) المصدر نفسه : 163 .

المطلق ) كقوله " أنت الذي قدّرت كلّ شيء تقديرا ، ويسّرت كلّ شيء تيسيرا ، ودبّرت ما دونك تدبيرا " [1] ويأتي التكرار بما ينوب عن المصدر كذلك كقوله وكتاباً فصلته لعبادك تفصيلا " [2] وقوله " فاجعلنا ممن يرعاه حقّ رعايته " [3] وقوله " وبارك عليه أتمّ بركاتك " [4] ويأتي التوكيد التوكيد بأساليب أخرى كاستعمال ضمير الفصل في نحو قوله " إنّك أنت الوهاب " [5] وهو الضمير الذي يفصل بين كون الوهاب خبراً لأنت أو نعتاً لذا يؤكد المعنى المؤكد بـ ( إنّ ) كقوله " إنّك أنت أرحم الراحمين " [6] وقوله " فإنّ حزبك هم المفلحون " [7] وقد ورد ( قط ) توكيداً للنفي في قوله " فإني لم أحب خيراً قط إلا منك ، ولم يصرف عني سوءً قط أحد غيرك " [8] ووردت ووردت ( قد) مع الفعل الماضي نحو قوله " وقد علمت أنّه ليس في حكمك ظلم " [9] لأنّ قد تفيد التحقيق مع الفعل الماضي .

وطرائق التوكيد في الصحيفة كثيرة لا يستوفيها هذا البحث الموجز، ولكن الذي نستنبطه من هذا القليل الذي أشرت إليه يظهر تمسّك الإمام بحقائق لا يمكن ذكرها من غير توثيق وتحقيق كوحدانية الله ، وإيمان الإمام بعدل الله ورحمته وعظمته وقوته وحسن تصريفه وتدبيره ودقة خلقه وتفرّده ـ سبحانه وتعالى ـ فكان التوكيد معبرًا عن رسوخ ذلك الإيمان في تلك

---

(1) المصدر نفسه : 197 .
(2) المصدر نفسه : 166 .
(3) المصدر نفسه : 167 .
(4) المصدر نفسه : 200 .
(5) المصدر نفسه : 271 .
(6) المصدر نفسه : 269 .
(7) المصدر نفسه : 263 .
(8) الصحيفة السجادية : 217 .
(9) المصدر نفسه : 220 .

الاستعمالات فصيحاً بليغاً مبدعاً في اختيار ألفاظه ووضعها في مواضعها من حيث النفي والاثبات ، وتعلق الحروف بأفعالها ، وارتباط المصادر بأفعالها .

## التعجب :

وهو أسلوب يعبّر فيه المتكلم عما يخالجه من مشاعر وأحاسيس تعتمل في داخله حين يرى ما ليس مألوفاً أو معتاداً ، وقد ذكر اللغويون له نوعين هما التعجب القياسي وله طريقتان الأولى ( صيغة ما أفعله ) والأخرى ( صيغة أفعل به ) والنوع الآخر السماعي ، ويعبر عنه بعدد من الألفاظ المسموعة ، واللافت للنظر في الصحيفة السجادية كثرة ورود صيغة ( ما أفعله ) عبّر عنها الإمام عن عظمة قدرات الله وسعة رحمته وقوة إرادته وعجيب أفعاله وعطاياه قال الإمام " فسبحانك ما أبين كرمك في معاملة من أطاعك أو عصاك تشكر للمطيع ما أنت توليته له "[1] وقال مخاطباً الهلال " ما أعجب ما دبّر في أمرك، وألطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث"[2] ويعجب الإمام من أمر أهل الشقاوة من أهل الكفر فبعد أن يدعو عليهم بالويل " فالويل الدائم لمن جنح عنك ، والخيبة الخاذلة لمن خاب منك ، والشقاء الأشقى لمن اغتر بك " يقول الإمام متعجباً " ما أكثر تصرفه في عذابك وما أطول تردده في عقابك، وما أبعد غايته من الفرج، وما أقنطه من سهولة المخرج" [3] وحين تعظم في نظره بدائع خلق الله، وجلال قدره يهتف قائلاً " سبحانك ما أجل شأنك ، وأسنى في الأماكن مكانك، وأصدح بالحق فرقانك، سبحانك من لطيف ما ألطفك، ورؤوف ما أرأفك، وحكيم ما أعرفك سبحانك من مليك ما أمنعك، وجواد ما أوسعك ورفيع ما أرفعك" [4] وفي هذه الصيغ النابعة من أعماق قلب الإمام تشعر برجفة في بدنك أو رعدة

---

(1) المصدر نفسه: 155 .

(2) المصدر نفسه : 173 .

(3) الصحيفة السجادية : 194 .

(4) المصدر نفسه : 198 .

تتابك وأنت تسمع الإمام يتهدج بهذه الأعاجيب من صفات الله وعبّر الإمام عليه السلام بيا النداء عن معنى التعجب فيما قال عنه البلاغيون خروج النداء إلى التعجب نحو قوله " فيا سوأتاه مما أحصاه عليّ كتابك ، فلولا المواقف التي أؤمل من عفوك الذي شمل كلّ شيء لألقيت بيدي "[1] فالإمام يلجأ من فرط احساسه بالخوف من الله إلى القول بالحسرة ( فيا سوأتاه ) ظاناً أنّه قد امتلأت صحائفه سوءً وهو هو في عبادته وحسن معشره وسلوكه ، وهو هو في عظيم خلقه وتصرفه ، لكنه كما ذكرت سابقاً . يلقي مساوئ غيره على نفسه لأنه إمام الناس وقائدهم الذي يهديهم ويبصرهم في أمورهم ، ومثله قوله في لحظات خشوعه وتَذلّله إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ حين يتذكر ما يصيب الإنسان عند موته من بلى الجسم وتفرّق الأعضاء وتقطّع الأوصال " يا غفلتي عما يراد بي مولاي وارحمني في حشري ونشري "[2] ولله درّ الإمام السجاد يقول ذلك وهو العبد المطيع المؤمن التقي ترى ماذا يقول الناس المفسدون الذين أوغلوا في الضلالة وقد أخذتهم الغفلة عمّا يراد بهم وضلوا السبيل في متاهات الحياة،وأزقة شبهاتها ، ألا ما أضيع الإنسان وما أضله ، وقد وردت المعاني الأخرى من أمر ونهي واستثناء واستفهام في الصحيفة السجادية زاخرة بفنون التعبير الجميل عن معنى التوحيد والقدرة الإلهية والعظمة والصفح الجميل وعفوه ـ عزّ وجلّ ـ عن البشر وارادته التي طالت كل شيء ، ورحمته التي وسعت كل شيء فهو يستفهم لكن الاستفهام يقرر حقيقة تلك القدرة " إلهي إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني ، وإن وضعتني فمن ذا الذي يرفعني وإن أكرمتني فمن ذا الذي يهينني ، وإن أهنتني فمن ذا الذي يكرمني وإن عذبتني فمن ذا الذي يرحمني وإن أهلكتني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك أو يسألك عن أمره "[3] فالإمام وإن جمع بين الشرط والاستفهام في بناء

(1) المصدر نفسه : 227

(2) المصدر نفسه : 237

(3) الصحيفة السجادية: 220

جملي جميل معبّر لكنه أخرج هذين الأسلوبين إلى تأكيد حقيقة والإقرار بها هي أن إرادة الله فوق كل شيء وقد يعبّر الاستفهام عن الحيرة التي تنتاب الإنسان حين يختار أحد أمرين وهو يراهما جديرين بالتقديم، فالإمام حين يمرض لا يتذمر مثل سائر الناس ، ولا يصيبه الضجر والملل من حال المرض بل يتوجه الى البارئ العظيم حامداً وشاكراً وهو لايدري أي الحمدين أولى ، حمد الله على الصحة ، أم حمد الله على المرض قال "فما أدري يـإلهي أي الحالين أحق بالشكر لك ؟ وأي الوقتين أولى بالحمد لك ؟ أوقت الصحة التي هنأتني فيها طيبات رزقك ، ... أم وقت العلة التي محصتني بها ، والنعم التي أتحفتني بها تخفيفاً لما ثقل به على ظهري من الخطيئات ، وتطهيراً لما انغمست فيه من السيئات ، وتنبيهاً لتناول التوبة وتذكيراً لمحو الحوبة بقديم النعمة "[1] وخرج معنىالأمر والنهي في الصحيفة كثيراً إلى الدعاء كما مرّ بنا في نحو قوله " واجعل يقيني أفضل اليقين وانته بنيتي إلى أحسن النيات وبعملي إلى أحسن الأعمال .... ولاتبتليني بالكبر ، وعبّدني لك ولاتفسد عبادي بالعجب وأجر للناس على يدي الخير ولا تمحقه بالمنّ ..."[2] وكان الإمام زين العابدين يراعي في أساليبه حسن النظم وبديع النسج متوخياً الفصاحة والبلاغة فيما طرّزه من ديباج بديع يحسن فيه التقديم إن أراد الاهتمام بما يقدّم أو يخصصه بما يريد تخصيصه ، ويذكر حين يجد الذكر منفذاً للتعظيم والمدح والتكريم ، ولايذكر حين يجد الموقف يحتاج إلى الاضمار مراعياً ذكاء المخاطب وحاله والموقف الذي يكون عليه ومعرفته وعلمه ، وكان يصل في الحالات التي تقتضي الوصل ويفصل في الحالات التي يحسن فيها الفصل .

وكانت معاني النفي أو الاستفهام أو التمني أو الترجي تعرض في جملة من المواضع التي تحسن فيها وتجمل مراعياً مقتضى الحال ووضع الألفاظ في مواضعها .

(1) المصدر نفسه : 77-78

(2)المصدر نفسه : 91

فمن تقديمه لما أراد الاهتمام به قوله " وإياك أرغب في لباس العافية وتمامها . " [1] وقوله " اللهم إلى مغفرتك وفدت ، وإلى عفوك قصدت وإلى تجاوزك اشتقت ، وبفضلك وثقت " [2] وقوله " وإياك أسترشد لما فيه الصلاح والإصلاح " [3] ويستغني عن الذكر حين يجد أنّ ذلك أعرف من أن يكون أو يشير إليه وأبلغ نحو قوله " خالق لا نظير له ، وواحد لا ضدّ له وصمد لا كفو له ، وإله لا ثاني معه ، وفاطر لا شريك له ، ورازق لا معين له " [4] فلم يذكر الإمام الضمير هو ، هو ..... ولم يذكر مفعولات الأفعال في قوله " ومهلني ، ونفّسني ، وأقلني عثرتي ..... " [5] أو قوله " اللهم لك الحمد أن خلقت فسوّيت وقدّرت وقضيت ، وأمتّ وأحييت وأمرضت وشفيت ، وعافيت وأبليت ..... " [6] فكل فعل من هذه الأفعال يفتقر إلى مفعول لكنّ الإمام لم يرد ذكر المفعول لأنه ليس القصد بل أراد الحدث وحده وهذا كقوله تعالى: ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر9] قال ابن هشام "وتارة يتعلق بالإعلام بمجرد ايقاع الفاعل للفعل فيقتصر عليهما ولا يذكر المفعول ولا ينوى إذ المنوي كالثابت ولا يسمى محذوفاً لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له ومنه "ربي الذي يحيي ويميت "[7]

ومما ورد في الصحيفة السجادية غير موصول بحرف عطف قوله "أمتنا مهتدين غير ضالين ، طائعين غير مستكرهين ، تائبين غير عاصين"[8] فلم

(1) الصحيفة السجادية : 258

(2) المصدر نفسه : 95 .

(3) المصدر نفسه : 257 .

(4) المصدر نفسه : 244 ـ 245 .

(5) المصدر نفسه : 253 .

(6) المصدر نفسه : 266 .

(7) مغني اللبيب : 2 / 612 .

(8) الصحيفة السجادية : 164

يعطف طائعين أو تائبين على مهتدين ، ومنه قوله ـ عليه السلام ـ " اللهم لك الحمد بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، ربّ الأرباب ، وإله كلّ مألوه وخالق كلّ مخلوق ... لا إله إلا أنت الأحد المتوحد الفرد المتفرد ، وأنت لا إله إلا أنت الكريم المتكرّم ، العظيم المتعظم ، الكبير المتكبر ، وأنت لا إله إلا أنت العلي المتعال الشديد المحال ... " [(1)] وسواء أكان ذلك من باب الفصل أم من تعدد الأخبار والأحوال فهو أسلوب أراد به الإمام تسليط الأضواء على هذه الصفات والأخبار والأحوال ليبرزها للمخاطب واضحة جلية لأن مراده ابراز واظهار صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فكأنه يطرّز عباراته بأحرف العطف أحياناً أو يخفيها تارة أخرى ليعلم السامع عظم هذه الصفات وجلال قدرها .

ولو استوفينا كلّ الحالات التي تعترض بناء الجملة لطال بنا المقال لكني آثرت الإشارة إليها اشارات عابرة لتكون مفتاحاً لما سنجريه من تحليل اسلوبي لنصوص الصحيفة .

وفي هذا المقام يجدر بنا أن ننظر في أنواع الجمل التي وردت في الصحيفة السجادية فقد عبّر الإمام عن المعاني بأنماط متعددة من الجمل استوفى فيها كلّ الأنواع المعروفة ، معبّراً عن المعاني التي تحملها ومنها :

1- الجملة الاسمية: يتفق العلماء على أنّ هذه الجملة تعبّر عن معاني الثبات والاستقرار والحقيقة والاعتياد وغير ذلك مما يتضمنه الاسم من معانٍ وقد ساق الإمام هذه الجملة بأشكال نختلفة من تقديم المبتدأ أو تأخيره وكان الخبر يأتي اسماً أو غيره كما يعبّر عن ذلك النحويون ـ فهو يقول " أنت الله لا إله إلا أنت الكريم الأكرم الدائم الأدوم " [(2)]

---

(1) المصدر نفسه : 196 .

(2) الصحيفة السجادية: 197 .

ويقول " أنت عدّتي إن حزنت وأنت منتجعي إن حُرمت ، وبك استغاثتي إن كرِثتُ" [1]

وقد وردت الجملة الاسمية كثيراً صلات للموصولات في نحو قوله " يا من ذكره شرف للذاكرين ، ويا من شكره فوز للشاكرين ، ويا من طاعته نجاة للمطيعين " [2] كما وردت الجملة الاسمية بعد لفظة ( اللهم ) نحو قوله - عليه السلام - " اللهم هذا يوم مبارك ميمون والمسلمون فيه مجتمعون في أقطار أرضك ، وأنت الناظر في حوائجهم " [3]

وترد الجملة الاسمية في المواضع التي يعبّر فيها الإمام عن حقائق وحدانية الله ، وذكر صفاته نحو قوله " مولاي مولاي أنت المولى وأنا العبد .... مولاي مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق ، مولاي مولاي أنت المعطي وأنا السائل"[4] أو قوله في ذكر صفاته " أنت الحليم الكريم الحنان المنان ذو الجلال والإكرام بديع السموات والأرض " [5] وقوله " فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي ، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي ، وبرد لوعتي وكشف كربتي " [6]

وعبّر الإمام عن مشاعره، وكأنها حقائق ثابتة في حياته لأن ما عبّر عنه كان الحلم الذي يعيش في مخيلته كلّ لحظة فصار كالحقيقة الثابتة فالجملة الاسمية تتنوع في هذه النصوص من حيث البناء من صورة إلى أخرى في

(1) المصدر نفسه : 96 .

(2) المصدر نفسه : 65 .

(3) المصدر نفسه : 216 .

(4) المصدر نفسه : 255 .

(5) المصدر نفسه : 216 .

(6) الصحيفة السجادية : 293 - 294 .

حالات التقديم والتأخير ، وتعدد الأخبار ، ونوع الخبر ، وهو في هذه الأشكال كلّها يعبّر عن حقائق ثابتة ، وأمور معتادة ، وغير ذلك مما تدل عليه الجملة الاسمية .

2- الجملة الفعليّة : تدلّ الجملة الفعلية على ما يدلّ عليه فعلها من التغيير والتجدد والحدوث ، وقد عبّر الإمام بالجملة الفعلية عمّا يتغيّر في الحياة من أحداث كثيرة ، بأفعال متغيّرة الأزمنة ، فهو يحكي أحداثاً وأفعالاً أفاء الله بها على الناس قال " شهدت أنّ الله قسم معايش عباده بالعدل ، وأخذ على جميع خلقه بالفضل "[1] كما عبّر عما جرى له من أحداث ماضية بهذه الجملة " وأيما عبدٍ نال مني ما حظرت عليه ، وانتهك مني ما حجرت عليه فمضى بظلامتي ميّتاً ، أو حصلت لي قبله حيّاً "[2]

وقد استعمل الفعل الماضي للتعبير عن معنى الدعاء في قوله " خاب الوافدون على غيرك ، وخسر المتعرضون إلا لك ، وضاع الملمّون إلا بك وأجدب المنتجعون إلا من انتجع فضلك "[3] ويعبّر بالفعل المضارع عن الأحوال التي تعتمل في نفسه في لحظات خشوعه ووقوفه بين يدي الله جلّ وعلا " يا من يرحم من لا يرحمه العباد ، ويا من يقبل من لا تقبله البلاد ، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة إليه ، ويا من لا يخيّب الملحّين عليه ، ويا من لا يجبه بالرد أهل الدالة عليه ، ويا من يجتبي صغير ما يُتحف به ويشكر يسير ما يُعمل له ، ويا من يشكر على القليل ويجازي بالجليل .. "[4]

فالفعل المضارع يعبّر عن الأحداث التي حدثت وتحدثّ ' فهي مستمرة في حدثانها ما دامت تفيد الحال والاستقبال كقوله " حمداً يستدام به الأول ويُستدعى به دوام الآخرة ، حمداً يتضاعف على كرور الأزمنة ، ويتزايد

(1) المصدر نفسه : 150 .

(2) المصدر نفسه : 159 .

(3) المصدر نفسه : 193 .

(4) الصحيفة السجادية : 192 .

أضعافاً مترادفة ، حمداً يعجز عن احصائه الحفظة ، ويزيد على ما أحصته في كتابك الكتبة .. " [1] فالاستمرار جليّ بالقرائن والأدلة كورود المصدر ( كرور الأزمنة ) وغيره .

وقد يعبّر الإمام عن الزمن الماضي بالفعل المضارع المنفي بـ ( لم) كقوله " ولم يعنك على خلقك شريك ، ولم يوازرك في أمرك وزير ، ولم يكن لك مشاهد ولا نظير .. ولم يقم لسلطانك سلطان ولم يعيك برهان ولا بيان " [2] وقد يعبّر بالفعل الماض عن الزمن المستقبل ايماناً بحتمية تحققه ويقيناً بحدوثه لأنه كالحقيقة التي لا تقبل الشك قال ابن هشام " انهم يعبرون عن الماضي والآتي كما يعبّرون عن الشيء الحاضر قصداً لاحضاره في الذهن حتى كأنه مشاهد حالة الإخبار . " [3]

قال الإمام " إلهي أجرني من أليم غضبك . . . يا غفار يا ستار نجني برحمتك من عذاب النار وفضيحة العار إذا امتازت الأخيار من الأشرار وحالت الأحوال ، وهالت الأهوال ، وقرب المحسنون ، وبعد المسيئون ووّفيت كلّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون . " [4]

فامتياز الأخيار من الأشرار ، وحول الأحوال ، وهول الأهوال ، وغير ذلك من الأحداث التي ذكرها لم تحدث بعدُ ، بل ستحدث في يوم القيامة كما ورد في القرآن الكريم ﴿إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت﴾ [الانفطار1 ، 2]

ومن جميل استعماله الفعل الماضي في الدعاء قوله "سبحانك اللهم وحنانيت ، سبحانك اللهم وتعاليت" [5] إذ عطف الفعل على جملة التنزيه

---

(1) المصدر نفسه : 199 ـ 200

(2) المصدر نفسه : 197 .

(3) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : 2 / 690 .

(4) الصحيفة السجادية : 280 ـ 281 .

(5) الصحيفة السجادية : 241 .

فالفعل ( حنانيت ) غير مألوف الاستعمال لأن " العرب تقول حنانك يا ربّ وحنانيك يا ربّ بمعنى واحد أي رحمتك " [1] ولكن الإمام جانس صوتياً بين تعاليت وحنانيت .

3- الجملة الشرطية: لا ترد الجملة الشرطية بدلالتها المعروفة بين الدارسين أي الدلالة على وقوع شيء لوقوع غيره ، ومعناها أنّ الجواب لا يتحقق إلا بتحقق الشرط ، ذلك أن الإمام في أكثر خطاباته كان متوجهاً إلى ربٍّ عظيم يخشاه ويخافه ويعرف قدره لذا كان يقف مرتجفاً عند مخاطبة الله - سبحانه وتعالى - فلا يشترط في كلامه شرطاً غير أنه يرد في كلامه ترتب أمر على وقوع أمر آخر كقوله في حديثه عن رؤية السحاب والبرق وسماع صوت الرعد " وإن كنت بعثتها نعمةً وأرسلتها سخطةً فإنا نستجيرك من غضبك ونبتهل إليك في سؤال عفوك " [2] فجملة الجواب استجارة بالله من غضبه ، وابتهال إليه في طلب عفوه إن كان ما حدث نقمةً وغضباً على ما بدر منهم وقوله في شهر رمضان " وإن ملنا فيه فعدّ لنا ، وإن زغنا فيه فقومنا ، وإن اشتمل علينا عدوك الشيطان فاستنقذنا منه " [3] ويلاحظ هنا استعمال الأفعال الماضية في الدلالة على حدوث الأحداث ، وما يترتب عليها من جواب وهو وجه من وجوه الجملة الشرطية . وورد الجزاء جملة فعلية فعلها مضارع منفي بـ(لم) التي تصرف دلالة المضارع إلى زمن الماضي في نحو قوله " إن أعطيت لم تشب عطاءك بمن ، وإن منعت لم يكن منعك تعدياً " [4]

وقد يأتي الجزاء جملة استفهامية يراد بها النفي والإنكار فتنصرف الجملة الشرطية على دلالة أخرى " إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني ، وإن

---

(1) المختار من الصحاح : 123 .

(2) الصحيفة السجادية : 152

(3) المصدر نفسه : 179 .

(4) المصدر نفسه : 181 .

وضعتني فمن ذا الذي يرفعني "[1] فالجملة الاستفهامية أفادت معنى النفي لأن ما يريده الله لا يمكن رده، ولا يمكن نقض ما يحكم به .

وقد يكون الجواب جملة استفهامية تفيد التقرير نحو قوله " فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ ، وإن رددتني عن جنابك فبمن أعوذ "[2] أي أنت الملاذ الذي ألوذ به ولا أحد غيرك أعوذ به .

وقد يكون الجزاء أمراً يخرج إلى الدعاء نحو قوله " إن كان قبح الذنب من عبدك فليحسن العفو من عندك "[3]

وقد يرد الجزاء جملة خبرية مؤكدة نحو قوله " إن كان قلّ زادي في المسير إليك فلقد حسن ظنّي بالتوكل عليك ، وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك ، وإن كان ذنبي قد عرّضني لعقابك فقد آذنني حسن ثقتي بثوابك "[4] ويستعمل الإمام أداة غير مألوفة في النحو ، ويعاملها معاملة الشرط نحو قوله " فكما غذيتنا بلطفك، وربيتنا بصنعك فتمّم علينا سوابغ النعم "[5] إذ ربط الجواب بالفاء لورود الجواب جملة فعلية فعلها أمر .

4- الجملة الظرفية : لا تبدو معالم الجملة الظرفية واضحة في الصحيفة السجادية إلا في أمثلة لا تعتمد فيها على نفي أو استفهام أو غيرهما ففي قوله " فلك الحمد إقراراً بالإساءة ، واعترافاً بالإضاعة ولك من قلوبنا عقد الندم ومن السنتنا صدق الاعتذار "[6] وفي هذا النوع من الجملة الظرفية خلاف فقد ذهب الكوفيون والأخفش في أحد قوليه إلى أن الحمد

---

(1) الصحيفة السجادية : 220 .

(2) المصدر نفسه : 274 .

(3) المصدر نفسه : 276 .

(4) المصدر نفسه : 284 .

(5) المصدر نفسه : 288 .

(6) المصدر نفسه : 187 ـ 188 .

، وعقد ، وصدق، مرفوعات بالجار والمجرور على أن كل لفظة منها تعرب فاعلاً للجار والمجرور ، وهي جملة قائمة برأسها وليست اسمية كما يذهب إلى ذلك البصريون[1] ومثل هذه الجملة قوله " لك تخضعي وسؤلي ، وإليك تضرّعي وابتهالي"[2] وقوله " وبيدك يا إلهي جميع ذلك السبب ، وإليك المفرّ والمهرب " [3] وهذا النوع غير مألوف عند كثير من النحويين وأول من ذهب إلى كونها مستقلة برأسها ابن السراج ، وأيده في ذلك أبو علي الفارسي واستحسن رأيه وهذا ما ذكره ابن هشام في كتابه المغني [4]

وقد كان الإمام عليه السلام يتوخى في نظم الجملة الدقة في التعبير عن المعاني المختلفة ووضع الألفاظ في مواضعها بأدق السبل لأنّه يدرك بسليقته العربية أن المخاطب في أكثر نصوص الصحيفة ينبغي أن يخاطب بما يناسب حاله ومقامه ولا شك في أن المخاطب في الصحيفة في أكثر نصوصها هو الله الذي يعلم كلّ شيء ولا تخفى عليه خافية لذا صاغ الإمام جمله صياغة تدق فيها المعاني وتتشعب حتّى تصب في صلب القصد .

## تنسيق العبارة في الصحيفة السجادية :

يستوقف الباحث في الصحيفة السجادية نظام بناء الجملة فيها ، وترتيب الألفاظ ، وتناسق العبارة مع غيرها ، وملاءمة الجملة لمعنى الكلام الذي يريد إيصاله ، فتبهره الصياغة العجيبة ، والتناسق بين الألفاظ وكأنه يسمع أنساقاً طبيعية متجانسة تأخذ بمجامع القلوب وتسحر السمع ، وكثيراً ما كنت أقف مذهولاً من دقة هذا البناء الجملي واللفظي أتأمل في أسراره ، أبحث عن خفايا رصفه وتطريزه متسائلاً كيف يوزع الإمام الألفاظ في

---

(1) ينظر : مغني اللبيب 376/2 ، والمغني في النحو 288،287/2.

(2) الصحيفة السجادية 301 .

(3) المصدر نفسه : 100 .

(4) مغني اللبيب :2 / 376.

الجمل بهذه الدقة وهذا التناسق ، وكيف يوازن بين أركان كلّ جملة كي تناظر أختها ، وكيف يعادل الألفاظ بعضها مع بعض ، هل كان يزن تلك الجمل بموازين خاصة أم أنها تأتي عفوية تتدفق كما تتدفق عيون المياه فلا يعثر الباحث على جواب مقنع سوى أن الإمام قد حباه الله - جلّ وعلا - ملكة تعبيرية تفوق قدرة الانسان الاعتيادي مهما كان رقيّه في التعبير شاعراً كان أم خطيباً أم كاتباً ، فلم تورد لنا كتب الأدب نصوصاً فيها ما في الصحيفة السجادية من دقة في أنظمة البناء الجملي ، وتناسق بين الألفاظ ، فالإمام كان يرسم بالألفاظ لوحات تعبيرية لا نظير لها إلا عند آبائه وأبنائه فهو يقول في دعائه مكارم الأخلاق " وأبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة ، ومن حسد أهل البغي المودة ، ومن ظِنّة أهل الصلاح الثقة ، ومن عداوة الأدنين الولاية ، ومن عقوق ذوي الأرحام المبرة ، ومن خذلان الأقربين النصرة ، ومن حبّ المدارين تصحيح المِقة ، ومن رد الملابسين كرم العشرة ، ومن مرارة خوف الظالمين حلاوة الأمنة "[(1)] ومن يدقق النظر يجد هندسة لفظية تتفجر من تناسقها المعاني كما تتفجر العيون في روضة زاهية ، فلو استثنينا الفعل الذي تتعلق به الحروف كلها وهو ( أبدلني ) لوجدنا افتتاحاً متناظراً لكل جملة بمصدر وهذه المصادر هي ( بغضة وحسد ، وظنة ، وعداوة ، وعقوق، وخذلان، وحب ، وردّ ، ومرارة ) وكل مصدر من هذه المصادر مضاف إلى اسم قد يكون لفظة ( أهل ) التي وردت ثلاث مرات ، أو اسم تفضيل مجموعاً جمعاً سالماً نحو ( الأدنين والأقربين ) أو اسم فاعل مجموعاً جمعاً سالماً ثم يورد في كل جملة مضافاً إليه لذلك الاسم نحو ( الشنآن والبغض والصلاح والأرحام ) ثم يورد بعد ذلك المضاف إليه مفعولاً به في كلّ جملة وهذه المفعولات هي ( المحبة والمودة والثقة والولاية والمبرّة والنصرة و تصحيح المقة وكرم العشرة وحلاوة الأمنة ) ويلاحظ أن كل مفعول من هذه المفعولات مؤنثاً

(1) الصحيفة السجادية : 92 ـ 93 .

بالتاء المربوطة، ستة منها غير مضافة وثلاثة مضافة والمضاف إليه هو المؤنث بالتاء ليحسن التجانس فضلاً عن التقارب في المعنى بين كل مفعولين منها .

وقد صاغ الإمام عباراته صياغة محكمة تتجانس فيها الحروف والأفعال والأسماء في توزيع هندسي عجيب ندركه بالتأمل في هذه الجمل " وهب لنا يقيناً صادقاً تكفينا به من مؤونة الطلب ، وألهمنا ثقة خالصة تعفينا بها من شدة النصب" (1) ألا ترى أننا بأزاء قصيدة موزعة بانتظام تبدأ الفقرة الأولى بفعل أمر (هب) وتبدأ الثانية بفعل أمر أيضاً (ألهمنا) وتصل الدقة في التوزيع في هذا النص حد مراعاة طول الفعلين أو قصرهما ، فالأول قصير (هب) لا يعادل الثاني ( ألهمنا ) لذا عادل الفعلين بأن ألحق بالأول حرفاً متعلقاً به فصار ( هب لنا ) لكي يوازي (ألهمنا) وجانس بين الفعلين في اللفظ والجرس ثم أورد بعد كلّ فعل منهما مفعولاً موصوفاً جعله في الأولى مذكراً وفي الثانية مؤنثاً ليبعث في النفس هزة من الاحساس بلذة التنوع الصوتي (يقيناً صادقاً) و(وثقة خالصة) مراعياً التجانس المعنوي بين كل من (اليقين) و(الثقة) و(الصدق) و(الاخلاص) .

أما جواب الطلب فكان متوازناً أيضاً في قوله (تكفينا به) و(تعفينا بها) وهذا التجانس واضح في صياغة الفعل (تكفي) و(تعفي) وما تبع كلاً منهما من ضمير (نا) وألحق بكل من الجملتين (حرف جر واسماً مجروراً به وكل منهما مضاف إلى اسم آخر متفق في الحرف الذي ينتهي به وهو الباء (من مؤونة الطلب) ومن (شدة النصب) ولا شك في أن القارئ يدرك أن الإمام قد حرص على اجراء موازنة بين الاسمين المؤنثين المجرورين في الفقرتين وهما (مؤونة) و (شدة) وصيغة كل من الاسمين المضاف إليهما ، إذ جاء بمصدر على وزن (فَعَلَ) هما (الطلب) و (النصب) .

---

(1) الصحيفة السجادية : 129 .

وحين تتسامى روح الإمام لتتوحد مع نور السماء ، وتتفاعل مع هيبة اللقاء الروحي وتذوب خشوعاً في حب الله تعالى وتتلاشى في رحاب ملكوته، تتدفق الألفاظ في أنساق متجانسة ، وخطوط متوازنة فيدهشك قوله " إلهي بذيل كرمك أعلقت يدي ، ولنيل عطاياك بسطت أملي ، فأخلصني بخالصة توحيدك ، واجعلني من صفوة عبيدك ، يا من كل هارب إليه يلتجئ ، وكل طالب إياه يرتجي ، يا خير مرجو ، ويا أكرم مدعو ، ويا من لا يرد سائله ، ولا يخيب آمله ، يا من بابه مفتوح لداعيه ، وحجابه مرفوع لراجيه "[1] ومردّ دهشتك إلى هذه الخطوط المتوازية والحقول المتساوية ، والأنساق المتلاقية في المقاطع الستة من مناجاة الإمام - عليه السلام - التي تجري من أولها إلى آخرها على هذا النمط من التوزيع المتكافئ إذ تجد المقطع الأول منها يبدأ باسم مجرور مضاف إلى اسم مضاف إلى ضمير المخاطب (بذيل كرمك) يقابله مثل هذا الاسم المجرور المضاف إلى مضاف إلى ضمير المخاطب أيضاً في قوله (لنيل عطاياك) فالباء تقابل اللام و(ذيل) يقابل (نيل) في الوزن وعدد الحروف ، والمضاف إليه (عطايا) يقابل (كرم) الذي يساويه في الدلالة ، وكل منهما مضاف إلى ضمير الخطاب ، وتجد الفعل الذي يتعلق به ذلك الحرف مشابهاً للفعل الذي تعلق به الحرف الآخر فهو فعل ماض في الاستعمالين (أعلقت) و(بسطت) وكل منهما مسند إلى تاء المتكلم ومكمل المعنى بمفعول به مضاف إلى ياء المتكلم (يدي) و(أملي)

مخطط المقطع الأول

الباء ↓ ذيل ↓ كرمك ↓ أعلقت ↓ يدي ↓ اللام ↓ نيل ↓ عطاياك ↓ بسطت ↓ أملي ↓

(1) الصحيفة السجادية : 283 .

كرم ك أعلق تُ يد ي عطايا ك بسط تُ أمل ي

وانظر إلى دقة المقطع الثاني في التوزيع وتوازي الألفاظ وكأنها قطع فسيفساء رتبها فنان ماهر أو حبات عقد ينضدها صائغ مبدع ، تبدأ كل جملة بحرف هو الفاء في الأولى والواو في الثانية يدخل على فعل أمر ونون الوقاية ثم ياء المتكلم (فأخلصني) و(واجعلني) فالفعلان متقاربان في البناء والصيغة (أخلص) و(اجعل) ثم يورد حرفاً في كلٍّ من الجملتين هما الباء ومن ليجرّ كلّ منهما اسماً مؤنثاً (خالصة) و(صفوة) ومن عجيب صنعه أنه وجد أن الاسم الأول يزيد على الثاني بحرف واحد فجاء بحرف الجر مكون من حرف واحد مع الاسم الأكثر حروفاً وبحرف جر مكون من حرفين مع الاسم الأقل حروفاً ليتعادل الاسمان بما في الحرف الثاني من زيادة ، وأضاف الاسمين إلى اسمين على وزن واحد هما (توحيد) و(عبيد) وينتهيان بحرف مشترك هو الدال وأضاف كلاً منهما إلى الضمير العائد على الحق جلّ وعلا فصار البناء متناسقاً كما موضح في المخطط الآتي :

## مخطط المقطع الثاني

الفاء أخلصني الباء خالصة توحيدك الواو اجعلني من صفوة عبيدك

أخلص نون الوقاية ياء المتكلم توحيد ك اجعل نون الوقاية ياء المتكلم عبيد ك

ويوازن الإمام بين الجملتين في المقطع الثالث لتكون الأولى مقاربة للثانية في بناء مكوناتها فهو يبدأ بـ(يا) النداء متلوة بـ(من) ليقابلها في الجملة الثانية حرف العطف اختصاراً ودفعاً للتكرار ثم تبدأ الألفاظ المتوازية (كل هارب) و(كل طالب) فكل مضافة إلى اسم فاعل على وزن (فاعل) (هارب) و(طالب) ثم يوازن بين الفعلين وما تقدم عليهما من معمول (إليه يلتجئ) و(إياه يرتجي) فالجار والمجرور(إليه) يقابل الضمير (إياه) وكل منهما متعلق بالفعل

المضارع (يلتجئ ، ويرتجي ) معوضاً عن اختلاف الهمزة والياء بتوحيد الحرفين الذين جاءا قبلهما وهما التاء والجيم مع ملاحظة أن الهمزة يمكن تسهيلها إلى الياء في لهجة قريش " ولقد أخذت العربية بالهمز وبه نزل القرآن وقد كان أهل الحجاز وهذيل لا يهمزون "[1] وبذلك يتم التقابل بين الجملتين كما هو موضح في التخطيط الآتي :

**مخطط المقطع الثالث**

يامن كل هارب إليه يلتجئ الواو كل طالب إياه يرتجي

إلى الهاء إيا الهاء

ولا يكتفي الإمام بالتنسيق بين الألفاظ والمقطع الواحد بل يقارب بين المقاطع منوعاً في ايقاعها (يا خير مرجوّ) و(يا أكرم مدعو) و (يا من لا يُرد سائله) و (لا يخيّب آمله) منتقلاً من مقطع طويل يقابله مقطع طويل ، ومقطع قصير يقابل مقطعاً قصيراً ومقطع متوسط يقابله مقطع متوسط فالمقطع القصير محكم التوزيع يبدأ بحرف النداء بعده اسم تفضيل ثم يأتي مضاف إليه (يا) ⟵ (خير) ⟵ (مرجو) ⟵ يقابله ⟵ (يا) (أكرم) ⟵ (مرجو) ⟵ ويلاحظ أن اللفظة الأخيرة مساوية للفظة الأخيرة من الجملة الثانية ، جاءت على صيغة اسم مفعول من فعل مضارع معتل بالواو (يرجو) و(يدعو) .

---

(1) لهجة تميم : 84 .

**مخطط المقطع الرابع**

يا خير مرجوّ يا أكرم مدعو

وهذه الدقة في التوازن تجدها في المقطع الآخر الذي يتلوه ، وتظهر دقته في اختيار أوزان مفرداته (يا من لا يرد سائله) و(يا من لا يخيّب آمله) فالمنادى اسم موصول غير مختص في كل جملة (مَن) صلة كل منهما جملة فعلية منفية بـ(لا) فعلها مضارع مبني للمجهول (لا يُردّ) و(لا يُخيّب) . وقد نسّق الإمام - عليه السلام - بين الفعلين في البناء للمجهول وكون أوله ياءً ، وأحد أحرفه مشدداً ، ويزيد الجملتين تناسقاً بجعل نائب الفاعل (اسم فاعل على وزن فاعل) وهو (سائل) في الأولى و(آمل) في الثانية وقد أُضيف كل منهما إلى الهاء ليضفي عليه جمالاً موسيقياً بحركة إيقاعية مؤنسة للروح لتناسق الحروف والحركات والإضافة إلى الضمير (الهاء) في كل منهما ويظهر هذا التناسق في المخطط الآتي :

**مخطط المقطع الخامس**

يا من لا يُرد سائله

سائل الهاء

يا من لا يُخيّب آمله

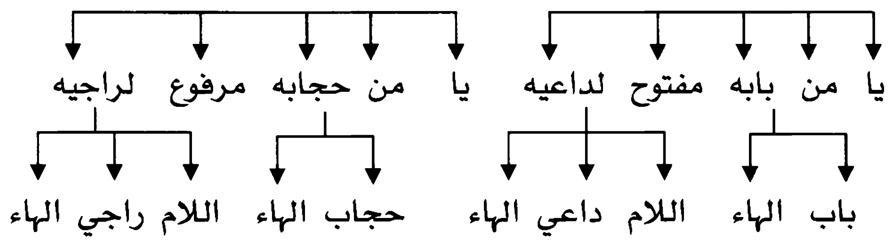
آمل الهاء

وتتوازى الكلمات في المقطع السادس توازياً يدل على حسن الصنعة وبديع النظم يأخذ مجامع القلوب ، ويملك المشاعر والأحاسيس يقول - عليه السلام - في الجملة الأولى(يا من بابه مفتوح لداعيه) ويقول في الجملة الثانية (وحجابه مرفوع لراجيه) فأنت تدرك تناسق الألفاظ في مكونات كل منهما (بابه) يقابل (حجابه) وكل منهما ينتهي بألف وباء ، وكل منهما مضاف إلى الهاء وتجد خبر المبتدأ في كل منهما اسم مفعول (مفتوح) و(مرفوع) تتعلق بكل منهما اللام

الجارة لاسم فاعل على وزن (فاعل) مضاف إلى الهاء ، واسم الفاعل في كل منهما مشتق من فعل معتل واوي (دعا يدعو) و(رجا يرجو) مما أسبغ على البناء شكلاً معمارياً لا يفوقه إلا بناء القرآن لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى الذي لا يرقى إليه كلام البشر مهما كان بليغاً لأن القرآن معجز .

وكلام الإمام  يرقى إلى ذروة البناء الهندسي إذا وازناه بكلام الخطباء والشعراء وهذا ما نلحظه في المخطط المرسوم للمقطع السادس .

**مخطط المقطع السادس**




ويقابل الإمام بين المكونات الفعلية والمكونات الاسمية في تنسيق دقيق فأنت تسمعه متهدجاً في تسبيحه لله . سبحانه وتعالى . قائلاً " سبحانك اللهم وحنانيت ، سبحانك اللهم وتعاليت " [1] فالفعل الماضي يفوح بمعنى الدعاء المخلص (حنانيت وتعاليت ) مطوعاً اللفظة (حنانيك) للصيغة الفعلية لتكون دعاءً وتسبيحاً ثم ينتقل إلى نمط آخر تحسّ فيه بقوة الايمان وثباته في كل خلية من خلايا جسده الطاهر في قوله

سبحانك اللهم والعزّ إزارك

سبحانك اللّهمّ والعظمة رداؤك

سبحانك اللّهم والكبرياء سلطانك [2]

---

(1) الصحيفة السجادية : 241 .

(2) المصدر نفسه : 241 .

وهذا البناء المعماري اللفظي الذي تتوازن فيه العبارات لتنتظم في كتل من الألفاظ تتساوى في بناء كل منها وارتباط بعضها بالبعض الآخر يثير الاعجاب فالإمام يوزع المقطع توزيعاً داخلياً مثيراً للاهتمام ولا أجد بي حاجة إلى بيان ما في هذا النص من دقة في مقابلة الألفاظ والمقاطع .

ولو تأملت في قوله: " كلّت الألسن عن غاية صفته ، وانحسرت العقول عن كنه معرفته، وتواضعت الجبابرة لهيبته ، وعنت الوجوه لخشيته ، وانقاد كل عظيم لعظمته. "[1] لوجدت كل لفظة تقابل أختها (كلّت وانحسرت) (الألسن والعقول) (عن غاية وعن كنه) (صفته ومعرفته) وفي المقطع الثاني (تواضعت وعنت) و(الجبابرة والوجوه) و(لهيبته وخشيته) ثم يختم المقطعين بعبارة مشابهة مع فارق بسيط (وانقاد كل عظيم لعظمته) .

ووازى الإمام بين الجمل في تقسيمات لفظية ومعنوية يعوض المعنى عما قد يختلف في اللفظ لكن البناء يبقى متوازياً في عدد من الجمل الشرطية وأجوبتها نحو قوله "إلهي إن كان قلّ زادي في المسير إليك، فلقد حسُن ظني بالتوكل عليك وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك وإن كان ذنبي قد عرضني لعقابك، فقد آذنني حسن ثقتي بثوابك، وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك، فقد نبهتني المعرفة بكرمك وآلائك، وإن أوحش ما بيني وبينك فرط العصيان والطغيان فقد آنسني بشرى الغفران والرضوان "[2] فقد ورد الشرط في ثلاث جمل شرطية بدأت كل منها بأداة الشرط والفعل (كان) يتبعها الفعل (قلّ) في الأولى واسم كان في الثانية والثالثة (جرمي وذنبي) تلا كلّا منهما جملة فعلية مسبوقة بـ(قد) ثم جار ومجرور ومضاف إلى كاف الخطاب (من عقوبتك) و(لعقابك) ويلاحظ أن الجواب في كلّ من الجمل الثلاث مرتبط بالفاء الداخلة على حرف توكيد هو (قد) أو (لقد) أو (إنّ)، وانتهى كل شرط بلفظ مضاف

---

(1) المصدر نفسه : 260 .

(2) الصحيفة السجادية : 284 .

إلى كـاف الخطـاب في (إليـك ، وعقوبتـك ، وعقابـك ، ولقائـك ) ووردت في الجواب ألفاظ مضافة إلى كاف الخطاب كذلك في (عليك ونقمتك وثوابك وآلائك) أما الجملتان الشرطيتان الأخريان فالشرط في كل جملة شرط مواز لنظيره ، ووازن الإمام بين جملة الشرط وجملة الجواب حيث ورد في الشرط (فرط العصيان والطغيان قابلها بـ( بشرى الغفران والرضوان) ولم تقتصر هذه المقابلة على الألفاظ وأبنيتها بل امتدت إلى المعاني فجعل العصيان مقابلاً ضده (الغفران) وجعل (الطغيان) مقابلاً ضده (الرضوان) وهذه المقابلة واضحة في جمل أخرى فقد جعل قلة الزاد في المسير مقابلاً للتوكل على الله فهو السند وهو المغيث وهو المعين وجعل الخوف مقابلاً للأمن وهو ضده، والذنب مقابلاً للثواب وهو ما يترتب عليه وقابل بين الفعلين (أنام) و(نبه) والفعلين (أوحش وآنس) لتتوازن الجمل بالمعادلات المعنوية التي تسبغ على النص جمالاً ورونقاً يجعل النفس تذوب في مناجاة ربّها ومن جميل التنسيق في العبارات قوله في المناجاة نفسها :

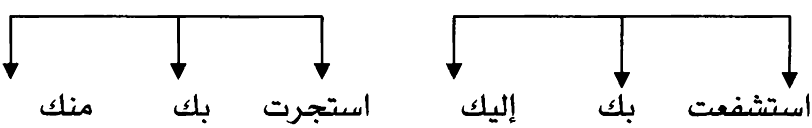
"إلهي استشفعت بك إليك ـ واستجرت بك منك

أتيتك طامعاً في احسانك ـ راغباً في امتنانك

مستسقياً وابل طولك ـ مستمطراً غمام فضلك

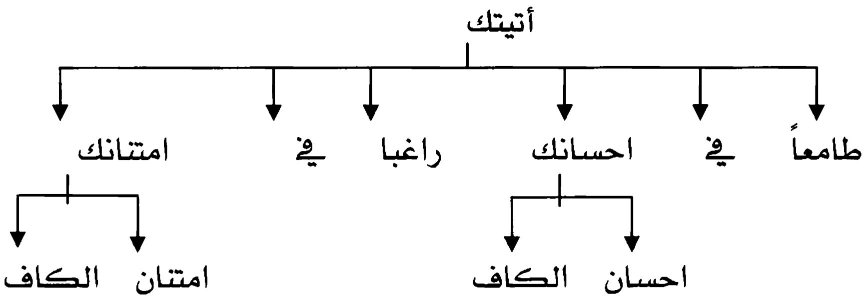
طالباً مرضاتك ـ قاصداً جنابك

فانظر إلى هذا الطراز الفريد من النظم والمجانسة والتقسيم تجد روضة متناسقة زاهرة فيها الفعل (استشفعت) قد لحقه حرفا جر مختلفان لكونهما متعلقين بالفعل نفسه لأن الإمام ـ عليه السلام ـ يستشفع بالله ـ سبحانه وتعالى ـ ليشفع إليه من عقوبته فجاء الحرفان(بك وإليك) متعلقين بالفعل (استشفع) ويقابل هذا الفعل السداسي المزيد المسبوق بالسين فعل مساو له هو الفعل (استجار) وقد تعلق به حرفا جر كذلك هما (بك ومنك) .



(استشفع +التاء) (الباء+الكاف) (إلى+ الكاف) (استجار+التاء)
(الباء +الكاف) (من + الكاف)

وانظر في المعادلة الدقيقة في المقطع الثاني تجد فعلاً ناصباً حالاً على صيغة (فاعل) هو (طامعاً) يقابله في الجملة الأخرى حال منصوب بالفعل نفسه على صيغة (فاعل) هو (راغباً) وبعد كل حال حرف جر متعلق به هو (في) وفي الجملتين مصدر ينتهي بحرف النون (احسان وامتنان) وكل منهما مضاف إلى كاف الخطاب الموجه إلى الذات الآلهية المقدسة حتى كأنك تسمع إيقاعاً متساوي النغمات يحدو بك في المسيركما يحدو الحادي بالإبل.




ويتكرر الحال في المقطع الآخر متعلقاً بالفعل نفسه في نغمات أخرى مطولاً بصيغة تلك الحال ليزداد تعلقه بخطاب الإله ويمتد نفسه في مناجاته فكان اسم الفاعل (الحال) مزيداً في أحرف كثيرة في قوله (مستسقياً) يقابله (مستمطراً) وأنت تدرك التدرج في التنغيم في هذا البناء منتقلاً من درجة إلى أخرى وكأنك تسمع تتابع قطرات المطر وهي تسقط في قوله (مستسقياً ،مستمطراً ) ويتتابع هذا الترنم الجميل في مفعول اسم الفاعل والاسم المضاف إليه (وابل طولك) يقابله (غمام فضلك) مراعياً أن يكون المضاف إليه منتهياً بحرف واحد في الكلمتين هو اللام في (طّوْل وفضل) ومراعياً أن يكونا على صيغة واحدة هي (فَعْل) في الجملتين .

ويستمر أثر الفعل (أتيتك) في أحوال أخرى في جملتين قصيرتين جاء الحال فيهما على صيغة (فاعل) من الفعل الثلاثي (طالباً) و(قاصداً) وينصب كل منهما مفعولاً به مضاف إلى كاف الخطاب الدالة على الحق جلّ وعلا

(مرضاتك ـ جنابك) وكانت الكاف سبيل الموازنة بين (مرضاة وجناب) لتتسق العبارات وتتناسب أواخر الألفاظ .

وترى الإمام في مناجاة أخرى يصوغ عباراته في قلادة متساوية الفصوص متناظرة الجواهر متشابهة المواقع فهو يناجي ربّه قائلاً " ولقاؤك قرّة عيني ـ ووصلك منى نفسي ـ وإليك شوقي ـ وفي محبتك ولهي ـ وإلى هواك صبابتي ـ ورضاك بغيتي ـ ورؤيتك حاجتي ـ وجوارك طلبي ـ وقربك غاية سؤلي ـ وفي مناجاتك روحي وراحتي ـ وعندك دواء علتي ، وشفاء غلتي ـ وبرد لوعتي وكشف كربتي ـ فكن أنيسي في وحشتي ـ ومقيل عثرتي ـ وغافر زلتي ـ ومغني فاقتي ـ ولا تقطعني عنك ولا تبعني منك يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي " (1)

أرأيت هذه الدرر المتناسقة تربطها آصرة واحدة هي اضافة الاسم إلى ياء المتكلم ، وهل رأيت هذه الحبات المتناسقة المتناهية في دقة الصياغة (دواء علتي ـ شفاء غلتي ـ برد لوعتي ـ كشف كربتي )

وهل لاحظت التناسق بين دواء ← شفاء ، علتي ← غلتي

برد ← كشف ، لوعتي ← كربتي

ولو تصورتها في هذا المخطط

| عندك | | عندك | |
|---|---|---|---|
| دواء | شفاء | برد | كشف |
| علتي | غلتي | لوعتي | كربتي |

وتتسلسل حبات القلادة فترى فيها

غافر زلتي.......... قابل توبتي

مجيب دعوتي........ وليّ عصمتي

(1) الصحيفة السجادية

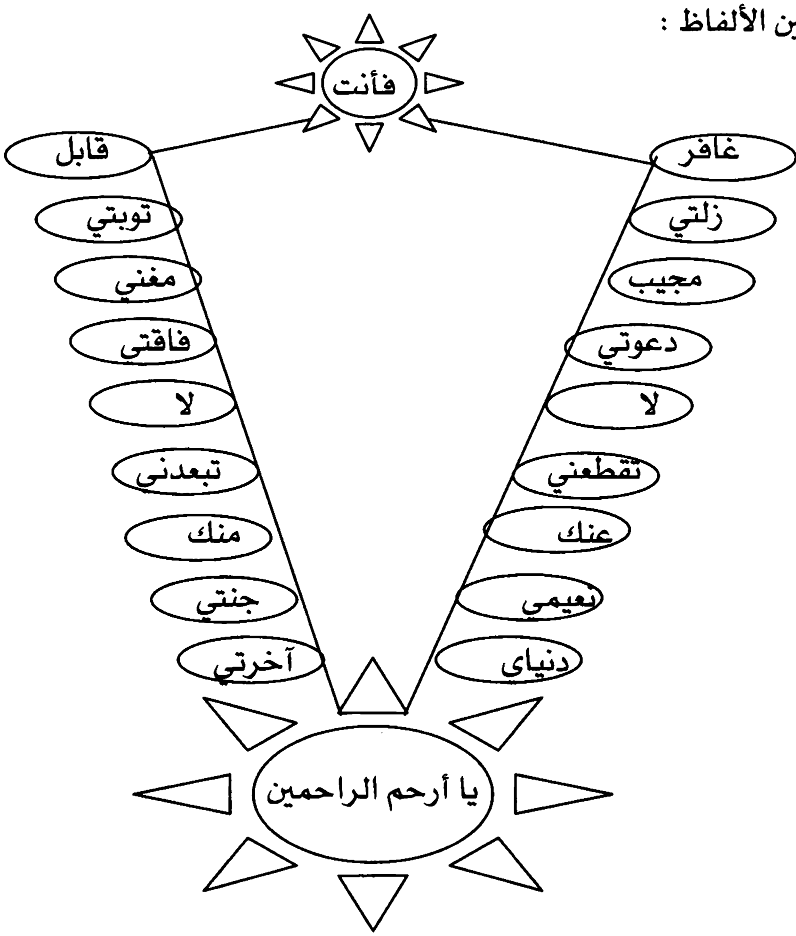
مغني فاقتي

لا تقطعني عنك ....... ولا تبعدني منك

يانعيمي وجنتي ....... يا دنياي وآخرتي

فأنت ترى التوازن بين الألفاظ (غافر قابل) و(زلتي - توبتي) و(مجيب - وليّ) و(دعوتي - عصمتي - فاقتي)

وترى التوازن بين (لا تقطعني - تبعدني) و(عنك - منك) و(نعيمي - دنياي) و(جنتي - آخرتي) فهي قلادة كما تراها في المخطط الذي يوضح هذه الموازنات بين الألفاظ :



وفي مناجاة المريدين يتخذ التنسيق نظاماً آخر ونسقاً مختلفاً في بناء المقاطع تأمل في قوله - عليه السلام -

1- هم بالبداد إليك يسارعون
وبابك على الدوام يطرقون
وإياك في الليل والنهار يعبدون
وهم من هيبتك مشفقون

2- الذين صفّيت لهم المشارب
وبلّغتهم الرغائب
وأنجحت لهم المطالب
وقضيت لهم من فضلك المآرب

3- وملأت لهم ضمائرهم من حبك
ورويتهم من صافي شربك

4- فبك إلى لذيذ مناجاتك وصلوا
ومنك أقصى مقاصدهم حصلوا [1]

فالمناجاة مقسمة على مقاطع والمقاطع مقسمة على جمل متساوية وضع في المقطع الأول أربع جمل لتقابل أربع جمل في المقطع الثاني وجعل المقطع الثالث من جملتين تقابل جملتين من المقطع الرابع ، وهذا التقسيم يسري في كثير من مقاطع الصحيفة .

ويأخذ سحر المناجاة لبّ الإمام - عليه السلام - فيمتد نفسه متواصلاً مع تقسيمات متشابهة ومتقاربة كما نلحظ ذلك في مناجاة المفتقرين قال الإمام - عليه السلام- :

فيا منتهى أمل الآملين

(1) الصحيفة السجادية : 293،292.

ويا غاية سؤل السائلين

ويا أقصى طلبة الطالبين

ويا أعلى رغبة الراغبين

ويا وليّ الصالحين

ويا أمان الخائفين

ويا مجيب دعوة المضطرين

ويا ذخر المعدمين

ويا كنز البائسين

ويا غياث المستغثين

ويا قاضي حوائج الفقراء والمساكين

ويا أكرم الأكرمين

ويا أرحم الراحمين

لك تخضّعي وسؤالي

وإليك تضرعي وابتهالي [1]

فالتناسق واضح في جمل المقطع الأول إذ يتوجّه النداء إلى اسم مضاف إلى المصدر مضاف إلى اسم فاعل مجموع جمعاً مذكراً سالماً ، فالألفاظ متساوية في الجمل الأربع ويبهرك التنوع الداخلي في كلّ جملة فهو - عليه السلام - يساوي بين المصدرين الأولين (أمل - وسؤل) ويساوي بين المصدرين الآخرين (طلبة ورغبة) ويساوي بين المنادى في الجملتين الأخيرتين يجعله اسم تفضيل في كلّ منهما (أقصى وأعلى) ويقارب بين المناديين في الجملتين الأوليين (منتهى وغاية) من حيث المعنى فالمنتهى هو الغاية .

---

(1) الصحيفة السجادية : 301 .

وفي المقطع الثاني يساوي بين ألفاظ الجمل بتوجيه النداء إلى اسم مضاف إلى جمع مذكر سالم ، ويزيد على الجملة التي تليها كلمة بأن يضيف المنادى إلى مصدر كما فعل في المقطع الأول .

وفي المقطع الثالث تجد مجانسة بينه وبين المقطع الثاني بتوجيه النداء إلى اسم مضاف إلى جمع مذكر سالم ، ويعود في جملة أخرى إلى ما جرى عليه في المقطع الأول والثالث ويجانس بين المقطع السادس والمقطع الثاني والمقطع الرابع ثم يختم هذه المقاطع بمقطع يسوق فيه ما أراد إيصاله إلى المنادى قائلاً :

لك تخضعي وسؤالي ـ وإليك تضرعي وابتهالي

وفي هذا المقطع من التجانس ما ترى من ورود حرف الجر ومجرور الكاف والمصدر المضاف إلى ياء المتكلم معطوف عليه مصدر آخر مضاف إلى ياء المتكلم (سؤالي وابتهالي) وهذا التناسق لا يتأتى إلى شاعر أو خطيب أو كاتب مهما أوتي من قدرة على حسن التعبير ، وملكة تمكنه من إبداع في الصياغة والنظم .

وقد يسأل سائل هل كان الإمام يقصد هذا التقسيم ويسعى إليه متصنّعاً أو محسّناً أو متكلفاً لبناء نصوص متوازنة ومتساوية في الفقرات والجمل؟

وأرى أن الإمام لا يتحرى عن هذه التقسيمات ولا يتكلفها بجهد وتعب ونصب بل تنثال الألفاظ والجمل عليه انثيالاً ، وتتدفق كالسيل الذي يتوزع في قنوات تعبير جبل عليها ، فهو يمتلك الموهبة والقدرة والحس اللغوي الذي يمكنه من تفريع المعاني وتشعيبها وصياغتها في مسارب لفظية تؤاتيه طواعية فلا يبحث عنها أو يستسقيها ، لأن الألفاظ مخزونة في ذاكرته ، مستوعبة في حافظته .

وكان الإمام في أدعيته ومناجياته مسلماً قلبه لله ـ جلّ وعلا ـ والهاً بحبه منقطعاً إليه متصلاً بأجواء روحانية السماء وجلال العرش فلا مجال للتصنع أو التكلف أو التفكير بغير ما يوصل إلى الله ، وهذه الروحانية التي

تسود هذه المناجيات تنفي كلّ صناعة لفظية أو تحليل أو تزويق لفظي أو إعمال للفكر في الألفاظ وجملها فلا يهمه غير إيصال المعاني بدقة وصدق وروحانية وبهذا تتجلى عبقرية الإمام السجاد وموهبته البيانية واستعداده الفطري للابداع لأن مثل هذه الصناعة الدقيقة والمهارة الفائقة لا تصدر إلا عن عبقري موهوب حباه الله ـ جلّ وعلا ـ كما حبا آباءه وأبناءه القدرة على الإبداع في القول وامتطاء صهوة البيان والتفنن في سبل التعبير.

## جمال التعبير في الصحيفة السجادية:

تتلون ألوان الجمال في الحياة ، فالطبيعة زاخرة بمشاهد جميلة تبهر الناظر ، والسلوك البشري مشحون بالملامح السامية الجميلة التي تهز الوجدان والمشاعر ولا سيما الخلال الإسلامية الحميدة ، والله ـ سبحانه وتعالى ـ يشع جمالاً في الكون برحمته وعدله وبديع خلقه ، وحسن مخلوقاته ، وكمال الكون الذي أبدعه.

وكل نص أدبي بليغ يلامس مشاعر المتلقي ويبث في نفسه الارتياح والاطمئنان جميل يطفح بدفقات من ألوان الجمال تنبعث من الكلمة المجانسة لأختها ومن الجملة التي حسن بناؤها ، ومن مشاكلة الجملة لغيرها ، ومواءمة الصيغة للمعنى ودقة النظم وبناء الألفاظ بعضها مع بعض ، فتوحي تلك التقابلات الدلالية ، والمواءمات الصورية بمشاعر الارتياح والانشراح لأن جمالية التعبير تحرك كلّ المشاعر الوجدانية وتطلق في النفس الحبور والفرح ، لأن كلّ صورة جميلة ، وكلّ تعبير جميل ، وكلّ لفظة جميلة تحرك الكوامن النفسية وتداعي الذكريات ، وتناغم الأحاسيس وتجعلها تنقل النفس البشرية إلى عالم روحاني يعج بكل فنون الجمال والنضارة .

ومن هذا العالم الجميل تطالعك عبارات الصحيفة السجاديّة وكأنّها روضة من رياض الله الجميلة تبهرك بألوانها المتناسقة والمتداخلة . فالإمام السجاد يشد القارئ إلى عالمه الروحاني المتكامل يقول " اللهم كما

كرّهت إلي أنْ أظلم فقني من أنْ أُظلم " [1] أما ترى التناسق بين لفظتي (أَظلم وأُظلم) حيث بنى الأولى للمعلوم والأخرى للمجهول ، وهذا التناسق في الشكل يبعث في النفس احساساً بجمال المعنى لأنّ المرء الذي يدرك أن من حق أخيه الانسان عليه أن لا يظلمه ولا يهينه ولا يعذبه ولا يزري به ويعفّر وجهه بالتراب، يتمنى ألا يعامل هو بذلك لأنه كما لا يليق بغيره لا يليق به لذا يبتعد عن ظلم غيره متخيلاً أن هذا الظلم لو وقع به لما ارتضاه .

وتأمل في المقابلة بين (كرّهت إليّ) و(قني) تجد التلازم بينهما واضحاً لأن الانسان يحب لأخيه الانسان كما يحب لنفسه

ويزاوج الإمام بين الألفاظ فيأخذ من اللفظة الواحدة أكثر من صورة تنبعث من حسن إضافتها ، أو نوع حرف الجر الذي يرتبط بها كقوله - عليه السلام - " اللهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلّصها ، وأبق لنفسي من نفسي ما يصلحها فإنّ نفسي هالكة أو تعصمها " [2] فلفظة (نفس) أعطاها الإمام أكثر من لون وأكثر من معنى وجعلها تثير أكثر من إحساس وذلك بتغيير دقيق في حروف الجر والإضافة (خذ لنفسك) بإضافة النفس إلى الضمير العائد على الذات الإلهية المقدسة في خطاب تحس فيه بالخشوع والتذلل وتعظيم الله - سبحانه وتعالى - (ومن نفسي) بإضافة (نفس) إلى الضمير العائد على العبد المستغفر المطيع لحكم الله ، وتلاحظ هنا دقة في اختيار الحرفين (اللام ومن) فاللام الدالة على الملكية اقترنت بالفعل (خذ) والفعل (ابق) وما يأخذ الله - سبحانه وتعالى - غير ما يأخذه البشر فلا يأخذ الله من نفس الانسان إلا ما يجعلها تسمو وتعلو لأن الإمام يدعوه أن يأخذ من نفسه ما يرديها أو يجعلها أدنى إلى الضعف والتهالك لنيل الملذات كالمال إذا زاد عن الحاجة والشهوة الخارجة عن حدود الانسانية وحدود التشريع ، والطمع في نيل ما لا حقّ له فيه وغير ذلك مما يود التقي أن يزكي الله نفسه منها ، في حين دعاه أن يبقى له

(1) الصحيفة السجادية : 75 .

(2) المصدر نفسه : 96 .

من نفسه ما يصلحها من عمق في الإيمان ، وزكاة للنفس ، وتقوى الله ، وزهد في الحياة ، وعبادة الله ، ويؤيد ذلك قوله " فأعطني من نفسي ما يرضيك عني وخذ لنفسك رضاها من نفسي في عافية " [1] ويكمن جمال التعبير في تعليل ما أخذ وما أبقى في قوله " فإن نفسي هالكة أو تعصمها " فلا يريد الإمام بالهلاك الموت بل أراد بالهلاك السقوط في مهاوي العصيان والخروج عن إرادة الله ويقابل هذا الهلاك سمو وارتفاع في علا التقوى والإيمان بعصمة من الله عمّا يردي النفس في الهوان ، وهذا التنوع في الاستعمال والتغيّر في دلالة الألفاظ يمنح القارئ والسامع متعة فكرية ونفسية ومن هذا التنوع استعمال (لنفسك من نفسي أو لنفسي من نفسي ، فإنّ نفسي) حيث تجد تقابلاً بين دلالة (هلاك النفس) بسبب الذنوب (وعصمة النفس) من الذنوب فكل استعمال يوحي بمعنى على الرغم من أنّ اللفظة واحدة لكن هذا التّنوع في الحروف والإضافات أعطى التعبير جمالاً مؤثراً في النفس ، ومثل هذا التنوع في اللفظة ثمة تنوّع في الصيغة يكسب التعبير جمالاً فقوله " لا يجير يا إلهي إلا ربّ على مربوب ولا يؤمن إلا غالب على مغلوب ولا يعين إلا طالب على مطلوب" [2] فقد صاغ من كلّ لفظة ما يقابلها من صيغة أخرى (ربّ و مربوب) و(غالب ومغلوب) (وطالب ومطلوب) فالقارئ يشعر بقدرة الرب على من يعبده، وقدرة الغالب على من يغلبه وقدرة الطالب على من طلبه بإسناد كل واحد من هذه الألفاظ إلى ما يجانسه (يجير المربوب) (يؤمن المغلوب) (يعين المطلوب) في استعمال يشع بالجمال ويوحي بدقة القصد هو أسلوب القصر (النفي وإلا) وهو استعمال أوحى بضياع كلّ فرصة للنجاة إلا (بإجارة الرب) أو (تأمين الغالب) أو (إعانة الطالب) ولو وازنا بين هذه الألفاظ لوجدناها متقاربة المعنى فإجارة الضعيف وإعطاء الأمانة للمغلوب ومنح العون للمطلوب تضع البشر في موقع الضعيف المطلوب والمغلوب، والله ـ جلت قدرته ـ في موقع الرب الغالب والطالب

---

(1) الصحيفة السجادية : 104 .

(2) المصدر نفسه : 104

الذي لا مهرب من حكومته ، فأي جمال يكمن في هذه المجانسات والمقابلات اللفظية والمعنوية، ويزيدها جمالاً الحكم الصائب في قوله " فبيدك يا إلهي جميع ذلك السبب، وإليك المفر والمهرب " ويهزّك عنفوان التعبير وقدرته على الإيحاء حين تجد الألفاظ تنحو إلى غير ما هو مألوف في أصل وضعها فأنت لم تسمع داعياً يدعو الله أن يمنحه رزقاً غير مألوف كالخوف من غم الوعيد أو النور أو الشوق أو الحق أو سلامة الصدر من الحسد أو التّحفظ من الخطايا أو الاحتراس من الزلل فهذه الأرزاق ليست مما يطلبه الناس بل يطلبون سد الحاجات في الدّنيا وحمايتهم من الضرر والأذى وطلب الزيادة في الأموال والأولاد، ورفعة في الجاه والمناصب، لذا تجد لذة لا تفوقها لذة وأنت تسمع الإمام يستعمل فعل الرزق متعدياً إلى الأمور المعنوية التي لا تخطر على بال أحد وهو يواجه ربّه داعياً " هب لي نوراً أمشي به في الناس وأهتدي به في الظلمات، وأستضيء به من الشك والشبهات" [1] وقوله " وارزقني خوف غمّ الوعيد، وشوق ثواب الموعود حتى أجد لذة ما أدعوك له وكآبة ما أستجير بك منه . "[2]

وما عدّه الإمام لذة هو زيادة في العبادة والخشوع والتضرّع والابتعاد عن الشهوات المحرّمة ، وما يراه كآبة هو المال الكثير والطمع و الإفراط في الملذات وغير ذلك مما يطلبه الناس ويستزيدون منه وقال " وارزقني الحق عند تقصيري في الشكر لك بما أنعمت علي في اليسر والعسر والصحة والسقم حتى أتعرّف من نفسي روحَ الرضا وطمأنينة النفس مني"[3]

وتتبعث صور الجمال من اختلاف أساليب التشبيه والمجاز والكناية والاستعارة بتسخير العلاقات المعنوية بين الألفاظ وتنويع طرائق الإسناد فالإمام حين يعبّر عمن تكاثرت ذنوبه ، وازدادت معاصيه وتعددت خطاياه ، لا يطرق هذه المعاني مباشرة بأسلوب الحقيقة بل يذهب إلى المجاز قائلاً " هذا مقام من

---

(1) الصحيفة السجادية : 106 .

(2) المصدر نفسه : 106 .

(3) الصحيفة السجادية : 106 .

تداولته أيدي الذنوب ، وقادته أزمة الخطايا واستحوذ عليه الشيطان " [1]
فالذنوب لا أيدي لها لكنها حين تتزين للانسان وتظهر بأجمل صورة تغدو كالمرأة الغانية بجمالها تمد يدها لمن هوته وأحبته فشبه الذنوب بالانسان وأخذ منه شيئاً يتعلق به هو اليدان اللتان نسبهما إلى الذنوب وكذلك الخطايا التي يرتكبها الانسان لتوصله إلى طريق الخراب شبهها بالراحلة وأخذ منها شيئاً مما يلازمها هو الزمام فنسب الأزمة إلى الخطايا فالإمام تحدث بأسلوب جميل جعل فيه مقامه وهو يقف خاشعاً بين يدي ربه شبيهاً بمقام الانسان الذي استحوذ عليه الشيطان وتداولته الذنوب وقادته الخطايا إلى المعاصي وحاشا الإمام أن يرتكب خطأ أو يدنو من معصية لكنها مواعظ للبشر يعلمهم كيف يقف العبد بين يدي ربه يستغفره من كل ذنب ومن كل خطيئة فعمد إلى الإستعارة المكنية ليسبغ على تعابيره جمالاً يلتصق بالنفس ويأخذ بالأنفاس ليتعظ من راقه هذا التعبير ، وتتألق صوره الجميلة في لوحة يرسمها لأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ويوكلون به من يرصده ويترقبه متى يخرج وإلى أين يذهب ، ومع من يسير قائلاً " وكم من باغٍ بغاني بمكائده ونصب لي شرك مصائده ووكلّ بي تفقد رعايته وأظبأ إلي اظباء السبع لطريدته انتظاراً لانتهاز الفرصة لفريسته ، وهو يظهر لي بشاشة ملق وينظرني على شدة الحنق فلما رأيت يا إلهي تباركت وتعاليت دغل سريرته ، وقبح ما انطوى عليه ، أركسته لأم رأسه في زبيته ، ورددته في مهوى حفرته"[2] فالمجانسة واضحة بين الاسم والفعل (باغ ،بغاني) وهما من البغي أي التعدي ، وبغى هنا بمعنى استطال وبابه (رمى) وكل مجاوزة وافراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي [3]
أما لفظة بغاني فهي من البغية أي الحاجة ، وبغى ضالته يبغيها بُغاءً بالضم

(1) المصدر نفسه : 132 .
(2) المصدر نفسه : 224 ـ 225 .
(3) المختار من الصحاح : 43 .

والمد ، وبُغاية بالضم أيضاً أي طلبها وكلّ طَلَبَة بُغاء "[1] فالإمام يصف هذا الجنس من البغاة العتاة الذين لايرعون ذمة ولا يخافون الله لأن قلوبهم ران عليها ما يجعلها قاسية كالحجر وهم يوجهون سهام حقدهم وكراهيتهم إلى الإمام - عليه السلام - محاولين إيذاءه والبطش به قال (فكم من باغ بغاني) وصوّر تصرّف هذا الباغي مشبها إياه بالصياد الذي يترصد الطيور أو الحيوانات ليوقعها في شباكه فقال (ونصب لي شرك مصائده) ليوقع الإمام فيها كما تقع الطيور في شباك الصياد ليذبحها ويأكلها ، ويرسم بريشة بيانية مؤثرة في النفس صورة هذا الباغي الذي يبث أعوانه وأزلامه رصداً في طريق الإمام وعيوناً شريرة تحسب على الإمام خطواته ، وتحصي حركاته وسكناته وهو يغدو إلى المسجد ليعلم الناس أو يعبد الله ، أو يسعى لاكتساب قوت عائلته بعرقه وتعبه أو يتفقد الفقراء والمعوزين ويشتري بين حين وآخر عبيداً ليعلمهم الدين وفقهه وتفسير كتاب الله وأحاديث رسوله ثم يعتقهم لوجه الله .. فلا يروق ذلك لهذا الباغي الغارق حتى أذنيه في ملاهيه وفسوقه ومجونه يصحو من خمرة ليسكر بغيرها ويبعد جارية محرمة عليه ، ليدني أخرى، وينفق مالاً ليغتصب بالقوة غيره لا يهمه في الحياة غير استمرار ملك الطغاة والجبابرة لذا يشتد حنقه على الإمام محاولاً إيذاءه فينشر عيونه ممن يشتريهم بماله ليترصد الإمام فيصف الإمام ذلك (ووكل بي تفقد رعايته وأظبأ إلي اظباء السبع لطريدته انتظاراً لانتهاز الفرصة لفريسته وهو يظهر لي بشاشة ملق وينظرني على شدة الحنق) فالقارئ يحس بدقة تشبيه هذا المترصد حركات الإمام وسكناته وهو يدنو إليه بعيون الحنق ينتظر اللحظة التي يغفل فيها لينقض عليه ، كما يترصد السبع طريدته انتظاراً لانتهاز الفرصة ، ويتذوق جمال التعبير وهو يصور كون هذا الحاقد على الإمام يظهر له بشاشة ملق ، يبتسم ابتسامة كاذبة تخفي تحتها حقداً وكراهية وهو ينظره أي يمهله على شدة الحنق أي الغيظ مما يراه عليه من حبّ الناس له والتففافهم

(1) المصدر نفسه : 43 .

حوله ، وفي هذه الصور تظهر براعة الإمام في اظهار المعاني في صور مجسمة تجعل الفهم يدركها بيسر ، ويكمل الإمام صورة الباغي الذي يترصد الإمام ليوقعه في شباك مصائده حين يخاطب الإمام ربه الذي لاسند له غيره ولا نصير سواه قائلاً ( ولما رأيت تباركت وتعاليت دغل سريرته وقبح ما انطوى عليه أركسته لأم رأسه في زبيته ورددته في مهوى حفرته فانقمع بعد استطالته ذليلاً في ربق حبالته التي كان يقدّر أن يراني فيها ) فلو تأملنا في عبارة (أركسته لأم رأسه في زبيته ورددته في مهوى حفرته ) وربطناها في عبارته السابقة (الذي بغاني بمكائده ونصب لي شرك مصائده) لوجدنا صورة جميلة لمن يحفر حفرة لأخيه المسلم ينصب فيها شراكه ثم ينقلب عليه سحره ليوقعه الله فيها شرّ وقعة فيركسه الله لأم رأسه في حفرته والزبية هي الحفرة التي تحفر للأسد في المكان المرتفع ليقع فيها منقلباً على رأسه لأن الركس رد الشيء مقلوباً كقوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [النساء 88 ] أي ردهم إلى كفرهم ، ولو تصورنا ذلك الباغي وهو يهوي على أم رأسه لتتهشم جمجمته وينكسر ظهره ، وينقلب على عقبيه مخذولاً مدحورا يذوق مرارة المصير الذي كان ينوي دفع الإمام إليه كما عبّر الإمام ـ عليه السلام ـ عنه (وأضمر أن يسومني المكروه ويجرعني زعاف مرارته ) لكن إرادة الله أقوى من إرادته (فانقمع بعد استطالته ذليلاً في ريق حبالته التي كان يقدر أن يراني فيها) فهل أدركت الصور الجميلة التي أبدعها يراع الإمام بكل ما فيها من تشبيهات واستعارات تقرّب المشهد إليك وكأنّك تراه عن كثب ولك أن تتأمل في مزيد من تشبيهاته الجميلة وهو يتحدث عن علاقته الحميمة بوالديه حيث يقول " اللهم اجعلني أهابهما هيبة السلطان العسوف وأبرّهما برّ الأم الرؤوف "[1] فالسلطان الجائر المتغطرس الذي لا يخشى الله ، ويرى نفسه خلقاً يفوق البشر متخيلاً أن الناس همج رعاع ينتظرون رحمته وعطفه وأنهم عبيد له يخدمونه ويطيعونه يهاب الناس مواجهته أو المثول بين يديه خشية غضبه من زلة لسان أو سوء تقدير

---

(1) الصحيفة السجادية : 112 .

لموقف أو تصرف فيرتعد الانسان في حضرة ذلك الطاغية العسوف ولا يجد مناصاً من أن يقف أمامه بذل وخشوع مرتجفاً خائفاً ، لذا دعا الإمام من فرط اجلاله لأبويه واحترامه لهما ربه أن يجعله يهابهما هيبة السلطان العسوف أي كهيبة السلطان العسوف ، وهذا غاية الأدب الرباني الذي تعلمه الإمام من أبيه الذي علمه إياه جدّه أمير المؤمنين علي الذي تأدب بأدب رسول الله محمد ﷺ لأنه تربى في حجره وهو القائل ( أدبني ربي فأحسن تأديبي) وقال عنه تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم 4]

ثم يرسم الإمام الصورة الأخرى المقابلة التي تكشف عن عظمة البيان الإسلامي في النفوس المؤمنة حين دعا ربه أن يكون بره والديه كبرّ الأم الرؤوف ولدها ، ومن منّا من لم يشهد حنان الأم وعاطفتها الجياشة لولدها حين ترعاه وتحتضنه وتحنو عليه فتراها مصفرة الوجه خائفة إذا مرض أو ألمت به مصيبة تود لو تفديه بنفسها وهي عاطفة تراها عن الإنسان والحيوان إذ لا عاطفة أرق من عاطفة الأم وهي تحنو على ولدها ، وحين نعرف ذلك يظهر جمال تشبيه الإمام رغبته في برّ والديه ببر الأم ولدها والصور البيانية كثيرة في الصحيفة السجادية يقول في أحدى مناجياته " إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم فهم إلى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ، وفي حياض المحبة بكأس الملاحظة يكرعون وشرايع المصافاة يردون " (1)

هل تخيلت حديقة غنّاء ملأى بالأشجار الباسقة المثمرة غير أنها من نوع آخر فأشجارها تضرب بجذورها في أعماق الصدور محمّلة بثمار الشوق والحب والرغبة في القرب إلى البارئ العظيم ربّ العالمين ، إن لم تتصورها فقد صورها الإمام في أجمل صورة فجعل القلوب والصدور حدائق والشوق أشجار وتلك استعارة جميلة شخّص فيها لوعة محبة المؤمنين ناقلاً إياها من معنى يخالج

(1) المصدر نفسه : 303 ـ 304 .

النفس البشرية حين يتأجج حبّها وشوقها ليوهج فيها لوعة حب وهي حرقته من ضرام الشوق ، إلى معنى الإنسان الذي يأخذ بمجامع القلوب ويمتلك الفؤاد حبّاً ولهفة لأن المؤمن لا يحب شيئاً قدر محبته لله ـ سبحانه وتعالى ـ الذي يراه أهلاً للحب فيعبده .

ويمضي الإمام في رسم الصور الجميلة للمؤمنين المحبين المولهين بحب الله تبارك وتعالى قائلاً (فهم إلى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ، ومن حياض المحبة بكأس الملاحظة يكرعون ، وشرايع المصافاة يردون ) ولو تأملت في هذه العبارات النادرة في وصف العابدين الساجدين المولعين بتقوى الله الساعين إلى الانسلاخ من عالم البشرية للذوبان في حبّ الله ، وهي من أرقى ما قرأت في أوصافهم فيما يطلقون عليه بالأدب التصوفي أي الأدب الروحاني فالأفكار عند الإمام " رتعت الماشية أكلت ما شاءت ، ويقال خرجنا نلعب ونرتع أي ننعم ونلهو والموضع مرتع "[1] فالقرب من الله ومكاشفته بما تضمر النفوس واظهار الخبايا لله الغفور الرحيم معنيان جعلهما الإمام في صورة الرياض يرتع فيها المؤمنون الورعون التقاة ، لكنه نسب تلك الرياض إلى القرب والمكاشفة قال (وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون) ينعم في تلك الرياض ويقترب بوجدانه واحساسه وروحانيته من الله ليكاشفه فيما كمن في نفسه ويبوح بلواعج شوقه وحبّه ، وانظر إلى جمال تعبيره وهو يجعل للملاحظة كأساً يغترف بها المؤمنون من حياض المحبة ويكرعون ، فما أجمل هذا الوصف اذ جعل المحبة حياضاً وهي جمع حوض ، وجعل للملاحظة وهي المبّارة كأساً يكرع بها المؤمنون من حياض حب الله ألا تدرك معي هذا اللون من التجانس في التعبير ، وهذه التشبيهات الدقيقة والاستعارة اللطيفة في وصف ظمأ المتقين إلى رؤية بارئهم والقرب منه ، فلا يجدون كأساً يرتوون بها ويغترفون بها من حياض المحبة سوى القرب من الله ومكاشفته ، وحين تصفو النفوس من كل درن ومن كلّ شائبة تسمو إلى

---

(1) المختار من صحاح اللغة : 185 .

بارئها طاهرة نقية ، فترد من شرايع المصافاة وهذا حال المؤمنين التقاة الذين يتوجهون إلى شرايع المصافاة والشريعة مشرعة الماء وهي مورد لشاربه وكأن الصفاء والنقاء نهر تشرع منه النفوس التقية وترد شرائعه لتنهل منها.

وهذه اللوحة البديعة الصنع ، الزاهية الألوان تنقل لنا صور المؤمنين الأتقياء وهم يرتعون في رياض القرب والمكاشفة ويكرعون من حياض المحبة ويردون شرايع المصافاة وقد هدتهم عقولهم المفكرة والمتأملة في أسرار الكون وعجائب الخلق إلى المزج بين العقل المفكر المتدبّر ، والنفس المضطرمة شوقاً ولوعةً لملاقاة الله الرؤوف الرحيم .

وهذه صور جميلة من البناء الفني المتماسك الذي يضع الألفاظ في مواضعها الحقيقية أو المجازية ليكسبها طلاوة وحسناً فترى الصحيفة السجادية مطرزة بهالات من النور الروحاني وهو يتسامى في ذروة ارتقائه إلى السمو الروحي نحو بارئه فيخاطبه " إن لم أعُذ بعزتك فبمن أعوذ ، وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ ، وقد ألجأتني الذنوب إلى التشبث بأذيال عفوك وأحوجتني الخطايا إلى استفتاح أبواب صفحك ، ودعتني الإساءة إلى الإناخة بفناء عزّك وحملتني المخافة من نقمتك إلى التمسك بعروة عطفك " (1)

أما ترى إلى هذا التجانس الباعث على الارتياح في بناء الجمل كأنه يصوغ عقداً من اللؤلؤ في قوله السابق (إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ ، وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ فقد ساوى بين (لم أعذ) و(لم ألذ) و(بعزتك) و(بقدرتك) و(فبمن أعوذ) و(فبمن ألوذ) لا تزيد حرفاً ولا تنقص حرفاً كأنها موزونة بميزان ذهب ، وانظر على دلالاتها تجد أنها تعبر عن روح المؤمن المتجرد من كل مغريات الحياة ، اليائس من كل قوى الدنيا ، يلجأ إلى القوي الذي لا قوة فوق قوته ، والعزيز الذي لا عزّ فوق عزته ، ليسأله الغفران والعفو والعصمة ، ويمدّه بالعون والقوة التي تغنيه عن كلّ قوى السلاطين والملوك فيسأل في جواب الشرط سؤال المقر المعترف بأن الله

(1) الصحيفة السجادية : 308 ـ 309 .

وحده الذي يلوذ به الناس ويعوذون من شر أو جور ، ثم تتلألأ الصور البيانية بين الألفاظ المسبوكة باتقان تشعر فيها بالحياة ، فالذنوب لها قوة كقوة البشر أو أكثر تُلجئ الانسان وتدفعه إلى التشبث والتمسك بأي منقذ أو مخلّص لكن الإمام  يتشبث بالعفو الإلهي فصّور العفو بالانسان القادر المتمكن الذي يتمسك الناس بأطراف أذياله طلباً لرحمته ، وينتقي من هذه القوة جزءً يدل عليه وهو الأذيال لينسبها إلى العفو وهو معنى لا أذيال له ، ويجري هذا التشخيص في الجمل المماثلة فالخطايا لها القدرة على أن تحوج الناس إلى طلب المنقذ فلا يجد الإمام غير أبواب الصفح الإلهي مصوراً الصفح بالبيت العظيم الذي يقف الناس على أبوابه والصفح معنى لا أبواب له لكن الإمام  شبهه بالصرح العظيم الذي يطلب الإمام استفتاح أبوابه ، والإساءة كائن قوي يدعو الناس إلى الإناخة ، والإناخة البروك يقال أنختُ الجمل فاستناخ أي أبركته ولم يجد الإمام  باحة يلتجئ للإقامة فيها طلباً للعفو والرحمة غير فناء العز الرباني الذي لا يدانيه عزّ ، بل يتضاءل بأزائه كلّ عزّ ثم يكمل هذه الصورة الجميلة بصورة أجمل حيث منح المخافة من نقمة الله قدرة على تحمل البشر ودفعهم إلى البحث عن ملجأ يلجؤون إليه فلا يجد الإمام  غير التمسك بعروة العطف الإلهي والعطف والشفقة معنى لا عروة له لكن الإمام  جسّده بتشبيهه بالكوز ليتجلى المعنى شاخصاً مجسما فقال (على التمسك بعروة عطفك) ليقرّب لنا المعاني ويصورها في صور مجسمة ماثلة أمام أعيننا ، وقد وصف كثير من الأدباء الدنيا وشرورها ومصائبها لكننا لم نقرأ مثل هذا الوصف الزاخر بالاستعارات والتشبيهات والأخيلة التي تجسّد لنا موقف الإمام الزاهد العابد منها قوله مناجياً ربّه مناجاة الزاهدين "إلهي أسكنتنا داراً حفرتْ لنا حفر مكرها ، وعلقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها ، فإليك نلتجئ من مكائد خدعها وبك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها فإنّها المهلكة طلابها ، المتلفة حلاّلها المحشوّة بالآفات المشحونة بالنكبات ، إلهي فزهدنا فيها .." [1] وهو نص لا يطاوعني قلمي في اقتطاع جزء منه لأنه مليء بالصور والتشبيهات والاستعارات والمجازات التي

---

(1) الصحيفة السجادية : 310 .

تسمو بالمعاني إذ جعل الإمام الحياة داراً نسكن فيها بكلّ ما يحدث فيها من صروف الأحداث والمعاملات والشهوات والميول بحسب ما يقتضيه الشرع الإسلامي والتوجيه الرباني ففي كلّ حدث منزلق يقودنا إليه الهوى والميل والشهوات وحبّ المال والبنين والنعرات الاجتماعية ، فلا ندري كيف نصون أنفسنا من الانزلاق في هذه الحفر بمكر من الشيطان وتزينه أعمال السوء . وقد صور الإمام ما في هذه الأمور من مغريات تغدر بالانسان قال " وعلقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها " فالدنيا مليئة بأبواب الغواية والتضليل الذي يؤدي بالانسان إلى المهاوي مشبهاً تلك المهاوي بالمنايا القاتلة وشبّهها بالانسان الذي دلّ عليه جزء مما يشتمل عليه وهو اليد فقال (أيدي المنايا) وأعطى الإمام ألواناً زاهية تقرّب هذه الصورة فجعل الدنيا بغواياتها واغراءتها تصطاد الانسان وتمسكه من تلابيبه لتعلقه بأيدي المهالك في حبال غدرها ، وإذا غدرت الدنيا فلا ينقذ من غدرها غير الله ، لأن الانسان يظل معلقاً لاحول له ولا قوة وقد خسر الحياة الدنيا والآخرة ، بما أبدته الدنيا من وجوه غدرها ، وغدر الدنيا ينال من فقد عقله في لحظات إغراء الشيطان ، واهتزت عقيدته ، وضعف إيمانه ولو تأملت في قوله (مكائد خدعها) لوجدت الإمام يصور خُدع الدنيا وزينتها وملذاتها ومغرياتها ، وما يجذب النفس الأمارة بالسوء ، وهي تغري الانسان وتجذبه إلى ارتكاب المعاصي وجسّم الإمام خدع الدنيا فجعلها كالمرأة اللعوب تمكر وتكيد لتوقع من ضعف إيمانه وتسقطه في حبائلها ، لذا اعتصم الإمام بربّه العلي القدير من الاغترار بزخارف زينتها لأنها تهلك من يطلبها ، وهلاكهم خسارة الآخرة وهذا ما يتضح في قوله (المحشوة بالآفات المشحونة بالنكبات) وآفات الدنيا ونكباتها عند الورع التقي الزكي هي الانغماس في الملذات والخروج عن سبيل الشرع وعمل الفسوق والفجور وظلم الناس وعبادة الطاغوت وعدم تقوى الله والانصياع لأوامر الشيطان وخدعه ، والضلوع في عمل الشر والإساءة إلى الناس ، وتلك آفات ونكبات تردي بالمؤمن التقي وتوقعه في شراك الشيطان فيخسر دنياه وآخرته .

وقد تجد الجمال في سلاسة الألفاظ وحسن رصفها ، وتقابل معانيها في نحو قول الإمام في مناجاة الذاكرين " إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء ،

والليل والنهار، والإعلان والإسرار، وفي السراء والضراء، وآنسنا بالذكر الخفي، واستعملنا بالعمل الزكي، والسعي المرضي وجاوزنا بالميزان الوفي"[1] أما ترى هذه المقابلة بين (الخلاء والملاء) و(الليل والنهار) و(الإعلان والإسرار) و( السراء والضراء) فقد جمع اللفظ وما يقابله ، ثم قابل بين التراكيب بنمط آخر فناظر بين (آنسنا واستعملنا وجاوزنا) و(بالذكر والعمل وبالميزان) ثم جانس بين الصفات (الخفي والزكي والمرضي والوفي ) وهذه المجانسة الصوتية أو المعنوية تتضح في دقة وضع الألفاظ في مواضعها، واتساقها الصوتي كما ترى في الخلاء والملاء والسرّاء والضرّاء والخفي والزكي ، كما تتضح في المقابلة بالضد في كل من الخلاء والملاء والسرّاء والضرّاء والليل والنهار وقد جمع الإمام في المعنى العام لهذا النص ثلاث مراحل يطمح العبد الصالح إلى تحقيقها وهي دوام ذكر الله - سبحانه وتعالى - في كلّ وقت وفي كلّ حال ، ودوام العمل الصالح في كلّ حين وكلّ مجال ليصل العد إلى المرحلة الثالثة وهي مجاوزة الميزان حين تثقل أعماله الصالحة وتخف أعماله الطالحة ليتحقق في قوله - عزّ وجلّ - ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة 11.6]

ومن يبحث عن اللآلئ الجميلة في نصوص الصحيفة السجادية يظل عائماً في بحرها لا يدري أيّها يختار وأيّها يترك فهي بحر زاخر بالجواهر الجميلة والدرر المضيئة وقد اجتزأت بما اخترت منها لتكون أمثلة قليلة من كثير لا يحصى لعلها تضع أمام القارئ فكرة بسيطة عن وجوه الجمال في نظم الصحيفة السجادية الذي لا يدانيه نظم إلا نظم القرآن الكريم الذي استقى منه الإمام واغترف كثيراً، وكان في أحيان كثيرة يقتبس من كلام الله نصوصاً كثيرة منها نصوص منقولة باللفظ ومنها نصوص مقتبسة بالمعنى وقد آثرت ألاّ أبحث في هذا المضمار لوجود دراسة فيها يمكن الرجوع إليها [2]

(1) الصحيفة السجّاديّة 306

(2) ينظر أثر القرآن في الصحيفة السجاديّة/ مجلة رسالة الإسلام العدد 1،2

كما استقى الإمام كثيراً من ألفاظه وصوره من نهج البلاغة وخطب أبيه الحسين، وتلك ظاهرة عجيبة تستحق الدراسة وهي الدائرة المعنوية العلوية التي تتجلى فيها نصوص الأئمة من آل البيت بجمال اللفظة والعبارة والتشابه بين المضامين والتميّز الخاص بكل منهم .

وأبرز ما في هذه الصحيفة الجليلة من وجوه الجمال معانيها الروحانية التي يظهر فيها الإمام زاهداً عابداً منقطعاً إلى الله محبّاً ذاته المقدّسة هائماً في ملكوته العظيم قال " أسألك أن تجعلني من أوفرهم منك حظاً ، وأعلاهم عندك منزلاً، وأجزلهم من ودّك قِسَماً ، وأفضلهم في معرفتك نصيباً فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي فأنت لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سهري وسُهادي، ولقاؤك قرة عيني ووصلك منى نفسي وإليك شوقي وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك رَوحي وراحتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلتي وقابل توبتي ومجيب دعوتي ووليّ عصمتي ومغني فاقتي " [1] فهل عرفت ولهان مثل الإمام في حبّه الإلهي ، وهل رأيت مغرماً بربه كزين العابدين حين يقول (فقد انقطعت إليك همتي ) و(وحدك لا لغيرك) و(انصرفت نحوك رغبتي) هل صور شاعر او كاتب أو متصوف في أرقى مراتب الصوفية مثل هذا الهيام بالله ، فلا مال ولا بنين ولا جمال نساء أو اغراء فاتنات تتجذب إليها رغبة الإمام بل كان الله وحده مراده، فالإمام محبّ مدنف يكابد صبابة العشق ساهراً ليله وقد هجر النوم فلا ينام إلا ساعات قليلة يناجي ربَه (ولك لا لسواك سهري وسهدي) و(لقاؤك قرة عيني ووصلك منى نفسي) ما أكبر هذا الشوق الذي يغمر قلب الإمام لملاقاة ربه فلا شيء في الدنيا يغريه غير حبّ الله ولا شيء يصرفه عن التوق لملاقاة الحبيب ، لذا عبّر الإمام بهذه العبارات الرقيقة التي تفتقر إليها قصائد العشاق والمحبين

---

(1) الصحيفة السجادية : 293 ـ 294 .

(وإليك شوقي وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي) شوق يكبر كلّ يوم في قلب الإمام لخالقه الجليل يخصه بأسلوب تقديم حرف الجر ومجروره (إليك) أي إليك وحدك دون غيرك ، (وفي محبتك ولهي) والوله ذهاب العقل والتحيّر من شدة الوجد فقد بلغ حب الإمام لربه الحد الذي يبلغه العاشقون عند ذهاب عقولهم لكن الإمام يجلّ عن أن يذهب عقله فقد أحب الله بعقله ووجدانه فاتحد عقله وروحه في حب ربّه حتى صار وهجاً من الحب الخارق الذي لا يعرف حدوداً ولا أشكالاً بل هو ذوبان في الحب وانسلاخ من الحياة الدنيا وسمو في عالم الملكوت لذا قال (وإلى هواك صبابتي) أي رقة شوقي وحرارته ، ولم يشهد المسلمون قبل الإمام محباً يتسامى به الحب إلى حد الصبابة والوله وعلى نحو ما يرتجي المحبون من أحبائهم ، ويأملون ممن منحوهم قلوبهم يصدح الإمام في حبه الإلهي قائلاً (ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي وقربك غاية سؤلي ) فالإمام لا يبغي من حبيبه سوى رضاه ولا يتمنى سوى رؤيته ولا يطلب غير السكن في جوار ربه ، ينظر إليه ويتأمل في جمال خلقه وفي عظمة وجوده كما يتمنى كلّ حبيب من حبيبه ، لكن الإمام طغى حبه على كلّ حب ، ومشاعره حلّقت في آفاق لا يدنو إليها حب البشر لأنه حب إلهي لا حدود له لذا يندمج الإمام في محبته لحبيبه وتسمو روحه إلى الذات الإلهية تناجيها (وفي مناجاتك روحي وراحتي) إذ تأنس نفس بهذه المناجاة وتستريح من هموم الدنيا ومتاعبها فيخلع نفسه من هذا العالم المليء بالشرور والأدران لتسمو إلى عالمٍ صاف تسبح فيه الملائكة والكون كله للإله العادل الرحيم إلى عالم لا ظلم فيه ولا فساد ولا ذنوب ولا أتراح عالم الروح الذائبة في ملكوت السماء حيث ترتاح نفس الإمام وتطمئن وتهنأ وتسعد في أجواء الترانيم الملائكية والتسابيح الكونية والصلوات الدائمة لملك وسعت رحمته كلّ شيء وتلك وأيم الله أجمل لحظات النفوس الطاهرة المبرّأة من الذنوب والمعاصي حين تسرح في ملكوت الله الجميل المهيب.

فتبرأ تلك النفوس من عللها وتشفى من أدوائها لأنها تنسى كلّ همومها ومتاعبها ومنغصات عبادتها لذا قال الإمام (وعندك دواء علتي وشفاء غلتي

وبرد لوعتي وكشف كربتي) ذلك أن النفوس المولهة بحب الله الهائمة بهواه لا تجد راحتها في لذات الحياة الدنيا لأنها لذات زائلة تأكل ألوان الطعام وتشرب أطايب الشراب وسرعان ما يذهب طعمها ويفضي المرء إلى حليلته وتنتهي شهوته بانتهاء لحظات الإفضاء ، وتكسب المال والجاه ثم يغدو وبالاً بمتطلباته..... فمتاع الحياة وإن كانت مما أمرنا الله أن نتمتع بها لأن زينة الحياة وجدت لكي يسعد الانسان بها ويجد فيها متعته بالطرائق التي يبيحها الله لا يعدل شيئاً مما يجده العابد الزاهد في انقطاعه إلى الله محبة له لذا كان شفاء غلة الإمام ، ودواؤه الشافي في لقاء ربه والاقتراب منه ، فتجده يناجي ربه مناجاة محب واله تنساب منه العبارات وكأنها لآلئ صافية وجواهر زاهية تبعث في النفس راحة واطمئناناً في نسق متناسق ، وصيغ متماثلة ، وأبنية متقاربة ، ما إن تنتهي الأولى حتى تشعر بشغف لإعادتها لمواءمتها الثانية ، وهكذا تتدفق كأنها قطرات ماءٍ صافٍ في حوض زجاجي (فكن أنيسي في وحشتي ، ومقيل عثرتي ، وغافر زلتي .....) هل أحسست بهذا الشلال الروحي يتدفق في العروق وأنت تقرأ هذه العبارات تتابع في صيغ متماثلة (وحشتي ، وعثرتي ، وزلتي ، وتوبتي ، ودعوتي ، وعصمتي ، وفاقتي) في نداء مستمر تستأنس به الروح وهي تناجي ربها ، ثم تجهر الروح بدعاء المستغيث (ولا تقطعني عنك ولا تبعدني منكَ) فلا يتمنى المحبون لحظة فراق أو بعد بل يتمنى المحب أن يظل دائماً قريباً من حبيبه متصلاً به متطلعاً إليه . ثم تتدفق المشاعر من روح الإمام جياشة (يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي) فالله سبحانه وتعالى هو عالم الإمام الجميل ودنياه وفضاؤه ، والمدى الذي ينداح فيه خياله ومشاعره ولا شيء غير الله يملك أنفاسه فهو النعيم والجنة ، وهو الدنيا والآخرة ، هو كل ما في الكون ، هو العالم الروحاني الذي تعيشه نفس الإمام فأي جمال روحاني يشع من هذه العبارات وأي نور رباني ينبعث من التئام ألفاظها ، وأي صور جميلة تتراءى من بناها وتراكيبها فلله درّك سيدي يا زين العابدين من مبدع فاقت براعتك حدود الإبداع.

# الفصل الثاني

## (الدراسة الدلالية والنحوية في الصحيفة السجادية)

للدراسة الدلالية أهمية كبيرة في تحليل النصوص البليغة وبيان خصائصها المعنوية، ذلك أنّ المعاني لا تستقصى إلا بالاحاطة بما يدلّ عليها، ولما كانت الصحيفة السجاديّة رسالة للمؤمنين تفتح لهم آفاق المعرفة وفنون الآداب وتوصلهم إلى مدارج الارتقاء الى العالم الرّباني، ومخارج الخلاص من الذنوب والآثام، فقد زخرت بالألفاظ والجمل والأساليب ذوات الوجوه الدلالية المتنوعة.

فاللفظة في الصحيفة فصيحة منتقاة لتوضع في موضعها المناسب، وتتناسب مع أختها في الجملة ، وتتواءم الجملة مع الجملة في نسق تعبيري مبدع يدخل القلب قبل الأذن فأنت حين تقرأ قول الإمام عليه السلام ((وفرّغ قلبي لمحبتك ، واشغله بذكرك وانعشه بخوفك، وبالوجل منك، وقوه بالرغبة إليك، وأمِله إلى طاعتك، وأجر به في أحب السبلِ إليك وذلّله بالرغبة فيما عندك أيام حياتي كلّها واجعل تقواك من الدنيا زادي وإلى رحمتك رحلتي وفي مرضاتك مدخلي واجعل في جنتك مثواي [1]

تجد كل لفظة وضعت في موضعها ودلّت على المعنى المقصود، فالفعل (فرّغ) مضعف الفعل (فَرَغ) تقول فرَغ من الشغل أي أنهاه، وفرِغ الماء بالكسر فراغاً أي انصبّ وأفرغه غيره، وتفريغ الظروف إخلاؤها)) [2] يدعو الإمام ربّه أن يخلي قلبه من كل حب إلا محبته والفعل (اشغل) أمر من شغل على إرادة الدعاء أي اجعله منشغلاً بذكرك لاشغله بشيء آخر ولو وازنا بين الفعلين

(1) الصحيفة السجادية 102.

(2) المختار من الصحاح 393.

(فرَغ) و(اشغل) لوجدنا أن الثاني مرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً فالقلب إذا فرغ من كل حبّ سوى حبّ الله شُغل بذكره ولم يعد له شأن آخر ينشغل به غير ذكر المحبوب.

ولو وازنا بين الفعلين (انعشه) و(قوّه) لألفيناهما مترابطين في دلالتهما فالفعل (نعش) بمعنى ارتقى وارتفع لأن مخافة الله والوجل منه ترفعه عن الصغائر والشهوت والدنايا، لذا يكون المرء الذي يخشى الله ويخافه فوق كلّ ما يحطّ من قدره لأنه سيعلو بايمانه وتقواه، ومن يكن هذا شأنه فهو قوي لا يخشى في الله لومة لائم لأنه لا ينظر إلى شيء من غنائم الدنيا وهباتها بل يطمح بالحصول على غنى رحمة الله فارتفاع قلب المرء يقوده إلى القوة والمنعة حينما يكون هواه لله وحده ورغبته إليه وحده .

ولو وازنا بين الفعلين (أمِلْه) و(أجرِ) في ضوء السياق الذي وردا فيه لوجدنا أن ميل القلب إلى شيء أي اتجاهه نحوه، وجري السفينة ورسوّها أي سيرها ووقوفها يقود أحدهما إلى الآخر فميل القلب إلى طاعة الله يقوده إلى الجري في أحب السبل إلى الله.

وانظر إلى الأسماء في النص حيث يقول (واجعل تقواك من الدنيا زادي وإلى رحمتك رحلتي، وفي مرضاتك مدخلي، واجعل في جنتك مثواي)وتأمل في دلالة كل من (زادي، ورحلتي،ومدخلي، ومثواي) ثم تخيّل رحلة الأتقياء التي يقطعون فيها مسافات الأيام والسنين وما تقتضيه تلك الرحلة، وما يحدث فيها، وما منتهاها ستدرك أن التقوى هي أهم ما يدخره المرء في هذه الرحلة كما يدّخر المسافر زاداً يمدّه بالقوة والقدرة على الاستمرار في السفر، وحين يهيئ المؤمن الزاد ويشدّ الرحال ويستعد إلى سفر لا يقصد فيه زيارة مدن، ولا الوصول إلى كلأ ومتنزهات في الحياة الدنيا بل يقصد الوصول إلى رحمة الله لأن الذي يرحمه الله سعيد، ولاشك في أن المؤمن يدرك أن الحصول على رحمة الله لا يتم إلا إذا جعل طريقه باتجاه ما يرضي الله بعمل الخير والبر والتقوى لأن الله تعالى يقول ﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الاعراف35]

وقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل128] وقال تعالى ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ [الزمر73] ومن تحقق له ذلك نال السعادة الكبرى بدخول الجنة لتكون مقرّه الأبدي، وفي ذلك ترابط واضح في دلالات الألفاظ، وتجانس معانيها وتسلسل جريان المعاني.

ولو تأملنا في دلالة الألفاظ في قول الإمام ((وها أنا متعرّض لنفحات رَوحك وعطفك، ومنتجع غيث جودك ولطفك، فارّ من سخطك إلى رضاك هارب منك إليك، راجٍ أحسن ما لديك، معوّل على مواهبك، مفتقر إلى رعايتك))[1]

ووازنا بين الألفاظ (متعرّض ومنتجع) و(فارٌّ وهاربٌ) و(راجٍ ومعّول على ومفتقر إلى) لوجدنا المشابهة واضحة بين متعرض لنفحات روحك ومنتجع غيث جودك أي واقف أمامك أرجو نفحات رحمتك ورزقك وكرمك، لأن معنى انتجع فلاناً أتاه يطلب معروفه، ولو ربطنا بين المعنيين لوجدنا مَن تطلّع إلى رحمة ربّه قاصداً طلبها ونيلها كمن أتاه بطلب معروفه، فالإمام عليه السلام قد ألف بين (متعرضاً لروح الله ) و ( منتجعاً ) غيث جوده لتوافق معنييهما، ولوجدنا التوافق في الدلالة بين ( فارّ ) و ( هارب ) لأن الفارّ هو الهارب فاللفظتان مترادفتان وقد وضع الإمام عليه السلام اللفظتين في موضعين يدل اللفظ في كل منهما دلالة دقيقة معبّرة عن المعنى المقصود وقوعه ( فارّ من سخطك إلى رضاك ) فيه سرعة في الحركة لأن السخط يخيفه فيطلق ساقيه للهرب منه باحثاً عن ملجأ ولا ملجأ سوى رضى الله، ولن يرضى الله عن عبده إلا إذا أحسن نيته وتاب وأخلص عمله لوجهه تعالى، أما الهرب من الله فهو أقل سرعة من الفرار ذلك أن العبد يعلم أن رحمة الله وسعت كل شيء فهو الرؤوف الرحيم لذا يهرب منه ليجأ إلى رحمته، ولولا رحمة الله لهلك العباد، واعتقد أن بناء اللفظة ( فرر ) يوحي بهذه السرعة لأن تكرار الراء يدل على

(1) الصحيفة السجادية 285.

التعاقب والحركة في الصوت، وأبنية كثير من الألفاظ توحي بالمعاني المقصودة [1]

وانظر إلى الألفاظ ( راجٍ ومعول ومفتقر ) وما تعلق بكل منها من حروف أو مفعولات فالرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة ومنه قوله تعالى ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [ نوح 13] والإنسان يرجو عفو الله ورحمته ورضاه وهذا اللفظ لا يبعد في دلالته عن (معول على) في قول الإمام عليه السلام (معوّل على مواهبك) لأن الذي يعوّل على ما يهبه الله ويعطيه كالذي يرجو مواهبه وعطاياه ومثل هذين اللفظين (مفقر الى) في قوله ( مفتقر إلى رعايتك) لأن الذي يرجو هو مفتقر لما يرجوه لأنه لو كان غنياً عنها لما رجاها ولا عوّل عليها قال الجوهري ((يقال عوّل عليّ بما شئت أي استعن بي كأنه يقول احمل عليّ ما أحببت)) [2] فالألفاظ الثلاثة يرتبط أحدها بالآخر فالمفتقر إلى ما عند الله من هبات يرجو رحمته وعطاءه ويعوّل على نيلهما والحَظوة بهما

وانظر إلى صياغة كل مجموعة من هذه الألفاظ تجد أن الإمام عليه السلام صاغها بأبنية متشابهة (متعرضاً، منتجعاً) و (فارّ، هارب، راجٍ ) و (معوّل، مفتقر) ليؤدي كل لفظ دلالته بمعناه المعجمي وبدلالة ما تعلّق به من حروف الجر، والصيغة التي ورد بها، لأن البنية لها أثر في احداث الانفعالات والأحاسيس إذا وضعت في المواضع المناسبة لهذا المعنى أو ذاك، فلا نجد سبباً لتفسير الهزات النفسية والانفعالات الروحية حين نقرأ النص الآتي غير الإقرار بأثر الألفاظ وصيغها وأبنيتها وانسجامها مع غيرها، في نفسه يقول الإمام داعياً ربّه ((وامنن عليّ بكل ما يصلحني في دنياي و آخرتي، ما ذكرت منه وما نسيت أو أظهرت أو أخفيت أو أعلنت أو أسررت، واجعلني في جميع ذلك من المصلحين بسؤالي إياك، المنجحين بالطلب إليك غير الممنوعين بالتوكل عليك المعودين بالتعوذ بك الرابحين في التجارة عليك المجارين بعزك، الموسّع

---

(1) العين 139/4.

(2) المختار من الصحاح 364.

عليهم الرزق الحلال من فضلك، الواسع بجودك وكرمك المعزّين من الذل بك والمجارين من الظلم بعدلك والمعافين من البلاء برحمتك والمغنين من الفقر بغناك والمعصومين من الذنوب والزلل والخطأ بتقواك والموفقين للخير والرشد والصواب بطاعتك والمحال بينهم وبين الذنوب بقدرتك التاركين لكل معصيتك الساكنين في جوارك ))[1]

ففي النص تتجانس أبنية الألفاظ وتتوافق دلالالتها، تأمل في الألفاظ (ما ذكرت منه وما نسيت) و (أظهرت أو أخفيت) و (أعلنت أو أسررت) فالذكر يقابله في الدلالة (النسيان) ليكون الدعاء شاملاً، والإظهار يقابله الإخفاء ليكون ما يبديه المرء مشمولاً بدعاء الاصلاح وكذلك ما يخفيه، وما يعلنه من فعل وقول أمام الملأ أو يسرّه ويضمره مما ينويه ويزمع القيام به، فكل لفظ يقابل لفظاً آخر يدل على عكس ما يدل عليه، وهذا التقابل بالضد ظاهرة واسعة في الصحيفة سنتحدث عنها، ولكن ما يعنيني هنا قدرة النسيج في الصحيفة السجادية على مجانسة الألفاظ بإسنادها إلى ضمير المتكلم ليعطيها دلالة خاصة مؤثرة، ثم انظر إلى المجموعة الكبيرة من أسماء المفعولين المرتبطة بقوله (واجعلني) من (المصلحين والمُنجَحين، غير المنوعين، المعوّدين، المجارين، الموسَّع عليهم، المُعزّين، المجارِين، المُعَزَّين ، المعافَين، المُغْنَين، المعصومين، الموفقين، المحال بينهم وأسماء الفاعلين الرابحين، التاركين، الساكنين. تجد أن كل واحد منها قد وضع في الدلالة على ما هو عليه فالإمام بازاء ربه منجح إذا أجيب طلبه، مصلح لتخصيص سؤاله بالله من دون غيره غير ممنوع من التوكل على الله، معوّد بالتعوذ بالله مُجار بعز الله ومعَزّ بالله ومجار بعدل الله ومعافى برحمة الله ومغنى بغنى الله وهكذا فهو عبد يستمد كل قواه من الله لذا تأتي صيغة اسم المفعول معبّرة عن معنى العبودية لله والعوز لقوى الله. لكنه في الوقت نفسه يترك معصية الله بإرادته ويسعى

---

(1) الصحيفة السجادية 117- 118.

للسكن في جوار الله بمشيئته وعلمه لذا عبرت صيغة اسم الفاعل عن هذا المعنى الذي يكون فيها هو الفاعل.

## المجالات (الحقول) الدلالية:

يعتورك عجب من أساليب نظم الصحيفة السجادّية إذ تتجانس الألفاظ ويصطف بعضها مع البعض الآخر وكأن ناظمها قد صنّف الألفاظ في مجالات دلالية كما يعرف في الزمان الحاضر، ويرتبط بعضها ببعض حتى أنك تستطيع أن تصنع في كل مجال مجموعة الألفاظ المتقاربة في دلالتها، وتجد الروابط التي بينها واضحة جلية، ولو اخترت أي نص من الصحيفة لوجدت مثالاً واضحاً على ذلك، فلو قرأت قوله (( فبفضلك اللهم فاغنني، وبعظمتك فانعشني وبسعتك فابسط يدي وبما عندك فاكفني، اللهم صلّ على محمد وآله وخلصني من الحسد واحصرني عن الذنوب، و ورعني عن المحارم ، ولا تجرئني على المعاصي، واجعل هواي عندك ورضاي فيما يرد عليّ منك وبارك لي فيما رزقتني وفيما خولتني وفيما أنعمت به علي واجعلني في كُل حالاتي محفوظاً مكلوءً مستوراً ، ممنوعاً معاذاً مجاراً ))[1] فلو وضعنا الألفاظ في المجالات الآتية:

1- أغنني ، أنعشني ، ابسط يدي ، اكفني.

2- الذنوب ، المحارم ، المعاصي

3- رزقتني ، خولتني ، أنعمت

4- محفوظاً ، مكلوءً ، مستوراً ، ممنوعاً ، معاذاً ، مجاراً

ولو دققنا النظر في العلاقة الرابطة بين ألفاظ كل مجموعة لوجدنا تلك الروابط وثيقة والعلاقات محكمة الربط فالذي يغنيه الله يعزه من كلّ ذل لأنه يغنيه عن الاحتياج إلى ما في أيدي غيره ، ومن ينعشه الله فقد أعزه لأن

---

(1) الصحيفة السجاية 105.

الرفعة هي العزة والإنعاش كما ذكرت تعني الرفعة لأن نعشه معناه رفعه ، والذي يبسط الله يده فقد أغناه لأن السعة في الرزق والفضل من الغنى، ومَن كفاه الله بما عنده فقد أغناه أيضاً فلا يحتاج أحداً غير الله. فالألفاظ متقاربة المعنى إن لم نقل مترادفة لأنها تصب كلّها في معنى واحد هو غنى النفس بما يهبه الله وكفايتها بفضله ويغنيها عما عند الناس.

وانظر إلى ألفاظ المجموعة الثانية تجد العلاقة وثيقة الارتباط بين دلالة الذنوب والمحارم فالذنب هو الخطأ الذي يقترفه المرء بحق غيره، وهو لا يختلف عما حرّمه الله من الأعمال التي أمر الله أن نلتزم بها فكل محرّم يجترحه الإنسان هو ذنب ومثلهما المعاصي التي يعصي الإنسان باقترافها أوامر الله ونواهيه، فكل لفظة تقترب من معنى الأخرى فأنت إذا أذنبت فقد عصيت الله ولم تراعِ شرائعه وحلّلت محارمه التي حرّمها فهي ألفاظ متقاربة في دلالتها.

وانظر إلى الألفاظ (رزقتني) و (خولتني) و (أنعمت به علي) متأملاً في العلاقة بين دلالة هذه الألفاظ تجد ثمة علاقة تماثل في المعنى لأن ما يصيبه الإنسان من رزق من الله جلّت قدرته فهو ملكه الذي خولّه الله الإنفاق منه في البرّ والتقوى ولاشك في أن ما رزقه الله به قد أنعم عليه لأن النعمة هي الرزق.

ودقق النظر في الألفاظ (محفوظاً ) و ( مكلوءً ) و ( مستوراً ) و ( ممنوعاً) و ( معاذاً ) و ( مجاراً ) تجدها متقاربة المعنى فمن يحفظه الله من كلّ سوء يكلؤه أي يحفظه ومن يحفظه الله يستره من كل ضرر ويمنع عنه كلّ شر لأن المنع هو الستر والحفظ من كلّ سوء ومكروه فيقوى ويزداد منعة لأن الله جلّت قدرته يعيذه من شر الأنس والجن لذا يقول الإنسان أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم أي ألجأ إلى الله من شرّه، ومن أعاذه الله فقد أجاره، ومن أجاره الله من العذاب فقد أنقذه فالحفظ والكلأ والستر والمنعة والإعاذة والإجارة متقاربة المعنى إذا أخذت في سياقها وروعيت علاقاتها بغيرها واستعين بالقرائن فالعلاقة فيما ذكرته بين الألفاظ التي أختارها الإمام هي علاقة مشابهة وترادف، ولابّد من ملاحظة المزاوجة الجميلة بين الألفاظ حيث جعل

الإمام كل لفظتين أو أكثر في مجموعة متجانسة يقول عليه السلام (( ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك منى نفسي، وإليك شوقي وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبي وقربك غاية سؤلي ))[1] فليس ثمة صعوبة في الوصول إلى العلاقة بين (سهري وسهادي) و(لقاؤك ووصلك) و (شوقي وولهي وصبابتي) و (بغيبتي وحاجتي) و (طلبي غاية سؤلي)ولن نجد مشقة في معرفة العلاقة بين السهر والسهاد فهما لفظان مترادفان وكذلك اللقاء والوصل والشوق والوله والصبابة، والبغية والحاجة، والطلب والسؤل فكل لفظين مترادفان اختارهما الإمام لتكون اللفظة مقوّية لمعنى الأولى ومتمّمة لها.

ومثلها في التجانس في المعنى قوله في مناجاة المتوسلين (إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك ولا لي ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك وشفاعة نبيّك نبي الرحمة ومنقذ الأمة من الغمّة فاجعلهما لي سبباً إلى نيل غفرانك وصيرهما لي وصلة إلى الفوز برضوانك وقد حلّ رجائي بحرم كرمك وحطّ طمعي بفناء جودك ... اجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك وبوأتهم دار كرامتك ))[2]

لاشك في أنك تلمس بسهولة العلاقة بين الألفاظ في المجموعات الآتية

| | |
|---|---|
| 1- وسيلة وذريعة | 5- حلّ وحطّ |
| 2- الرأفة والرحمة | 6- حرم - فِناء |
| 3- السبب والوحدة | 7- كرم وجود |
| 4- جعل وصيّر | 8- أحللت وبوّأت |

إذ تجد أن كل لفظتين تربطهما علاقة الترادف ولا أجد بي حاجة إلى بيان تلك العلاقة لأن المعاني مألوفة ومعروفة وقد نصت المعاجم على ترادف

(1) الصحيفة السجادية 293.

(1) الصحيفة السجادية 298 .

كل لفظين منهما وقد يورد الإمام الألفاظ المتقاربة في المعنى متعاقبةً مثل قوله ((سألتك مسألة الحقير الذليل البائس الفقير، الخائف المستجير ومع ذلك خيفة وتضرّعاً وتعوّذاً وتلوّذاً )) [1]

فهؤلاء السائلون محتاجون إلى رحمة الله يجمعهم معنى واحد وهو الضعف والحاجة إلى الله، ولكنه قسمهم صنفين صنفين، فالحقير هو الذليل والبائس هو الفقير والخائف هو المستجير ثم انظر إلى الحروف المتعلقة بكل منها فالخوف من الله، والتضرّع إليه، والتعوّذ بالله والتلوّذ به تجد الألفاظ متقاربة الدلالة في مقامها لأن المعنى الذي يجمع هذه الألفاظ في هذا النص هو الاحتياج إلى رحمة الله ومغفرته فلا يجد أي منهم بدّاً سوى التوجّه إلى الله سائلين الرأفة بهم والعطف عليهم.

وتجد مثل هذا التصنيف في دلالة الألفاظ في قوله ((فإني عبدك المسكين المستكين الضعيف الضرير الذليل الحقير المهين الفقير الخائف المستجير))[2]

فهذه الألفاظ كلّها تدل على معنى الضعف والفقر إلى الله، والحاجة إليه.

وقد يجانس الإمام بين دلالات الألفاظ مراعياً علاقة (الكلّ) و(الجزء) ومن ذلك قوله في دعوته لوالديه ((اللهم لا تنسني ذكرهما في أدبار صلواتي، وفي أنى من أناء ليلي، وفي كلّ ساعة من ساعات نهاري))[3]

فقد جانس بين لفظتي (أدبار والصلوات) لأن أدبار الصلوات هو ما يقال في أواخرها وجانس بين (أنى) وهو الجزء من الليل، والساعة والنهار ومن ذلك

(2) المصدر نفسه 206

(3) المصدر نفسه 101 .

(3) الصحيفة السجادية 114.

قوله ((فتلقاك بنفس خاشعة، ورقبة خاضعة، وظهر مثقل من الخطايا))[1] فالنفس والرقبة والظهر أجزاء من العبد الذي يدعو ربّه وقد يجانس الإمام بين اللفظ وما يصدر عنه كما ترى في قوله عليه السلام ((اللهم وإني أتوب إليك من كلّ ما خالف إرادتك أو زال عن محبتك من خطرات قلبي ولحظات عيني وحكايات لساني))[2] فقد جانس بين القلب وما يخطر منه من خواطر، والعين ولحظها، واللسان وحكاياته وكلّ من الخطرات واللحظات والحكايات صادرة عما يختص بالصدور عنه من قلب وعين ولسان.

وقد يذكر الإمام الألفاظ المترابطة بعلاقة السبب والمسبب كقوله عليه السلام ((اللهم افلل بذلك عدوهم، واقلم عنهم أظفارهم، وفرّق بينهم وبين أسلحتهم واخلع وثائق أفئدتهم وباعد بينهم وبين أزودتهم، وحيرهم في سُبُلهم، وضلّلهم عن وجههم واقطع عنهم المدد وانقص منهم العدد، واملأ أفئدتهم الرعب، واقبض أيديهم عن البسط، واخزم ألسنتهم عن النطق))[3]

إذ من المعلوم أن نصر العدو يحتاج إلى مستلزمات لذا دعا الإمام ربّه أن يقطع هذه المستلزمات فقال (افلل) جمعهم و (اقلم) أظافرهم كناية عن اضعافهم و(فرّق) بينهم وبين أسلحتهم، وأساس نصر الجندي سلاحه و (اخلع) وثائق أفئدتهم و (باعد)بينهم وبين أزودتهم وهو عنصر مهم في المعركة لأن الجندي بلا مدد يمدّه تضعف قواه و (حيّرهم) في سبلهم أي ضلّلهم في متاهات لا يصلون بها إلى هدفهم و (ضلّلهم) عن وجههم أي دعهم يتخبطون خبط عشواء لا يعرفون إلى قصدهم سبيلا و(قلل) عنهم المدد و (انقص) منهم العدد و(أملأ) أفئدتهم بالرعب و(اقبض) أيديهم عن البسط و(اخرم) ألسنتهم عن النطق وتلك أسباب لضعف العدو وهزيمته فاذا خاف الجندي وامتلأ قلبه رعباً

---

(1) المصدر نفسه : 141.

(2) المصدر نفسه : 135 ـ 136 .

(3) المصدر نفسه : 122.

شُلّت يده عن الحركة وتوقف لسانه عن النطق والإرشاد وكل هذه الأسباب مؤدية الى ضعف العدو وفشله.

ومثل ذلك ما ذكره الإمام من ألفاظ تعد من مستلزمات ما تنسب إليه فالجنة فيها ما أعد الله لعباده الصالحين من (مساكن الخلد) و (منازل الكرامة) و(الحور الحسان) و ( الأنهار المطردة بأنواع الأشربة) و(الأشجار المتدلية بصفوف الثمر وهذه كلها من لوازم السعادة ومكوناتها [1]

ويأتي الإمام في دعائه هذا بأجناس الشعوب وأنواعها في قوله ((واعمم بذلك أعداءك في أقطار البلاد من الهند والروم والترك والخزر والحبش والنوبة والزّنج والسّقالبة والديالمة وسائر أمم الشرك))[2]

وهذه أسماء الأمم والشعوب المعروفة في ذلك الزمان. ويأتي الإمام بصفات الله وما يصدر منه من أعمال فيخاطبه ((فيا منتهى أمل الآملين ، ويا غاية سؤل السائلين ، ويا أقصى طلبة الطالبين ، ويا أعلى رغبة الراغبين ويا ولي الصالحين ويا أمان الخائفين ويا مجيب دعوة المضطرين ويا ذخر المعدمين ويا كنز البائسين، ويا غياث المستغيثين ويا قاضي حوائج الفقراء والمساكين ويا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين))[3]

وهذه الصفات التي نعت بها الإمام ربَّه مصنفة في مجاميع متماثلة فأنت تجد معنى جامعاً لكل هذه الصفات هو رحمة الله بعباده ورأفته بهم، وعطفه عليهم غير أنك تستطيع أن تصنّف الألفاظ في مجاميع متجانسة منها (منتهى وغاية) و (أقصى وأعلى) و(السائلين والطالبين) و(المعدمين والبائسين) و (الفقراء والمساكين) و(ذخر وكنز) وعلاقة المشابهة بين كل كلمتين واضحة.

---

(1) الصحيفة السجادية : 122.

(2) المصدر نفسه 123.

(3) المصدر نفسه : 301.

ويكثر الإمام من المقابلة بين الأضداد قال عليه السلام ((إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء، والليل والنهار، والاعلان والاسرار وفي السرّاء والضرّاء))[1]

ويعتمد الإمام المقابلة بالضد في الدعاء كلّه أقتبس منه ((مولاي مولاي أنت المولى وأنا العبد وهل يرحم العبد إلا المولى...مولاي مولاي أنت العزيز وأنا الذليل... مولاي مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق...مولاي مولاي أنت المعطي وأنا السائل...مولاي مولاي أنت المغيث وأنا المستغيث...مولاي مولاي أنت الباقي وأنا الفاني ...مولاي مولاي أنت الدائم وأنا الزائل ...مولاي مولاي أنت الحي وأنا الميّت ...مولاي مولاي أنت القوي وأنا الضعيف...مولاي مولاي أنت الغني وأنا الفقير...مولاي مولاي أنت الكبير وأنا الصغير...مولاي مولاي أنت المالك وأنا المملوك...))[2]

ويعمد الإمام أحياناً إلى المقابلة بين الأفعال فيقول ((ومن يؤمنني منك وأنت أخفتني، ومن يساعدني وأنت أفردتني ومن يقوّيني وأنت أضعفتني))[3]

ويقابل بين اسم آخر في الدعاء نفسه قائلاً ((لا يجير يا إلهي إلا ربٌّ على مربوب ولا يؤمن إلا غالب على مغلوب ولا يعني إلا طالب على مطلوب))[4]

ومن جميل التجانس بين الألفاظ في الصحيفة السجادية ورود مفعول واحد وتنوّع في الأفعال تنوعاً متناغماً لا يخلو من تصنيف آخر في دلالة تلك الأفعال من ذلك قول الإمام سائلاً ربّه سبحانه وتعالى العافية ((وألبسني عافيتك، وجللني عافيتك، وحصني بعافيتك وأكرمني بعافيتك، وأغنني بعافيتك، وتصدّق عليّ بعافيتك وهب لي عافيتك وأفرشني عافيتك، وأصلح لي

---

(1) الصحيفة السجادية 306.

(2) المصدر نفسه : 255- 256.

(3) المصدر نفسه : 100.

(4) المصدر نفسه : 100.

عافيتك، ولا تفرّق بيني وبين عافيتك في الدنيا والآخرة))[1] ثم ينوّع صفات العافية بعد أن صنف الأفعال ((وعافني عافية كافية شافية عالية نامية، عافية تولد في بدني العافية، عافية الدنيا والآخرة))[2] ألا تلاحظ هذا التقابل الجميل بين الألفاظ إذ كان يكرر الفعل في المقطع الأول أما في هذا المقطع فهو يكرر أوصاف العافية مع تكرار لفظة العافية تكراراً غير مملّ تكون فيه مفعولاً به مرة ومجرورة بحرف الجر ثانية، ويلوّن الأفعال بألوان دلالية متجانسة فترى الفعل (ألبسني) يقترب من دلالة الفعل (جللني) لأن أصله من جلل الفرس أي ألبسها الجل، وقوله (حصني) بالعافية أي امنعني من الاحتياج إلى معونة الناس عند المرض أو الضعف وهو قريب من معنى (أكرمني) و (أغنني) أما لفظة (أفرشني)عافيتك فهو استعمال مجازي جميل لأن العافية إذا افترشها الانسان في كل جزء من جسده عاش محصناً من الاحتياج إلى معونة الناس. وكذلك الفعل (أصلح) أي أزل عن جسدي كلّ خلل في العافية أو أي عطل في الجسد قال تعالى ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الانبياء90] وإصلاح امرأة عقيم معجزة من معجزات الله. ثم يورد الإمام (عليه السلام) لفظة العافية لتكون مشتركاً لفظياً لأن عافية الدنيا سلامة البدن وخلوّه من الأمراض أما عافية الآخرة فهي سلامة المرء من كل وزر وذنب، ودخوله الجنة راضياً مرضياً ذلك أنّ الآخرة لا مرض فيها ولا سلامة بدن بل تكون النفس راضية مرضية في جنان الله.

ومثل العافية النار، إذ نوّع الإمام أفعالها وصفاتها في دلالات متقاربة في قوله ((اللهم إني أعوذ بك من نار تغلظت بها على من عصاك، وتوعدت بها من صَدَف عن رضاك، ومن نار نورها ظلمة وهيّنها أليم وبعيدها قريب ومن نار يأكل بعضَها بعضٌ، ويصول بعضها على بعض، ومن نار تذر العظام رميماً

---

(1) الصحيفة السجادية : 108.

(2) المصدر نفسه : 108.

وتسقي أهلها حميماً، ومن نار لا تبقي على من تضرّع إليها ولا ترحم من استعطفها ولا تقدر على التخفيف عمّن خشع لها واستسلم إليها تلقى سُكانها بأحر ما لديها من أليم النكال، وشديد الوبال، وأعوذ بك من عقاربها الفاغرة أفواهها وحيّاتها الصالقة بأنيابها، وشرابها الذي يقطع أمعاء وأفئدة سُكانها وينزع قلوبهم، وأستهديك لما باعد منها، وأخر عنها))[1]

والنار هي العقاب الأليم الذي تغلّظ به الله على من عصاه من الكافرين فتوعدهم في الحياة الدنيا قال تعالى ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [ الذاريات13- 14] وقوله تعالى ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر48]هذه النار وصفها الإمام وصفاً يرهب السامع، تأمل في نور يكون ظلاماً من كثرة ما يحترق فيها، ومن شدة سعيرها، وانظر إلى دلالة هيّنها أي أيسر كيّهاالأنّه مؤلم وأبعد زاوية فيها قريبة من أجساد المعذبين بها تلتهمهم من كل زاوية وصوب، وانظر إلى دلالة التركيب العجيب في معناه (يأكل بعضَها بعضٌ) فهي تستمد قوتها مما فيها قال تعالى ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[التحريم6] يستعر لهبها باستمرار لأنها تجد أسباب تأججها مما فيها. ووازن بين هذا التعبير المجازي والتعبير المجازي الآخر (ويصول بعضها على بعض) فكأنها ساحة معركة حامية الوطيس يهجم بعضها على بعض، ويأكل بعضها بعضاً، وأي صورة مرعبة للناس يكون المرء في وسطها وقوداً وهي تتأجج وتستعر كما قال تعالى ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ [الملك 7- 8] وهكذا تعددت الأوصاف للنار بعبارات متنوعة تعطي دلالات كثيرة .

---

(1) الصحيفة السجادية 144- 145.

## الدراسة النحوية

لا تخرج نصوص الصحيفة السجادية عن الأحكام النحوية المطردة بل تكاد تكون كلها شواهد لتلك الأحكام الصحيحة التي استنبطها النحويون من استقراء لغة العرب، فكل لفظ يقع في موقعه الصحيح من الجملة، ويؤدي المعنى المقصود، فالأفعال والأسماء والحروف تخضع لأحكام العربية، أو أن تلك الأحكام جاءت على وفق النصوص الصحيحة ومنها الصحيفة السجادية وسأشير إلى ملاحظات نحوية في الصحيفة أهمها:

1- تعدد الأخبار للمبتدأ الواحد: وضع عدد من النحويين شروطاً لتعدد الأخبار وأطلقها غيرهم من غير شروط قال الرضي ((تعدد الخبر إما ن يكون بعطف أو بغيره فالأول نحو زيد عالم وعاقل وليس قولك هما عالم وجاهل من هذا لأن كلامنا فيما تعدد فيه الخبر عن شيء واحد... فإن لم تكن متضادة كقوله تعالى ((وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعّال لما يريد)) ففي كل واحد ضمير يرجع إلى المبتدأ إن كان مشتقاً ولا اشكال فيه، وإن كانت متضادة فهي على ضربين إمّا أن يتصف جزؤه المبتدأ ببعض تلك الأخبار والجزء الآخر بالخبر الآخر أو يتصف المجموع بكل واحد منهما... وأما الثاني أعني ما اتصف فيه المجموع بكل واحد منهما نحو هذا حلو حامض فلا اشكال فيه لأن الضمير يرجع من كل واحد من الخبرين إلى مجموع المبتدأ ))[1] وقد جاء في الصحيفة السجادية اكثر من خبر لمبتدأ واحد نحو قوله ((وجبريل الأمين على وحيك المطاع في أهل سماواتك، المكين لديك، المقرّب عندك))[2] وقال ((أنت الله لا إله أنت الأحد المتوحد، الفرد المتفرّد وأنت الله لا إله إلا أنت الكريم المتكرّم العظيم المتعظّم، الكبير المتكبر..))[3]

---

(1) شرح الكافية 1/100- 101.

(2) الصحيفة السجادية 41.

(3) المصدر نفسه : 196.

وتعددت أخبار(إنّ) في قوله ((إنّك المتفضل بالاحسان، المتطوّل بالإمتنان، الوهاب الكريم ذو الجلال والإكرام))[1]

2- الخبر يرد معرفة: ورد الخبر معرفة في أكثر من نص في الصحيفة السجادية وهو ما أجازه النحويون فضلاً عن مجيء الخبر نكرة وهو الأصل قال ابن برهان((إذا انعقدت الجملة باسمين معرفة ونكرة فالنكرة منهما هو الخبر ليس غير لأنه الجزء المستفاد من الجملة، فانبغى أن يكون اللفظ فيه طباق المعنى ووفقه. فإن كانا معرفتين فالذي تلخصت المعرفة به أولاً غاية التلخيص هو المبتدأ ومثاله أن يكون لك أخ ببلدة لم تشاهده قط، ولا عرفت شيئاً من أحواله ثم تراه بعد زمان رجلاً بسيط اللسان بالعلم فتأنس به غاية الأنس ثم تلاقي من يعرف أخاك فتسأل عن أخيك فيقول لك فقيهُك أخوك، فـ(فقيهكَ) المبتدأ وأخوك الخبر.

ولو كان لك أخ معك ثم اغترب عنك وانقطع خبره ثم بلغك خبر فقيه نجم وعلا ذكره وبهرك فضله بقراءة كتبه ولقاء أصحابه ثم سألت عنه من لاقاه ممن كان يعرف أخاك فقال لك (أخوك الفقيه) لكان أخوك المبتدأ والفقيه الخبر وذلك أن المتأخر طارٍ على السابق والمستفاد ثانياً هو الخبر))[2]

ومما جاء معرفة قول الإمام عليه السلام ((وقولُك الحق الأصدق وأقسمُك الأوفى))[3] وقوله عليه السلام(( ووسيلتي إليك التوحيدُ))[4] وقوله ((وأنت إلهي مفزعي وملجأي))[5] وقوله ((وأنت العظيمُ أعظم من كل عظيم))[6] وورد في دعاء التذلل كثير من ذلك نحو قوله أنت المولى وأنا

(1) الصحيفة السجادية : 78.

(2) شرح اللمع 34/1.

(3) الصحيفة السجادية 129.

(4) المصدر نفسه : 223.

(5) المصدر نفسه : 250.

(6) المصدر نفسه : 253.

العبد))[1] وجاء خبر (كان) معرفة وأصله أن يكون نكرةً كما أسلفت في خبر المبتدأ نحو قوله عليه السلام ((ليكون دينُك الأعلى، وحزبُك الأقوى، وحظُّك الأوفى))[2]

وكثرة مجيء الخبر معرفة في كلام الإمام وفي القرآن الكريم والنصوص الفصيحة يدعو إلى التأمل في صحة مقولة النحويين إن الأصل في الخبر أن يكون نكرة لأن مجيأه معرفة بهذه الكثرة وبما لا يخل بدلالة الجمل الاسمية أو وظيفة الخبر يدعو إلى القول إن الخبر يأتي نكرة كما يأتي معرفة على السواء ولا فرق بينهما إلا في معنى كل من الاستعمالين.

أما تقدم الخبر سواء أكان نكرة أم معرفة على المبتدأ والخلاف المعروف فيه فهو استعمال لا يمكن نكرانه يحتم دراسة كل استعمال بحسب دلالته ولا تخضع هذا أو ذاك إلى المنع.

وورد في كلام الإمام السجّاد اقتران خبر (كاد) بـ(أنْ) نحو قوله (( وقد كاد أن يحل بي لولا رحمتك ما حلّ بساحته))[3] إذ يذهب النحويون إلى أن كاد يكثر في خبرها تجرد الفعل من أنْ وذهب ابن الحاجب إلى أن الفصيح أن لا تأتي بـ (أن)[4] والصحيح ورودها بغير أنْ كقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه15] وقوله تعالى ﴿كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة 117] وقوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور40] وورودها بأن كما جاء في قول الإمام دليل على صحته لذا قال الرضي عن تجرد خبر عسى من أن ((وهو قليل وذلك لشبيه عسى بـ(كاد))[5] .

---

(1) المصدر نفسه : 255.

(2) الصحيفة السجادية : 124.

(3) الصحيفة السجادية 225.

(4) شرح الوافية نظم الكافية369.

(5) شرح الكافية 304/2.

ومن الظواهر النحوية التي ذكرها النحويون زيادة (كان) في صيغة التعجب متوسطة بين (ما) وفعل التعجب وقد نص العلماء على أن (كان) إذا جاءت بين متلازمين أو (ما) التعجبية وفعل التعجب تكون زائدة قال ابن عقيل ((وانما تنقاس زيادتها بين (ما) وفعل التعجب نحو (ما كان أصحَّ علمَ من تقدّما) ولا تزاد في غيره إلا سماعا))[1]

وقد ورد في الشعر ومنه

ما كان أحسنَ فيك العيشَ مُؤْتنفاً غضاً وأطيبَ في آصالك الأُصُلا

قال الإمام مخاطباً شهر رمضان((السلام عليك ما كان أمحاك للذنوب وأسترك لأنواع العيوب ، السلام عليك ما كان أطولك على المجرمين وأهيبك في صدور المؤمنين))[2] وفاعل كان الزائدة عند السيرافي مصدرها وهو الكون لأن الفعل لا يخلو من الفاعل ولا فاعلَ لها عند أبي علي لأنها تصير جملة فتكثر الزيادة [3]

وقد وردت (كان) في الصحيفة السجادية متصرفة وناقصة وتامة قال عليه السلام ((بل لتكون حجتُك أبلغَ، وكرمُك أكمل واحسانك أوفى ونعمتُك أتم كلّ ذلك كان ولم تزل وهو كائن))[4] جاءت(تكون) فعلاً مضارعاً ناقصاً ثم جاءت (كان) تامة بمعنى (حدث) وحصل ثم صاغها عليه السلام بصيغة اسم الفاعل(كائن) وأراد بها التمام أي الحدوث ويلاحظ في (لم تزل) أنها من غير خبر يريد أنك ما تزال تحدث ذلك ونجزل العطاء والكرم لعبادك.

---

(1) شرح ابن عقيل 250/1.

(2) الصحيفة السجادية 186..

(3) المغني في النحو 32/3- 33.

(4) الصحيفة السجادية 194 ـ 195 .

وجاءت (كان) تامة كذلك في قوله (( في قضائك كان ماحلّ بي وبعلمك ما صرت إليه))[1] أي حدث وحصل.

ووردت كان الناقصة مضارعاً مجزوماً بـ (لا الناهية) والفعل مسنداً إلى ضمير المتكلم وهو ما يندر مجيؤه في نهي النفس قال الإمام داعياً ((فلا يضيقنّ عنيّ فضلك ولا يقصُرَنّ دوني عفوُك ولا أكن أخيب عبادك التائبين))[2]

قال الرضي (( و(لا) النهي تجيء للمخاطب والغائب على السواء ولا تختص بالغائب كاللام وقد جاء في المتكلم قليلاً كلام الأمر وذلك قولهم لا أرينّك ههنا لأن المنهي في الحقيقة ههنا هو المخاطب أي لا تكن ههنا حتى لا أراك ))[3] وما جاء في قول الإمام لا يراد به المخاطب بل أراد نهي نفسه وهو نادر الورود بحسب ما أورده النحويون.

ودخلت كان على فعل ماض تام نحو قوله في مناجاة الراغبين ((إلهي إن كان قلّ زادي في المسير إليك فلقد حسن ظني بالتوكل عليك ))[4] وهو استعمال قرآني لم يعره العلماء اهتماماً فقد جاء قول الإمام على غرار قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة116]

إذ وردت الآية الكريمة وكلام الإمام في سياق شرط وجاء بعد (كان) في قول الإمام الفعل (قلّ) واستعماله يختلف عن استعمال الفعل في الآية إذ اسند فيها كان إلى ضمير المتكلم في حين لم يسند الفعل في قول الإمام إلى ضمير لذا تعد كان في الآية ناقصة وإن دخلت على الفعل (قلته) غير أن جملة (قلته) تعد خبراً أما في عبارة الإمام فلا خبر لكان لذا ينبغي وصف هذا

(1) المصدر نفسه 250.
(2) المصدر نفسه : 141.
(3) شرح الكافية 252/2.
(4) الصحيفة السجادية 284.

الاستعمال، ولا أميل إلى عدّها زائدة كما يذهب عدد من النحويين إلى عدّ (كان) زائدة إذا لم تفد معنى كما قال الرضي (اعلم أن كان تزاد غير مفيدة لشيء إلا محض التأكيد وهذا معنى زيادة الكلمة في كلام العرب

سراة بني أبي بكر تسامى    على كان المسومةِ العراب [1]

وكثر استعمال الحروف المشبهة بالفعل في الصحيفة السجادية بحسب الأحكام النحوية الخاصة بها ووضعها في مواضعها الدالة على معانيها والتصرف في بناء الجملة من تقديم وتأخير على وفق ماهو مألوف في اللغة الفصيحة، وقد أثار انتباهي تأليف خاص يندر استعماله في الجمل هو قوله ((إني أشهدك وكفى بك شهيداً وأشهد جميع ملائكتك وسكان سمواتك وحملة عرشك ومن بعثت من أنبيائك ورسلك وأنشأت من أصناف خلقك أني أشهد أنّك أنت الله لا إله إلا أنت))[2] فقد جاء خبر (إنّ) تركيباً من (أن واسمها وخبرها) وهو ما سمّي بالمصدر المؤوّل وجاء خبر أن تركيباً منسبكاً من أن واسمها وخبرها. وهذا الخبر فيه نظر إذ أنّ المصدر الصريح لا يصح مجيؤه خبراً أما التركيب المنسبك من أنّ واسمها وخبرها فهو بحسب تفسيرنا يدلّ على الخبر المستغنى عنه لدلالة هذا التركيب عليه. وهذا التأليف صحيح لأنه يصحّ الإخبار بأنّ واسمها وخبرها لافادتها معنى تاماً يحق السكوت عليه، وقد حذا الإمام في ذلك حذو التعبير القرآني في قوله تعالى ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الانفال41] ويلاحظ في استعمالات الصحيفة السجادية دخول اللام في خبر إن المعرّف بأل كقوله ((وإنّ عطاءك للعطاء المهنا))[3] وقد أوضحنا أن الأصل في الخبر أن

(1) شرح الكافية 293/2.

(2) الصحيفة السجادية 270.

(3) الصحيفة السجادية : 189.

يكون نكرة وأن مجيأه معرفة جائز وهاهي اللام المزحلقة تدخل على خبره المعرف بالألف واللام.

ومن استعمالات الصحيفة السجادية دخول حرف الجر المسمّى زائداً على خبر (لا) في قوله ((ولا أنا بقاضٍ وظيفة خدمتهما))[1] وقد قصرها النحويون على خبر (ليس)و(ما) الحجازية و(ما)التميمية أيضاً [2]

ومن الاستعمالات النادرة في الأساليب العربية ورود اسم كان نكرة وخبرها نكرة مخصصة أو ظرف نحو قوله ((ربِّ صلّ على محمد وآله صلاة زاكية لا تكون صلاةٌ أزكى منها، وصلّ عليه صلاة نامية لا تكون صلاة أنمى منها وصلّ عليه صلاة راضية لا تكون صلاةٌ فوقها))[3] وللعلماء في مجيء الاسم والخبر نكرتين أراء وضحها ابن فلاح قائلاً ((القسم الثاني كونهما نكرتين فان كان في الايجاب اشترط كون الخبر ظرفاً أو جاراً أو مجروراً مقدّماً.. وأما في النفي فقد جاءا نكرتين قالوا ما كان أحدٌ مثلك، وما كان أحدٌ خيراً منك، وإذا تساويا في العموم كنت مخيّراً أيهما شئت جعلته الخبر كما في المعرفتين إذا تساويا فإن كانت احداهما أعم من الأخرى كانت الخبر والأخص الاسم فتقول ما كان أحد مثلك، وما كان مثلُك أحداً وأحدٌ وإن كان أعم من مثل إلا أنه واقع موقع انسان إذ المماثلة في الانسانية لاينفك منها أحد، واذا قلت ماكان مثلُك انساناً أو ماكان خيرٌ منك آدمياً أو أحداً لم يستقم إلا أن تريد به المدح، وادخاله في حيّز الملكية كما قال:

فلست لإنسيّ ولكن لِمَلأَكٍ تنَزّل من جو السماء يُصوّبُ[4]

وقد جاء الاسم في قول الإمام عليه السلام في سياق نفي دال على العموم وهو ما أجاز النحويون في المبتدأ النكرة فضلاً عن أنّه في سياق دعاء لذا

---

(1) المصدر نفسه : 113.

(2) شرح اللمع 60/1.

(3) الصحيفة السجادية 200- 201.

(4) المغني في النحو 54/3 – 55.

جاءت النكرة هنا معروفة فجاز أن تكون اسماً لـ(كان). ومما يذكر أن اسم كان ورد نكرة خبره شبه جملة متقدّمة عليه في نحو قوله ((ولم يكن لك مشاهد ولا نظير))[1]

وجاء خبر كان متقدماً على اسمها في النص نفسه في قوله عليه السلام ((أنت الذي أردت فكان عدلاً ما قضيت، وحكمت فكان نصفاً ما حكمت))[2] وهذا جائز في كان إذ أجاز العلماء أن يكون خبر كان كخبر المبتدأ فيما يجوز له من كونه معرفة ونكرة ومفرداً وجملة ومتقدماً على المسند إليه ومتأخراً عنه [3]

## الجملة في الصحيفة السجادية:

لم تخرج الجملة في الصحيفة عما ورد في الفصيح من كلام العرب سواء في أبنيتها أو دلالتها.

فالجملة الاسمية في استعمالاتها كلها دلت على الثبوت والاستقرار والدوام والحقيقة نحو قوله ((أنت الله الذي لا إله أنت))[4] وهذه حقيقة ثابتة يؤمن بها الإمام وكل مسلم مؤمن بالله. وقوله ((كل جليل عندك صغير، وكل شريف في جنب شرفك حقير))[5] فالله هو الإله الذي لا إله غيره في كل وقت وزمان وجلال الله يتضاءل بإزائه كلّ جليل وشرف الله لا يدانيه شرف. وفي دعاء التذلل يسوق الإمام عدداً من الحقائق الثابتة في سياق الجملة الاسمية ((أنت المولى وأنا العبد) و ( أنت العزيز وأنا الذليل) و ( أنت الخالق وأنا المخلوق) وغيرها من الجمل الاسمية التي سبق الإشارة إليها. ومن ذلك ما يشعر

---

(1) الصحيفة السجادية 197.

(2) المصدر نفسه :197.

(3) شرح الكافية 251/1.

(4) الصحيفة السجادية 123.

(5) المصدر نفسه : 193.

الإمام بأنه هو الحقيقة الثابتة التي لا مراء فيها حين يخلص عشقه لله ويبتعد عن كل مغريات الدنيا ولا يجد فيها شيئاً يستحق الحب والشوق غير وجه الله يقول بصدق ((ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصلُك منى نفسي....))[1] فالتعبير جاء بأبنية الجملة الاسمية لبيان الإيمان المطلق بالحقيقة التي لايعتريها شك . أما الجملة الفعلية التي يسند فيها حدث مقترن بزمن إلى من يقوم بالحدث أو يتلبس به فتكتسب دلالتها من دلالة الفعل على التجدد والتغير والحدوث قال الدكتور مهدي المخزومي ((الجملة الفعلية هي الجملة التي يدل فيه المسند على التجدد، أو التي يتصف فيها المسند إليه بالمسند اتصافاً متجدداً أو بعبارة أوضح هي التي يكون فيها المسند فعلاً لأن الدلالة على التجدد إنما تستمد من الأفعال وحدها))[2] وقد جاءت الجملة الفعلية في الصحيفة السجادية مراعى فيها الاحكام النحوية من حيث البناء والدلالة، حيث يؤنث الفعل لفاعله في حالات الوجوب والجواز ويفرد الفعل مع المفرد والمثنى والجمع وتساير نصوصه الأحكام النحوية في اعراب الفاعل وما ينوب عنه وصيغ الأفعال وحالات اعرابها وبنائها وغير ذلك مما صار معروفاً في الدرس النحوي وسأذكر حالات ربّما تلفت النظر إلى كونها شواهد تعزّز ما ذهب إليه النحويون فضلاً عن الظواهر التي أردت التنبيه عليها في أسلوب الصحيفة السجادية مما يخص الجملة الفعلية وستكون ملاحظي إشارات عابرة، ومنها قوله ((وأطفِ عنه حرارة الشوق))[3] فقد جاء الفعل غير مهموز وهو في القرآن الكريم مهموز في قوله تعالى ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله ﴾ [التوبة32] وقوله تعالى ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ [الصف8] قال ابن السكيت ((وقد

(1) المصدر نفسه : 293.
(2) في النحو العربي نقد وتوجيه 41.
(3) الصحيفة السجادية 124.

أطفأت المصباح وقد طفِئ المصباح يطفأ طفوءً ))[1] غير أن الإمام سهّل الهمزة وجعلها ياءً ثم حذفها للجزم.

وقد طرّز الإمام عليه السلام صحيفته بألوان من الأفعال المتعدّية واللازمة فجاء بها لازمة نحو قوله ((حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان))[2] فالفعل أقف لازم وجاء متعدياً إلى مفعول في قوله (فاتبع دعوته على غير عمي مني))[3] وجاء متعدياً إلى مفعولين نحو قوله ((واجعل ذلك مقبولاً مشكوراً مذكوراً لديك ))[4] غير أن الذي يلفت النظر أن الإمام اتبع أساليب القرآن الكريم في اتصال الفعل بالمفعولين إذا كانا ضميرين وأكثر من ذلك في صحيفته نحو قوله ((واقضِ عني كلّ ما ألزمنتيه وفرضته علي))[5] وقوله (( حتى لا يفوتني استعمال شيء علمتيه، ولا تثقل أركاني عن الحقوق فيما ألهمتيه))[6] وقال (( ولا تمتحني بما لا طاقة لي به فتبهظني مما تحملنيه من فضل محبتك))[7]

وقد تحدث النحويون عن هذا الموضوع طويلاً وفصلوا بين المنصوبين أو المرفوع والمنصوب وما فيه لبس وليس فيه لبس قال ابن الحاجب ((وإذا اجتمع ضميران وليس أحدهما مرفوعاً فإن كان أحدهما أعرف وقدمته فلك الخيار في الثاني نحو أعطيتكه وضربيك وإلا فهو منفصل مثل أعطيته إياك وإياه))[8] وإياه))[8]

---

(1) اصلاح المنطق 149.

(2) الصحيفة السجادية 081.

(3) المصدر نفسه : 81 .

(4) المصدر نفسه : 109.

(5) المصدر نفسه : 105.

(6) المصدر نفسه : 111.

(7) المصدر نفسه : 209.

(8) شرح الكافية 17/2.

وقال ابن عقيل ((فأشار بقوله ((سلنيه)) إلى ما يتعدى إلى مفعولين الثاني منهما ليس خبراً في الأصل وهما ضميران نحو (الدرهم سلنيهِ) فيجوز ذلك في هاء (سلنيه) الاتصال نحو سلنيه والانفصال في سلني إياه وكذلك كل فعل أشبهه نحو الدرهم أعطيتكه، وأعطيتك إيّاه. وظاهر كلام المصنف أنه يجوز في هذه المسألة الانفصال والاتصال على السواء وهو ظاهر كلام سيبويه أن الاتصال فيها واجب وأن الانفصال مخصوص بالشعر))(1)

ويلاحظ أن الضميرين في أمثلة الصحيفة السجادية منصوبان ومثلهما قوله تعالى ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ [هود28] وقوله تعالى ﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ [الحجر22].

إن الفعل (منح) يتعدى إلى مفعولين ليس أصلهما مبتدأ وخبراً غير أنه جاء في الصحيفة السجادية غير متعد بنفسه بل تعدى إلى المفعول الثاني بحرف جر نحو قوله ((ولا تمنحني بما لا طاقة لي به))(2) فلم يقل (ولا تمنحني مالا طاقة لي به) بل جاء متعدياً بالباء وهذا في القرآن الكريم كثير منه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [الفرقان45] وقوله تعالى ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء105] قال الراغب((والروّية والتروية التفكر في الشيء والإمالة بين خواطر النفس في تحصيل الرأي، والمرتئي والمرُوِّي، المتفكر، وإذا عديت رأيت بـ( إلى) اقتضى معنى النظر المؤدي إلى الاعتبار ))(3)

وأورد الإمام الفعل (استعان) متعدياً بنفسه في قوله ((وتعينهم بها على ما استعانوك عليه من بر ))(4) وقد ورد في القرآن الكريم متعدياً بالباء في قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ [البقرة45] والاستعانة طلب العون، واستعمل الإمام حرف الجر الباء مع الفعل (اسأل) في صياغة جميلة تدل على الدعاء قال

(1) شرح ابن عقيل 91/1.
(2) الصحيفة السجادية 209.
(3) مفردات ألفاظ القرآن 375.
(4) الصحيفة السجادية 48.

(أسألك اللهم بأن لك الحمد لا إله إلا أنت أن تصلي على محمد))[1] ولاشك في أن الفعل يتعدى بنفسه وجاءت الباء هنا للاستعانة أي أسألك مستشفعاً بإقراري أن لك الحمد لا إله إلا أنت ) ومثل ذلك استعماله الفعل اعتمد إذ عداه بالحرف (على) في قوله(ولا أعتمد فيه إلا عليك)[2]

واستعمال الإمام لهذا الحرف صحيح فالفعل اعتمد يتعدى بنفسه وبالحرف (على) قال الراغب الأصفهاني (العماد ما يعتمد قال تعالى: ﴿إِرَمَ ذات العماد﴾ [الفجر7] أي الذي كانوا يعتمدون يقال عمدت الشيء اذا أسندته وعمّدت الحائط مثله والعمود خشب تعتمد عليه الخيمة))[3] وهو في ذلك يستند إلى قول الخليل(وعميد القوم سيدهم الذي يعتمدون عليه في الأمور)[4] وهذا موضوع واسع في اللغة لا تحيط به هذه الملاحظات السريعة.

ومن الأحكام التي وقف عندها النحويون دخول (قد) على الفعل المضارع فقد ذكر بعضهم أنها تدل على التقليل وهو لا يطرد في كل النصوص ومنها القرآن الكريم لأنهم ربطوا دلالتها بـ(ربّما) قال المبرد ((وتكون حرفاً جاء لمعنى فإذا كانت كذلك فلها موضعان من الكلام أحدهما: أن تكون لقوم يتوقعون الخبر نحو قولك جاء زيد فيقول لك قد جاء وتقول لما يأت فيقول لك قد أتى وتكون في موضع (ربّما) كقوله

قد أترُكُ القِرنَ مصْفَرّاً أنامِلُه ... كأن أثوابَه مُجّتْ بفرصَادِ

وقوله:

وقد أقودُ أمامَ الخيل سَلْهَبَةً ... يهدي لها نسَبٌ في الحيّ معلومُ [5]

(1) المصدر نفسه : 217.
(2) الصحيفة السجادية : 250.
(3) مفردات ألفاظ القرآن 585.
(4) العين 58/2.
(5) المقتضب 42/1- 43.

وقد ربط عدد من العلماء (ربّما) بالتقليل والتكثير لذا ذكر ابن هشام هذين المعنيين قائلاً المعنى الثالث :التقليل: وهو ضربان:تقليل وقوع الفعل نحو ((قد يصدُقُ الكذوب))وقد يجود البخيل وتقليل متعلقه نحو قوله تعالى: ﴿ قد يعلَمُ ما أنتم عليه ﴾ أي ما هم عليه هو أقل معلوماته سبحانه،وزعم بعضهم أنها في هذه الأمثلة ونحوها للتحقيق وأن التقليل في المثالين الأولين لم يستفد من قد بل من قولك البخيل يجود والكذوب يصدق فأنه إن لم يُحمَل على أن صدور ذلك منهما قليل كان فاسداً إذ آخر الكلام يناقض أوله.

الرابع التكثير قال سيبويه في قول الهذلي :

قد أترك القِرن مصفرّاً أناملُه    كأن أثوابَه مُجّتْ بفرصِاد

وقال الزمخشري في (قد نرى تقلّبَ وجهِكَ) أي ربّما نرى ومعناه تكثير الرؤية [1]

وقد أراد الإمام التحقيق لإسناد الفعل إلى الله في قوله ((فقد ترى ضعفي وقلة حيلتي ))[2] وقوله ((اللهم قد تعلم ما يصلحني))[3] وهو يعرف تمام المعرفة أن الله جلّت قدرته يعلم ما يصلح عباده.

ومن الملاحظ التي تظهر بارزة في الصحيفة السجادية ورود الأفعال المتعدية مستغنية عن مفاعيلها لعدم الاحتياج لذكرها لكونها معروفة ذلك أن المفعولات تذكر إذا كان السامع ينتظر ورودها في الكلام قال الإمام ((أحصيت كلَّ شيءٍ عدداً وجعلتَ لكل شيء أمداً وقدّرت كلَّ شيء تقديرا))[4] فهو يذكر المفعولات تلذذاً وتحبباً لأنها ممّا يملأ نفس العبد إيمانا بقدرة ربّه وعظمته. وحين يجد المقام لا يستدعي ذكر تلك المفعولات يهملها

(1) مغني اللبيب :174/1.
(2) الصحيفة السجادية :253 .
(3) المصدر نفسه : 106.
(4) المصدر نفسه : 198.

نحو قوله ((أنت الذي ابتدأ واخترع واستحدث وابتدع))[1] ذلك أن المهم في الكلام ذكر الحدث وحده وليس ما أحدثه لأنه يعرف أن الله جلّت قدرته هو الذي ابتدأ خلق هذا الكون ولم يسبقه أحد، وهو الذي اخترع الأشياء كلّها واستحدث المحدثات في الكون وابتدع كل جديد ولا أحد غيره لذا لم يذكر الإمام هذه المفعولات وأوضح ابن هشام ذلك في باب بيان انه قد يظن أن الشيء من باب الحذف وليس منه مفسّراً هذه الظاهرة قائلاً ((والتحقيق أن يقال إنّه تارة يتعلق الغرض بالاعلام بمجرد وقوع الفعل من غير تعيين مَن أوقعه أو مَن أوقع عليه فيجاء بمصدره مسنداً إلى فعل كون عام فيقال حصل حريق أو نهب وتارة يتعلق بالإعلام بمجرد ايقاع الفاعل للفعل فيقتصر عليهما ولا يذكر المفعول ولا ينوي إذ المنويّ كالثابت ولا يسمى محذوفاً لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة مالا مفعول له ومنه (ربي الذي يحيي ويميت) و(هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون) و (كلوا واشربوا ولاتسرفوا) و ( إذا رأيت ثمَّ رأيت ) إذ المعنى ربِّي الذي يفعل الإحياء والإماتة وهل يستوي من يتصف بالعلم ومن ينتفي عنه العلم، وأوقعوا الأكل والشرب وذووا الإسراف وإذا حصلت منك رؤية هنالك))[2]

وهذا الاستعمال في أسلوب الصحيفة السجادية كثير منه قوله ((إنْ أعطيته لم تُشب عطاءك بَمنٍّ، وإن منعتِ لم يكن منعك تعدّياً ))[3] وقوله ((وامنن علي بكلّ ما يصلحني في دنياي وآخرتي ما ذكرت منه وما نسيت، أو أظهرت أو أخفيت أو أعلنت أو أسررت))[4]

وقد نبّه العلماء على مجيء الفعل الماضي في جملة الحال مقترناً بقد واختلفوا في ذلك فأوجب بعضهم ذلك وأجازه بعضهم الآخر وضعفه آخرون قال

---

(1) الصحيفة السجادية :198.

(2) مغني اللبيب 612/2.

(3) الصحيفة السجادية 181.

(4) المصدر نفسه : 117.

أبو البركات الأنباري ((وذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضي يجوز أن يقع حالاً وإليه ذهب أبو الحسن الأخفش من البصريين وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز أن يقع حالاً ، أما الكوفيون فاحتجوا بأن قالوا :الدليل على أنه يجوز أن يقع الفعل الماضي حالاً النقل والقياس.))[1]

وحجة الكوفيين في النقل قوله تعالى ((أو جاءوكم حصرت صدورهم))

ويشترط البصريون تقدير (قد) لأنها تقربها من الحال قال ابن هشام عن (قد) ((الثاني:وجوب دخولها عند البصريين إلا الأخفش على الماضي الواقع حالاً إما ظاهرة نحو (ومالنا أنْ لا نقاتلَ في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أو مقدّرة نحو (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) ونحو (أو جاءوكم حَصِرت صدورهم) وخالفهم الكوفيون والأخفش فقالوا :لا تحتاج لذلك لكثرة وقوعها حالاً بدون قدْ والأصل عدم التقدير لاسيما فيما كثر استعماله))[2] وقد ذهب الدكتور خليل بنيان إلى أنّ ((دلالة الحال في هذه الصياغة أظهر من تقدير الشرط لصحة تقدير الفعل الماضي بحال مفردة: اضربه قائماً أو قاعداً أو بحال جملة اضربه وهو قائم وهو قاعد ، وعلى صحة التقديرين فقد جاء الفعل الماضي حالاً في أحدهما دونما موجب لتقدير (قد) ))[3] وقد ورد الفعل الماضي مجرداً من (قد) في قوله ((فرددته لم يشف غيظه، ولم يسكن غليله قد عض على شواه وأدبر مولياً))[4] ففي هذا النص ورد الفعل المضارع مسبوقاً بلم فدلّ على المضي كما عطف عليه فعل ماض مسبوق بقد وآخر غير مسبوق بقد.

أما الفاعل فقد جاء بحسب ما اقتضته العربية الفصيحة من حيث تأنيث الفعل وتذكيره وجواز تقديم المفعول على الفاعل ودخول ما سمّي بالحروف .

---

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين252/1

(2) مغني اللبيب :173/1.

(3) النحويون والقرآن :45.

(4) الصحيفة السجادية :224.

الزائدة على الفاعل ومن الأمثلة على ذلك قوله ((كفى بك جازياً وكفى بك حسيبا))[1] وهو مقتبس من قوله تعالى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء79] حيث عُدّت الباء حرف جر زائد ومثله ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء70] قال الزجاج معناه وكفى الله عليماً والباء مؤكدة المعنى اكتفوا بالله عليما)[2]

ومن أمثلة تأخر الفاعل عن المعمولات ((ثم لم ينهني ذلك عن أن جريت إلى سوء ما عهدت مني))[3] وقوله ((لأنك الأب الكريم الذي لا يتعاظمه غفران الذنب العظيم))[4] وهو كثير في خطاب الإمام.

وثمة ملاحظ على الأساليب التي ألحقها النحويون بالجملة الفعلية كالنداء تحدثنا عنها في شرح لفظة اللهم وتعدد طرائق استعمالها ويلفت النظر هنا دخول الباء على (يا) النداء وهو وإن تأوله النحويون بتقدير محذوف يثير الانتباه ويدعو إلى التأمل وذلك نحو قوله يدعو بيا أرحم الراحمين وبيا أرحم من أنتابه المسترحمون ))[5] وهو عندي كدخول الباء على أن ومعمولاتها نحو قوله عليه السلام ((عالم بأن العفو عن الذنب العظيم لا يتعاظمك))[6] وكدخول ياء النداء على الفعل نحو قول الشاعر

ألا يا اسلمي يا دار ميّة على البلى ولازال منهلاً بجرعاتك القطر

وكدخول يا النداء على ليت كقوله سبحانه وتعالى ﴿ يقول الكافرون ياليتني كنت تراباً ﴾ [النبأ40] وقوله تعالى ﴿ ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ [الفرقان27] وغيرهما من الأساليب التي أخضعها النحويون للتأويل والتقدير لقولهم إن الحرف لا يدخل على الحرف ولا يدخل الحرف المختص

(1) المصدر نفسه : 227.
(2) معاني القرآن واعرابه :74/2.
(3) الصحيفة السجادية :81.
(4) المصدر نفسه :133.
(5) الصحيفة السجادية: 68.
(6) المصدر نفسه : 69.

بالاسم على الفعل، ولا المختص بالفعل على الاسم وتلك مقولة فيها نظر لأن الاستعمال القرآني دحضها وأثبت عكسها لذا أرى استعمال الإمام مثل هذه الحروف في غير مايراه النحويون في مثل هذه الاستعمالات قد جرى على أساليب القرآن وينبغي وصف الظاهرة من غير تقدير

وفي أسلوب الاستثناء دخل لفظان من الألفاظ التي قالوا إنها للاستثناء هي غير وحاشا في جملة واحدة في قوله ((ليس لحاجتي مطلب سواك ولا لذنبي غافر غيرك حاشاك ولا أخاف على نفسي إلا إياك))[1]

فقد اجتمع (غير) و (حاشا) معاً، وأعتقد أن حاشا هنا لا تفيد الاستثناء بل تفيد التنزيه كما قال تعالى (حاش لله) [يوسف31] والدليل على ذلك أنه وضع أداة واحدة للاستثناء في الجمل المصاحبة لهذه الجملة هي (سوى) أو (إلا) والمعنى (لا يكون لذنبي غافر غيرك حاشا لله أن يغفر الذنب أحد غيرك ) لأن الاستثناء يكون بأداة واحدة إلا إذا كررت. ومنها أدوات الاستثناء التي قل سماعها في الأساليب المعهودة وهي (دون) إذ كان الجزء الأول من مناجاة المفتقرين زاخراً بالاستثناء المفرّغ بدأه بقوله ((إلهي كسري لا يجبره إلا لطفك ... وحاجتي لا يقضيها غيرك، وكرمي لايفرّجه سوى رحمتك...ثم قال.. وقراري لا يقرّ دون دنوّي منك))[2]

جعل (دون) مثل (غير) و (سوى) و (إلا) والمعنى: قراري لا يقر إلا بدنوي منك وجاء اسم الفعل (هيهات)وما بعده (ما) الدالة على النفي في الصحيفة السجادية مما يدل على أن الإمام لم يسند هيهات إلى فاعل فالإمام يتساءل في حديثه عن والديه عليهما السلام باستفهام انكاري ((أين إذن يا إلهي طول شغلهما بتربيتي ...مكرراً أين واين .. حتى يقول ((هيهات ما يستوفيان مني

(1) المصدر نفسه : 70.

(2) الصحيفة السجادية :300.

حقهما ولا أُدرك مايجب علي لهما))[1] فاسم الفعل لم يسند إلى فاعل كما قال الشاعر

فهيهات هيهات العقيقُ ومن به وهيهات خلٌّ بالعقيق

فالعقيق فاعل (هيهات)

واستعمال الإمام له مايناظره في الكلام العربي قال الشاعر

ها أنذا آمُلُ الحياةَ وقد أدركَ عقلي ومولدي حُجراً

أبا امرئ القيس، هل سمعتَ به هيهاتَ هيهاتَ طال ذا عُمُرا [2]

وخلاصة القول في هذا المقام أن الإمام كان بليغاً وفصيحاً يضع الألفاظ في مواضعها الصحيحة، ويستعمل الكلمة في مكانها المناسب من الجملة بحسب المعاني المقصودة متخذاً الأساليب القرآنية مثلاً أعلى يحتذى به في سلامة التعبير ودقة الاختيار، وصحة التأليف، حتى تكاد الصحيفة تكون شواهد حيّة للأحكام النحوية المطردة المتفق على صحتها فلا تجد خطأ في بناء الجملة ولا خللاً في تأليفها بل تجد سمطاً من اللآلي في نظم جميل

## اختيار الألفاظ:

لقد وصف العلماء النظم بأنه وضع الألفاظ في مواضعها وحسن ائتلاف اللفظ مع اللفظ قال الخطابي ((وأمّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة، والحذق فيها أكثر، لأنها لجام الألفاظ، وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه مع بعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان))[3] وقال العسكري (( وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها))[4]

---

(1) المصدر نفسه : 113.

(2) المقتضب :183/3.

(3) بيان اعجاز القرآن 33.

(4) الصناعتين161.

وحين يقرأ المرء في الصحيفة السجادية يجد الألفاظ منتقاة بدقة متناهية يستند اللفظ فيها إلى ما يناسبه للتعبير عن المعنى المقصود وتلك موهبة منحها الله للإمام عليه السلام كما منحها لآبائه وأبنائه لأن صياغة النصوص الفصيحة الخالدة لا يستطيعها كل إنسان إلا من أوتي الفصاحة والبلاغة، وقد تنبه على ذلك النقاد في تمييزهم بين الشعراء والأدباء قال الآمدي في أسس الحكم على جودة الشعر ((ولم يتوقف عن الحكم له على ما سواه حتى يرجع إلى من هو أعلم منه بألفاظه، واستواء نظمه وصحة سبكه، ووضع الكلام منه في مواضعه، وكثرة مائه ورونقه إذ كان الشعر لا يحكم له بالجودة إلا بأن تجتمع هذه الخلال فيه))[1] وتحدث الجرجاني عن دقة نظم الألفاظ وائتلافها قائلاً ((وهل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا لفظة متمكنة ومقبولة وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوّ من سوء التلاؤم، وأنّ الأولى لم تلق بالثانية في معناها وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤداها، وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالى ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك، ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً للقوم الظالمين** ﴾ فتجلى لك منها الإعجاز وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ماوجدت من المزيّة الظاهرة والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تستقريها إلى آخرها وأن الفضل تناتج مابينها وحصل من مجموعها))[2]

---

(1) الموازنة 373- 374.

(2) دلائل الاعجاز 36- 37.

وما ذكرته من آراء في أهمية اختيار اللفظة الفصيحة ومجانستها للفظة الأخرى في التئام ينم على إحساس بقيمة البناء اللغوي السليم المعبّر عن المعاني تجده مجسداً في نظم عبارات الصحيفة السجادية وجملها ونصوصها التي تتميز بنسيج لغوي خاص يحتذي حذو النسج القرآني لكن النسج القرآني نسج رباني معجز ونسج الصحيفة يقتبس من القرآن الكريم ويحذو حذوه ويستفيد من طرائق نظمه وإن كان لا يرقى إلى النص القرآني لأن ذلك من المحال، غير أني أقول بصدق أن هذا النظم لو وازناه بما ينظمه البشر لوجدناه متميزاً لا يتأتى لأيّ كاتب إلا مَن أوتر موهبة في التعبير ولو تأملت قول الإمام وهو يناجي ربه يناجي ربه مناجاة الراغبين ((إلهي استشفعت بك إليك، واستجرت بك منك أتيتك طامعاً في إحسانك، راغباً في امتنانك، مستسقياً وابل طولك، مستمطراً غمام فضلك طالباً مرضاتك، قاصداً جنابك، وارداً شريعة رفدك، ملتمساً سني الخيرات من عندك، وافداً إلى حضرة جمالك، مريداً وجهك، طارقاً بابك، مستكيناً لعظمتك وجلالك، فافعل بي ما أنت أهله من المغفرة والرحمة ولا تفعل بي ما أنا أهله من العذاب والنقمة))[1] لوجدت أن كل اسم وكل فعل وكل حرف قد وضع في موضعه، والتصق بما يجانسه، وتعلق بما يرتبط به، ولن تجد لفظة تنبو عن أختها، ولا كلمة تستوحش بالتي تجاورها، فانظر إلى الفعل (استشفع) قد لحقه حرفان هما (الباء وإلى) والاستشفاع طلب الشفاعة والشفاعة هي (الانضمام إلى آخر ناصراً له، وسائلاً عنه، واكثر ماتستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو أدنى، ومنه الشفاعة في القيامة قال تعالى ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ [مريم87] ﴿ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ [طه109] ...أي من انضم إلى غيره وعاونه وصار شفعاً له أو شفيعاً في فعل الخير والشر فعاونه وقواه...واستشفعت بفلان على فلان فتشفع لي وشفعه أجاب شفاعته))[2]

(1) الصحيفة السجادية 285- 286.

(2) مفردات ألفاظ القرآن 457- 458

والمعروف أن من يطلب الشفاعة يتوجه إلى شخص ليكون شفيعاً على آخر لكنّ صياغة الإمام جعلت الشفيع هو المشفوع فالإمام يستشفع برب العالمين ليكون هو شفيعه عنده وتلك صياغة دقيقة قرنها بصياغة مشابهة في قوله عاطفاً على تلك الجملة (واستجرت بك منك)والاستجارة طلب الحماية من آخر وهو مأخوذ من لفظة الجار الذي يقرب مسكنه منك، فالذي يستجير يطلب القرب والحماية من المجير وكما صاغ الجملة الأولى باختيار حرفين مناسبين اختار لهذا الفعل حرفين يتعلقان بهذا الفعل هما (الباء ومن) والمعنى أني أطلب حمايتي وإجارتي وأرجو أن تكون مجيري ولكن ممَّ يستجير؟ والجواب يستجير بالله من عقارب جهنم ثم انظر في الفعل (أتيتك) تجده يحمل كلّ المعاني الروحانية فهو ليس بمعنى الإتيان المعروف بل هو الإقبال بكل جوارحه أو كما عبّر عنه في قول آخر ((فها أنا ذا يا إلهي واقف بباب عزّك وقوف المستسلم الذليل وسائلك على الحياء مني سؤال البائس المعيل))[1] أو كما قال ((فقام إليك بقلب طاهر نقي ثم دعاك بصوت حائل خفي قد تطأطأ لك فانحنى، ونكس رأسه فانثنى، قد أرعشت خشيته رجليه وغرقت دموعه خدّيه))[2]

فالإمام يأتي ربّه إتيان العبد الخاشع العارف بجلال من يقف بين يديه ويورد أحوال إتيانه وتوجهه إلى من وصف نفسه بالرحمة فهو الرحمن الرحيم وسعت رحمته كلّ شيء وأول هذه الأحوال قوله (طامعاً في إحسانك) والطمع ((نزوع النفس إلى الشيء شهوة له، طمِعتُ أطمَع طمعاً وطماعية فهو طمِعٌ وطامع قال تعالى ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربُّنا﴾[الشعراء51])[3]

وطمع الإمام ليس شهوة في مالٍ ولاجاه ولا لذّات بل هو طمع في نيل مرضاة الله وهذا ما فسره في قوله اللاحق (طالباً مرضاتك) وهو طلب عظيم

(1) الصحيفة السجادية 67. .

(2) المصدر نفسه : 68.

(3) مفردات ألفاظ القرآن 524.

لأن مرضاة الله تدل على حسن أداء المرء عمله وسلوكه بحسب ما يريده الله ورسولُه، لذا جاءت الأحوال الأخرى متناسقة ومتقاربة في إكمال المعنى الأساسي، ومن يدقق في علاقة كل اسم من الأسماء الواقعة أحوالا بما ارتبط به يكتشف أن (طامعاً) و (راغباً) و(مستسقياً) و (مستمطراً) و (طالباً) و (قاصداً) و (وارداً) و (ملتمساً) و (وافداً) و (مريداً) و (طارقاً) و (مستكيناً) قد ارتبط بما يتعلق به ارتباطاً وثيقاً لاختصاصه به سواء أكان من حروف الجر أو المفعولات التي وقعت عليها احداث تلك الأسماء فسوف تجد:

1- تعلق (في) بـ (طامعاً) وهو الحرف الذي يناسب هذا الفعل قال الخليل((والمطمع ما طمعت فيه))

2- تعدى مستسقياً ومستمطراً إلى مفعوليهما، فالأول تعدى إلى(وابل طولك) والثاني الى (غمام فضلك)والوابل المطر الذي يستسقى به والغمام الذي يهطل مطراً والوابل هو المطر الثقيل القطار، قال تعالى (فأصابه وابل)[البقرة 264] فالمفعولان متناظران ومتناسبان مع اسمي الفاعل اللذين تعديا إليهما.

3- تعدى اسم الفاعل (طالباً) إلى مرضاتك، و (قاصداً) إلى جنابك والفعل طلب أي سأل، والسائل يقصد المسؤول فمن طلب مرضاة الله فقد قصد القرب من جنابه.

4- تعدى (وارداً) إلى شريعة رفدك، و (ملتمساً) إلى سني الخيرات من عندك وقد تختلف دلالة (ورد) عن دلالة التمس في الافراد غير أنّ الاستعمال المجازي يجعلهما متقاربين ذلك الوارد قاصدٌ الماء والقاصد متجه إلى الماء وغيره والالتماس هو الطلب، وسواء أكان وارداً شريعة رفد ربّه، أو ملتمساً سنيّ الخيرات من عنده فهو يرجو عطاءه ويأمل وسيلة لذلك، وشريعة الرفد أو سني الخيرات هي من جود الله وكرمه لذا صب المعنيان في مجرى واحد.

5- تعلق حرف الجر (إلى) باسم الفاعل (وافداً) وتعدى (مريداً) إلى وجهك و (طارقاً) إلى (بابك) وتعلق إلى بـ(وافداً) دقيق الاستعمال قال الخليل ((واحد الوَفْد

وافِد، وهو الذي يفِدُ عن قوم إلى ملك في فتح أو قضية أو أمر والقوم أوفدوه))[1]

أمّا مريداً وجهك وطارقاً بابك فالترابط بين الوجه الرباني ومن يريد رؤيته، وباب الله ومن يرغب في طرقه وثيق العرى لأننا جميعاً نتجه بكل جوارحنا إلى الله نريد وجهه الكريم، ونطرق باب رحمته في كلّ يوم.

وربما أخذ المتصوفون من عبارات سيد الزاهدين وإمام الساجدين علي بن الحسين ، كما أخذوا ألفاظاً أخرى.

ألا ترى معي هذا التدرّج في وضع المعاني بعضها مع بعض والتسلسل في دلالتها من الطمع والرغبة إلى طرق باب رحمة الله والتماس الوفادة إليه، والنظر إلى كلّ حال من هذه الأحوال تجدها على صيغة اسم الفاعل وهو المشتق الدال على الحدث والذات، وقد أشترط النحويون أن تكون الحال وصفاً أي مشتقاً ونكرة منونة دالة على الاستقبال [2] وما يطمع به الإمام أمنية تراود نفسه ويرغب في تحقيقها لذا صاغها بالصيغة الدالة على الاستقبال.

ولو انتقلنا إلى نص آخر من الصحيفة السجادية لوجدنا ديباجة مرصعة بما يسر الناظر ويثلج الصدر، ويثري العقل، ويفرح القلب، ولوجدنا كل لفظة وضعت في جنب أختها الملائمة لها، وكل جملة متناسقة مع الجمل الأخرى حتى تصل إلى القصد المراد بأيسر الوسائل وأقصر الطرائق، ويتضح ذلك جلياً في ألفاظ (مناجاة الشاكرين ) وجملها، وهي مناجاة تزخر بفنون التعبير البليغ، ونفائس الألفاظ المعبّرة عن أدق المعاني، وهي لوحة فنية يعجز الوصف عن استيفاء خصائصها وملامحها وطرائق التعبير عن المعاني فيها تبدأ بعبارات جميلة نادرة البناء ((إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك، وأعجزني عن

(1) العين 80/8.

(2) ينظر: قطر الندى وبل الصدى 124/2 – 127.

إحصاء ثنائك فيض فضلك، وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك، وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك))[1]

ومعنى هذه المقدمة البليغة التي استهل بها الإمام لوحته يجسّد العجز عن استيفاء آيات الشكر لله – سبحانه وتعالى – لكثرة نعمه عليه غير أن الإمام حشد ألفاظاً متقاربة لتكون أفواهاً ناطقة بالشكر لله ومعبّرة عن عجز الإنسان الضعيف عن الوفاء لأيادي الله، فلو استعرضت الألفاظ الدالة عن عجز الإنسان لوجدتها (أذهلتني ، أعجزتني ، شغلني ، أعياني) يوردها الإمام وإن اختلفت في دقائق معانيها لتعبّر عن معنى واحد هو التعويق والعجز عن أداء الشكر. فسواء أأُصيب الإنسان بالذهول أو العجز لضعف في الإدراك ، أو شغلته كثرة النعم وترادفها حتى أصيب بالإعياء فلا يدري ماذا يفعل، أو أنه لكثرة هذه العوائق صار كالمتعب الذي لا يقوى على فعل شيء، وقد يقول أحدهم إنّ الإمام لم يكن يملك ثروات قارون، ولا ملك سليمان ولا قوة ذي القرنين ليستوجب منه مثل هذا الاحساس بالعجز عن الشكر، بل كان قليل المال وقليل العدد والعدة مما يحسبه الناس غنى وقوة ؟ والجواب سهل لمن عرف إيمان الإمام السجاد وتقواه وسيرته، فهو لا ينظر إلى هذه الأمور إلا نظرة من يريد سدّ رمقه، وغناه يتراءى له في أنْ هداه الله إلى الإيمان وإكساء العراة، وغناه في رضى الله عنه، وعصمته من الذنوب، وتمكينه من العلم، وتعليم الناس ما يهمهم في دنياهم وآخرتهم، ومساعدتهم على قول الحق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما يرضي الله، وتلك هي النعم التي يرى الإمام أنّها أكثر من أن تحصى وأنّ تواليها وتعاقبها وتكاثرها يعجزه عن إحصاء الثناء، ويذهله عن إقامة الشكر لها ولو أحصينا حروف الجر بعد هذه الأفعال، ونظرنا في كل حرف منها لوجدنا ذلك الحرف مناسباً للفعل الذي تعلق به، ولألفيناها جميعاً متقاربة في الدلالة إذ تدل على الإحاطة بفضل الله ونعمه وآلائه لأنها أضافت الأحداث إلى ما يناسب الفعل من ألفاظ هي (إقامة

(1) الصحيفة السجادية: 287.

شكرك) و (إحصاء ثنائك) و (ذكر محامدك) و (نشر عوارفك) فالشكر مرادف للثناء، والمحامد مرادفة للعوارف، لذا جعل الإمام لفظ الشكر مقروناً بإقامته أي تقديمه وعرضه، ولفظ الثناء مقروناً باحصائه وهو الجمع والإحاطة، أما المحامد فقد قرنها بالذكر لأن الذكر والإعلان مرادفان لمعاني النشر والإشاعة. والمحامد والعوارف هي مما أسبغ الله بها على الإنسان. وهذا الترابط بين المعاني قاد إلى اختيار ألفاظ متقاربة في المعنى والبناء، ألا ترى إلى بناء إقامة، وإحصاء وهما على وزن (إفعال) حذف من الأول العين وعوّض عنه بالتاء، وبناء ذكر ونشر واحد هو (فعل)، أما شكر وثناء فكل منهما مصدر مع فوارق يسيرة في بناء كل منهما، ومحامد وعوارف جاءتا على صيغة منتهى الجموع.

أمّا فاعل كل فعل من هذه الأفعال فقد عبّر عن معنى كثرة نِعَم الله وازديادها وتوافرها، فانظر إلى (تتابع طولك) و (فيض فضلك) و (ترادف عوائدك) و (توالي أياديك) تجد أنّ الذي أدى إلى عجز الإمام عن احصاء الشكر ونشره، هو هذا التدفق في النعم فعبّر عنها بهذه العبارات الجميلة المتناسقة. وتكاد هذه الألفاظ أن تكون مترادفة لأن (تتابع وترادف وتوالي) هي بمعنى واحد أما لفظة (فيض) فلا تبعد في معناها عن تلك الألفاظ لأن الفيض يعني تدفق المياه وطغيانها فهي أمواج تتوالى وتترادف وكذلك الأمر في الألفاظ التي أضيف إليها فاعل كل فعل، فكل منها مقارب في معناه للمضاف اللآخر والمضاف إليه مقارب لنظيره في البناء والدلالة فالمضاف يدل على معان متقاربة كما قلت قال الراغب ((وأتبعه إذا لحقه قال تعالى: ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ [الشعراء60] ﴿ ثم اتبع سببا ﴾[الكهف89] ﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ [القصص42]))[1] ومعلوم أن المضاف إليه كالجزء من المضاف لذا يكمل المضاف إليه معنى المضاف، ومع ذلك فقد جاءت لفظتا الشكر والثناء متناسبتين مع (الإقامة) و (الإحصاء) وكذلك المحامد

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن 163.

والعوارف جاءتا متناسبتين مع (الذكر) و (النشر) ، ومن المفيد أن أذكر أن المحامد والعوارف أسباب للشكر والثناء لذا جاءت الألفاظ مترابطة بعلاقات الترادف والسببية. فاللوحة الأولى من هذه الديباجة ألفاظ متجانسة ومختارة وضع كلّ منها في جنب مقاربه، أو مقتضيه، لا تنافر بينها سواء في البنية أم الدلالة أم النوع.

ونكمل هذه اللوحة في تلك الديباجة بمقابلة بين العبارات الدالة على تقصير العبد المذنب، والإله المكرم، وفيها طرّزت الألفاظ في أجمل وشي، قال الإمام ((وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء، وقابلها بالتقصير وشهد على نفسه بالإهمال والتضييع، وأنت الرؤوف الرحيم، البّر الكريم الذي لا يخيّب قاصديه ولا يطرد عن فنائه آمليه، بساحتك تحط رحال الراجين، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين فلا تقابل آمالنا بالتخييب والإيئاس، ولاتلبسنا سربال القنوط والابلاس [1] والمقام في هذه اللوحة الموقف الذي يكون عليه المعترف بسبوغ النعماء، وهو تعبير جميل، لم يقل الإمام أعترف بسبوغ النعماء، بل أشار إلى مقامه وحاله التي يكون عليها حين يعترف بسبوغ النعمة أي اتساعها وتمامها لأن هذه اللفظة مأخوذة من قولهم درع سابغ تام واسع ومنه قوله تعالى ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ ثم تطورت اللفظة مجازياً فأخذ منها مسبوغ النعم ومثلها قوله تعالى ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ [القمان20][2]

غير أن المرء قد يقابل هذه النعم بالتقصير بدلاً من شكرها، وحاشا للإمام زين العابدين، وإمام الزاهدين أن يقابل نعم الله بالتقصير، بل أراد أن يرشد الناس ويعلّمهم كيف يشكرون النعم. ولفظة النعماء هي النعمة قال الجوهري ((النعمة اليد والصنيعة والمنّة، وما أنعم به عليك وكذا النُّعمى فإن فتحت النون مددت فقلت النعماء))[3] ترى كيف يكون مقام من يعلم أنّ نعم

(1) الصحيفة السجادية 287- 288.
(2) ينظر مفردات ألفاظ القرآن 395.
(3) المختار من الصحاح 529.

الله عليه تامة واسعة لكنه يجحدها ويقابلها بالتقصير، لذال أحسّ بأن إضافة سبوغ إلى النعماء وليس إلى النعمة إنما جاء لرغبة الإمام في مدّ الصوت بلفظة النعماء ليدل على كثرتها وتمامها واتساعها.

ومقام من شهد على نفسه بالاهمال والتضييع وهو توكيد لمعنى التقصير لأن من يهمل هذه المنح السنّية، والعطايا الإلهية، مقصر ومهمل ضيّع نفسه في مشاغل الحياة الدنيا ولم يغتنم هذه العطايا ليقابلها بالشكر و الامتنان وذلك باتباع شريعة الله. والعلاقة بين ألفاظ (التقصير ، الإهمال ، والتضييع)، التي عبّرت عن مقام من لم يشكر تلك النعم واضحة قال الجوهري (التقصير في الأمر التواني فيه)[1] أما الإهمال فهو مصدر أهمل قال ابن السكيت ((وتقول همَلَتِ الإبلُ فهي هاملة وهوامل، وقد أهملتُها أنا ، إذا أرسلتها ترعى ليلاً ونهاراً بلا راع))[2]

أما التضييع فمن الفعل (ضيع) قال الخليل ((وضاع عيال فلان ضيعةً وضياعاً ، وتركهم بمضيعَة وبمضيقة ، وأضاع الرجل عيالَه وضيّعهم إضاعة وتضييعا فهو مُضيعٌ ومضيّع))[3] وقال الجوهري ((وضاع الشيء يضيع ضياعاً وضَياعاً – بكسر الضاد وفتحها – أي هلك – والاضاعة والتضييع بمعنى ))[4]

ومن هذا يتضح أن التقصير والإهمال والتضييع تصبّ في معنى واحد ، وهذا المقام الذي يقف فيه المتلبس بهذه الأفعال يختلف عن مقام المنعم الواهب المكرم الجبار القادر لذا يرسم الإمام لهذا المقام هالة قدسية غير تلك التي رسمها لمن قصّر في الشكر وأهمل النعم وضيّع المنحة التي وهبها الله له قال ((وأنت الرؤوف الرحيم البّر الكريم)) وتلك من صفات الله وأسمائه الحسنى فهو رؤوف بعباده المقصرين المهملين يرأف بحالهم ويرحمهم، ولولا رحمته لهلك

(1) المختار من الصحاح :424.

(2) إصلاح المنطق 327.

(3) العين 195/2.

(4) المختار من الصحاح 305.

الناس أجمعون، وهو الذي يبّر بعباده كما يبّر الوالد بولده والأم برضيعها والولد بوالده الكبير في سنه وأمه العجوز وقد وصف الله نفسه بذلك في قوله ﴿ إنّه هو البّر الرحيم))[الطور28] فهو يثيب عباده ببرهم وقد وصف الله نبيه عيسى بالبر في قوله تعالى ﴿ وبرّاً بوالدتي ﴾ [مريم32]، وهو كريم يكرم من شكر ومن لم يشكر وقد وصف الإمام عظمة هذا الكرم الإلهي ((الذي لا يخيّب قاصديه ولا يطرد عن فنائه آمليه)) وهو جلّت قدرته يجيب دعوة الداعي إذا دعاه لذا قال الإمام (لا يخيّب قاصديه) قال تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعِ ﴾ [البقرة186] فهو (لايطرد عن فنائه آمليه) ومن لا يخيّب قاصديه لا يطرد من التجأ إلى ساحة رحمته مؤملاً نوال عطائه.

وقد التفت الإمام باسلوب (الالتفات) الجميل بعد أن كان يتحدث بضمير الغيبة ليخاطب الله جل وعلا ((بساحتك تحطّ رحال الراجين، وبعرصتك تقف آمال المسترفدين) ولله درّ من أبدع هذا النسج الجميل ما أجمل ما صور وما وصف حين جعلنا نتأمل في صورة مَن شد رحاله واتجه إلى ربّه في رحلة رجاء وأمل يطلب فيها أن ينال عطاء الله، وبعد رحلة السعي المضنية يحط رحاله في ساحة رحمة الله، وهي ساحة واسعة تشمل الكون كلّه لتكون مراحاً تنيخ فيه آمال الراجين عطاء الله حيث تمدّ الأيادي وتتوجه الأبصار وترتجف الفرائص وتسمع وجيب القلوب في تلك الساحة. وزاد الإمام في جمال الصورة فجعل الآمال المسافرة إلى فِناء الله تقف كما يقف البشر بين يدي ربّهم ترجوه أن يسعف المسترفدين فأعطى الإمام (الرحال) و (الآمال) روحاً وجعلها تحط في ساحات الله وعرصاته التي يقصدها (الراجون) و (المسترفدون) وتلك وأيم الله مجانسة دقيقة بين (الساحة والعرصة) وكل منهما مقدم في الكلام لإثارة اهتمام السامعين إلى عظمة صاحب هذه الساحة والعرصة، وهي مواءمة جميلة بين ( الرحالِ والآمال) و (الراجين والمسترفدين) وقد أضيف كل من هذه الألفاظ إلى ما يجانسه ويناسبه فأضيفت (الرحال) (للراجين) الذين ملأ الرجاء قلوبهم والرحال ((جمع الرحل وهو ما يوضع على

البعير للركوب ثم يعبّر به تارة عن البعير))[1] قال تعالى ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف62] وأضيفت الآمال إلى (المسترفدين) الذين يطلبون الرفد ممن حلّوا بعرصته، وسواء أحطت الرحال أم وقفت الآمال في ساحة الله وعرصته فإن المراد مَن شدوا الرحال وعقدوا الآمال وهم عباد الله الذين يصبحون ويمسون على أعتاب رحمته يرجون عطاءه، ويدعونه ألاّ يخيب آمالهم بالإيئاس ولايلبسهم سربال القنوط والابلاس ولو أنعمت النظر في قوله عليه السلام (ولاتلبسنا سربال القنوط والابلاس) لوجدتها صورة متخيّلة لمن هو واقف في ساحة الله يرجو عطاءه آملاً نواله، داعياً ربه ألا يلبسه ثوب اليأس والقنوط لأن الابلاس من رحمة الله هو اليأس منها وهو الانكسار والحزن، و (الالباس) جاء مجازاً لأن الله لايلبس البشر بمعنى الاكساء أو التغطية والستر بل جاء الصورة البيانية (تلبسنا سربال القنوط) لتجسد معنى (تنزل في قلوبنا القنوط) لأن القنوط لايلبس وليس له سربال، بل السربال للانسان.

واللوحة الثانية تكمل اللوحة الأولى لأنها وصف لنعم الله وآلائه يبدأ المقطع الأول منها بقوله ((إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب اكرامك إياي ثنائي ونشري))[2]

فالفعل (تصاغر) يدل على استمرار المعنى في الصغر أي أنه يصغر شيئاً فشيئاً قال الخليل ((وتصاغرت إليه نفسه ذلاً ومهانة ))[3] فشكر العبد بإزاء آلاء ربه قد تضاءل وهان وقلّ، وصيغة (تصاغر) (تفاعل) جاءت في النص بإزاء المصدر (تعاظُم) من الفعل (تعاظَمَ) (تفاعَل)، وجاء مصدراً لاظهار حقيقة ثابتة هي كثرة الآلاء وتعاظمها وازديادها، لذا سبق هذا المصدر الظرف (عند) ليكون التصاغر مستمراً في باحة هذا الكم العظيم من الشكر الذي يربو وينمو، والفعل (تصاغر) لا يدل على مجرد حدوث معنى بل يدل على استمرار

(1) مفردات ألفاظ القرآن 247.

(2) الصحيفة السجادية 288.

(3) العين 372/4.

هذا الحدث ولو أراد معنى المضيّ لقال (صغر) ولم يقل تصاغر الدال على الامتداد والتضاؤل، وجاء الفعل الآخر ليقاربه في المعنى ويساويه في البنية (تضاءل) وهو يدل على استمرار التقليل يقال رجل ضئيل الجسم إذا كان صغير الجسم نحيفاً. فالفعلان متقاربان في دلالالتهما على القلة والصغر.

وقد جاء الظرف (عند) مقابل الظرف (جنب) وجاء (آلاؤك) مقابل (إكرامك) و(شكري) بازاء (ثنائي ونشري) وكل متقابلين متقاربان في المعنى وكأن هذه الألفاظ رصفت رصفاً، وصُفّت صفّاً.

وما يلفت النظر في هذا البناء الجميل هي الروح التي منحها الإمام لهذه الألفاظ وكأنك تراها تتحرك فالشكر (يتصاغر) شيئاً فشيئاً، والبناء يتضاءل شيئاً فشيئاً، وترى الشكر والثناء يصيبهما الخجل والشعور بالذنب ويتقلص كل منهما ويصغر، وهو يرى تعاظم الآلاء والنعم، كما ترى هذه النعم تكثر وتتكاثر وتزداد فتغدو كمّاً هائلاً يقف بإزائه الشكر صغيراً متضائلاً، وهذه الروح التي منحها الإمام لهذه الألفاظ تحرك في نفس المخاطب الشعور بالذنب والتقصير تجاه ما أنعم الله به علينا، لأننا لا ندرك كثيراً من هذه النعم فلا نعرف نعمة السمع أو البصر ولا نعرف نعمة الأرجل والأيدي ولا نعرف نعمة العقل ولا سلامة الأعضاء والأحشاء الأخرى حتى نفقد أحدها، ولا يدرك المرء نعم الله المحيطة به من هواء يتنفسه أو ضغط متعادل يريح الأبدان، أو ماء يجري فيملأ حياتنا خصباً ونماءً، فما صوّره الإمام من تعاظم تلك النعم حقيقة تنمو وتزداد بزيادة الأموال والبنين والجاه والقوة وغير ذلك لمن يعدها أساس سعادته، وزيادة الإيمان والتقوى وقول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمن يعدّ ذلك أساس سعادته، وكل ذلك من نعم الله لذا تتضاءل آيات الشكر مهما كثرت بإزاء هذا الكم من الآلاء.

والإمام لا يرى المال والجاه والقوة مطمحاً له بل يطمح إلى الإيمان والقوى قال ((جللتني نعمك من أنوار الايمان خُللاً حُللاً، وضربت عليّ لطائف برّك من العزّ كللاً وقلدتني منك قلائد لا تحلّ، وطوقتني أطواقاً لا تفلّ))[1]

فالفعل (جلّلتني) مسند إلى النعم، والتجليل معناه الإلباس مجازاً لأن هذا الفعل قد تطوّر مما تجلّ به الدابة، إلى الدلالة على التعظيم قال ابن السكيت (الجُلّ: جُلّ الدابة ))[2] وقال ((قال أبو يوسف: وحكى لي ابن الاعرابي : أتيت فلاناً فما أجلّني ولا أحشاني أي ما أعطاني جليلة ولا حاشية والحواشي:صغار الإبل))[3] وربما تطورت لفظة الجَلل التي يراد بها الثياب من الجَلال وليس من جُلّ الدابة.

ومال الإمام بالعبارة الأخرى إلى البيان أكثر مما في الأولى فقال عليه السلام (( وضربتْ عليّ لطائف برّك من العزّ كللاً ) والكلل واحدتها الكلة وهي الستر الرقيق يخاط كالبيت يُتوقى فيه من البق ))[4] ولطائف جمع لَطَفة وهي الهدية واللطف من الله التوفيق والعصمة، ونسبة اللطائف إلى بّر الله إشارة إلى أنّ ما يتمتع به الإنسان من نعم وآلاء هي هدايا من الله ينعم بها على عباده فصوّر هذه اللطائف لكثرة ما تورثه من عزّ يرفع الإنسان بين الناس في العلم والإيمان والتقوى والاستقامة والعدل، لا بالجند والقسر والجبروت، كأنها ضربت كللاً ينعم بها الانسان تعصمه من كل أذى، وهذه الصورة ربما أوحت إلى الشاعر الذي تناقلت كتب البلاغة بيته باعجاب في باب الكناية.

إنّ السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضُربت على ابن الحشرج

وعدو ذلك من الكناية التي يراد بها نسبة أمر إلى آخر اثباتاً ونفياً فيكون المكنى عنه نسبة أُسندت إلى ماله اتصال به قال أحمد الهاشمي في

(1) الصحيفة السجادية 288.

(2) اصلاح المنطق 128.

(3) المصدر نفسه 384 .

(4) المختار من الصحاح 456 (كلل)

هذا البيت ((فإن جعل هذه الأشياء الثلاثة في مكانه المختص به يستلزم اثباته له والكناية المطلوب بها نسبة))[1] فالإمام قال (إن لطائف بر الله ضربت علي كللاً ) وقال الشاعر (إن السماحة والمروءة والندى ضربت على ابن الحشرج قبة أو في قبة ضربت عليه) والصورة الثانية لاشك أنها مأخوذة من الأولى

وقد جاء حديث الإمام بعد ذلك مؤكداً هذا المعنى في قوله((وقلدتني منك قلائد لاتحل))[2] فلطائف برّ الله هي التي قلدت الإمام قلائد لا تحلّ، و(القلد) الفتل، يقال قلَدْت الحبل فهو قليد ومقلود، والقلادة:المفتولة التي تجعل في العنق من خيط وفضه وغيرها، وبها شُبّه كل ما يُطَوق وكل ما يحيط بشيء))[3] وما طوّق عنق الإمام من فضل هو من الله، ويفهم ذلك من حرف الجر (من) الداخل على الضمير العائد على الله سبحانه وتعالى وقد وصف الإمام هذه القلائد بأنها لا تفلّ أي لا يُفكّ وثاقها، لذا يكون الشكر والثناء متضائلاً لا يستطيع فك هذه القلائد والأطواق، وانظر إلى المواءمة الجميلة بين تلك العبارة والعبارة الأخرى (وطوقتني أطواقاً لاتُفَلّ) لذا تناسبت الأفعال والأسماء (قلدتني وطوقتني) و (قلائد وأطواق) و (تحلّ وتُفَلّ) فالفعلان (طوّق وقلّد) على وزن فعل مشدد يدلّ على التكثير، والقلائد كما ذكرت ما يفتل على العنق والطوق، وهو ما يطوّق به العنق، وهذه الأطواق والقلائد لا تحلّ ولا تفلّ، فالفعلان اللذان وصف بهما الأطواق والقلائد متناسقان لفظاً وبنية ودلالة.

ويخلص الإمام إلى الحقيقة التي يؤمن بها في جمل اسمية دالة على الثبات والحقيقة ((فآلاؤك جمة ضعُف لساني عن احصائها، ونعماؤك كثيرة قصُر فهمي عن ادراكها فضلاً عن استقصائها)) والآلاء هي النعم لذا بدأ الجملة الاسمية الأولى بها، وبدأ الثانية بالنعماء، وهي وإن كانت مفردة والآلاء جمع

---

(1) جواهر البلاغة 349.

(2) الصحيفة السجادية 288.

(3) مفردات ألفاظ القرآن 682.

إلا أن التناغم الصوتي جعل الإمام عليه السلام يوائم بينهما وجاء خبر كلّ منهما بصيغة المفردة المؤنثة لتناسب المبتدأ المؤنث (جمة وكثيرة) واتبع كل خبر بجملة فعلية تصلح أن تكون نعتاً له، مبدوءة بفعل على وزن (فعُل) (ضعُف، قصُر) وصيغة (فعُل) لها دلالاتها فهي تدل على المدح وتدل على التعجب، وأُسند كل منهما إلى فاعل (لساني، وفهمي) واللسان ما يفصح عن الأفكار، والفهم يولّد الأفكار، فما أكثر هذه النعم التي يعجز اللسان عن احصائها، ويقصر الفهم عن ادراكها، وما لا يستطيع الفهم الوصول إلى منتهاه لا يستطيع استقصاءه والإحاطة به، أما ترى إلى أنّ كل لفظة من هذه الألفاظ جاءت في موقعها، وكأنها ولدت له، ووضعت في أصل اللغة لكي توضع في هذا الموضع..

وبإزاء هذه العظمة في كثرة الآلاء يتساءل الإمام سؤال من ينكر على نفسه القدرة على الوفاء قائلاً ((فكيف لي بتحصيل الشكر، وشكري إياك يفتقر إلى شكر، فكلّما قلت لك الحمدُ، وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد))[1]

أي بلاغة تكمن في هذا الكلام، وأي إيمان تتفجر عنه هذه العبارات، وأي تقوى تجنّ وراء هذه الأقوال، فهل يعي المؤمنون هذا القول، وهل فكر الناس في هذا النوع من الإيمان؟ وهل يصل البشر إلى هذا القدر من المعرفة بالله أما ترى معي لماذا تساءل الإمام هذا السؤال الذي أنكر على نفسه أن فيها القدرة على تحصيل الشكر بتمامه، لأن الإمام يؤمن أن كلّ كلمة شكر ينطق بها هي نعمة من الله يهبها للإنسان لأن من يشكر فقد هداه الله إلى الطريق السوي وهذه نعمة تستوجب الشكر، فإن شكر مرة أخرى اعترافاً بفضل الهداية إلى الشكر فقد استوجبت هدايته هذه المرة شكراً آخر وهكذا يظل الإنسان عاجزاً عن تحصيل شكر الله لأن ما يوجب الشكر اكبر من قدرة الإنسان على الاعتراف بها كلها وشكرها، أما رأيت إلى أنّ

---

(1) الصحيفة السجادية 288.

الإمام كان مدركاً معنى قوله السابق ((إلهي تصاغر عند تعاظم آلائك شكري، وتضاءل في جنب إكرامك إياي ثنائي ونشري)) لأنه يعلم أن ذلك يفصح عن معنى قوله ((فكلّما قلت لك الحمد وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد)) وهذا سرّ عجز الإمام عن احصاء ثناء فيض فضل الله.

اللوحة الثالثة: يتوجه الإمام فيها بكل جوارحه إلى ربّه طالباً نيله وعطاءه مقرّاً بأن كلّ شيء من هدى الله ورحمته قائلاً ((إلهي فكما غذيتنا بلطفك، وربيتنا بصنعك فتمّم علينا سوابغ النعم، وادفع عنّا مكاره النقم، وآتنا من حظوظ الدارين أرفعَها وأجلَها عاجلاً وآجلاً ))(1)

كان الخطاب خطاب عبد مستكين معترف بعظمة الله وفضله وقدرته وتدبيره استهلّه بعرض أسباب أرادها أن تؤدي إلى نتيجة قائلاً ((كما غذيتنا بلطفك وربيتنا بصنعك) فالإنسان بدأ طفلاً ضعيفاً لا حول ولا قوة له لكن الله هيأ له من ألطافه ما يقيم أوده في بطن أمه (ولو تكلني يارب في تلك الحالات إلى حولي أو تضطرني إلى قوتي لكان الحول عني معتزلاً ولكانت القوة مني بعيدة فغذوتني بفضلك غذاء البّر اللطيف))(2)

ويلاحظ هنا فصاحة اللفظتين (غذوتني وغذيتني) وهما من الاستعمالات الصحيحة لهذه اللفظة قال الجوهري ((الغذاء ما يُغتذى به من الطعام والشراب يقال غذوت الصبي باللبن من باب عدا أي ربيته، ولا يقال غذيته بالياء مخففاً ويقال غذيته مشدداً ))(3) و(غذيتنا وربيتنا) لأن التغذية جزء من تربية الجسد وكلاهما من صنع الله ولطفه أوجد له الأسباب، وهيأ له الظروف لينمو ويكبر سواء بما مدّه بلبن الأم أم بتغذيته في بطنها قبل أن يخرج إلى الوجود، وهذه نِعَم عظيمة تفضل بها الله على الإنسان قبل أن يفقه معناها لذا يعترف بها الإمام ثم يدعوه ضارعاً ((فتممّ علينا سوابغ النعم وادفع عنا مكاره النقم))

---

(1) الصحيفة السجادية 288.

(2) المصدر نفسه : 143.

(3) المختار من الصحاح 370.

والتمام المطلوب في تممّ مرادف للتمام في سوابغ التي أشرنا إلى معناها وهو التمام كذلك فنعم الله تامة واسعة، وجمة كثيرة، ويطلب الإمام زيادة تمامها لأن آلاء الله لا حدود لها ولا منتهى، ودفع مكاره النقم هو نعمة كذلك لأن الإنسان الذي يستقيم في عمله ويحسن سلوكه، ينعم الله عليه وتلك نعمة لأنها هداية من الله قال الإمام علي بن أبي طالب في دعاء كميل ((اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم) ومن هداه الله إلى الابتعاد عن هذه الذنوب فقد وقاه النقم ومكارهها، ويتوجه دعاء الإمام بعد ذلك إلى طلب حظوظ الدارين (حظوظ الدنيا وحظوظ الآخرة) والحظ النصيب المقّدر قال تعالى ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ [المائدة14] وقال تعالى: ﴿ وللذكر مثل حظ الانثيين ﴾ [النساء11] ومَن جمع حظوظ الدارين فقد أسعده الله وانعم عليه لذا قيل اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) وقد اختار الإمام من هذه الحظوظ أرفعها .

ولاشك في أنّ الرفعة والجلال بمعنى واحد، لكن لفظ العاجل غير الآجل فهما ضدان وقد خصّ الإمام الحياة الدنيا بالعاجل، وخصّ الحياة الآخرة بالآجل وأرفع حظوظ الدنيا عند الإمام هو الحظوة برضى الله ونيل الفوز بجنانه.

ويختم الإمام هذه الديباجة بالإقرار بحمد الله، وثبوت الحمد له ((لك الحمد على حسن بلائك، وسبوغ نعمائك حمداً يوافق رضاك، ويمتري العظيم من برّك ونداك ياعظيم ياكريم برحمتك ياأرحم الراحمين))(1)

أورد الإمام الحمد معرفة في جملة اسمية ليدل على ثبات الحمد له، وللعلماء في قوله تعالى ((الحمد لله)) آراء نقل الدكتور فاضل السامرائي عدداً منها قائلاً ((معنى الحمد الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال فالحمد أن تذكر محاسن الغير سواء أكان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة والشجاعة، أم على عطائه وتفضله على الآخرين، ولا يكون

---

(1) الصحيفة السجادية 288 – 289.

الحمد إلا للحي العامل، وهذا من أشهر ما فرّق بينه وبين المدح فإنك تمدح جماداً وقد تمدح حيواناً ولكن لا تحمده.. .جاء في تفسير الرازي إن المدح قد يحصل للحيّ ولغير الحيّ ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن فإنه قد يمدحها ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد))[1]

وقد خصّ الإمام الحمد بالله حين قدّم (لك) على (الحمد) فالحمد له لا لغيره على حسن بلائه إذ أنعم عليه هذه النعم ليراه أيشكر أم يكفر قال تعالى: ﴿إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإما كفورا ﴾ [الانسان3] وهذا هو حسن البلاء حين أسبغ عليه النعم فإن أظهر النعم وأشاعها وعبد الله شاكراً فقد فاز في هذا البلاء وإن كفر وأنكر نعم الله فقد خسر في هذا البلاء. وجاء (حمداً) مفعولاً مطلقاً من (الحمد) مؤكداً له، وقد وصف الإمام الفكرة بجملة (يوافق رضاك ) وعطف عليها جملة مناظرة لها (ويمتري العظيم من برّك ونداك) والمعنى العام للجملتين متقارب لأن الحمد الذي يوافق رضى الله لاشك في أنه يمتري برّه وعطاءه والفعل (يمتري) على وزن (يفتعل) من الفعل (مرى) الناقة إذا مسح ضرعها للحلب، فهذا الحمد يمتري ما يدرّ به لطف الله من برّ عظيم وندى كثير.

وختم الإمام هذه المناجاة بدعاء (ياعظيم ياكريم برحمتك ياأرحم الراحمين)) وهذه المناجاة واحدة من عشرات النصوص البليغة الزاخرة بالمعاني الدقيقة والألفاظ الفصيحة المنتخبة للدلالة على تلك المعاني، وقد حاولت من خلال تحليل هذه المناجاة الوقوف على وضع الألفاظ في مواضعها بما يعبّر عن المعاني المقصودة في نظم دقيق تتجانس فيه اللفظة مع أختها وتتناسق الجملة مع الجملة في سياق متّسق وقد وجدت الصحيفة كلها مليئة بهذه النصوص البليغة، ولو أردت تحليل ألفاظها كلها لوضعت المجلدات لأن كل لفظة تستحق التأمل والدراسة، وكل جملة تتطلب وقفة فاحصة لاستجلاء أسرارها ومكامن بلاغتها، وهي كثيرة تمتد إلى ميادين البلاغة والنحو والصرف والدلالة وغير ذلك مما يدخل في صميم بناء الأسلوب المتماسك الرصين.

---

(1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل 11.

# الفصل الثالث

## (لغة القلب والوجدان في الصحيفة السجادية)

لا ينكر الاسلام أهمية الحياة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان ، لذا حثّ الناس على التمتع بزينتها ، واستغلال الأرض وعناصرها وكنوزها لخدمة الإنسان ، وتحقيق القدر الأوفى من السعادة الدنيوية قال تعالى ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف 32] ونظّم الإسلام سعادة الإنسان الغريزية بقوانين تتيح للرجل والمرأة أن ينال كلّ منهم قسطه من السعادة من خلال الارتباط الشرعي ، كما أباح الاسلام للإنسان إشباع غرائزه في التملك في حدود الأحكام الشرعية ، التي تسعى لتقريب مستويات المعيشة بين الغني والفقير من خلال النظم الاقتصادية الإسلامية التي تكبح جماح الاستغلال وتبيح العمل في المجالات التي تخدم الناس وتحقق المنافع المشروعة ، وحلل الإسلام ارتداء الملابس الجميلة واقتناء الحلل الفاخرة ، والخيل والإبل والسيارات ضمن حدود ما أحلّه الله ومراعاة حقوق الآخرين ، كما دعا الإسلام الناس إلى التأمل والتفكير في هذا الكون لاستكشاف ما يجهله ، واستخراج الثروات الكامنة في البر والبحر ، والتفكير في إيجاد الوسائل لاستغلال تلك الثروات ، وتصنيع ما يخدم الإنسان وتنظيم الطرق والأنهار وكلّ ما يبعث في النفس من سعادة دنيوية تجعل الإنسان في أحسن أحواله وقد نصت النصوص الشرعية على كلّ ما يسعد الإنسان من غير اضرار بحقوق المجتمع وحرية الناس التي نظمتها القوانين الشرعية ، وهذا هو الطرف الأول من معادلة الحياة فتلك النعم من عطاء الله ورزقه وهبها الإنسان لكي يحيى حياة سعيدة لكنها ليست حياة غريزية يكون فيها الإنسان كالحيوان يأكل ويشرب ويشبع غرائزه من غير تفكير أو تأمل فيمن خلق ووهب وأبدع وأعطى وعلّم وأفهم وشرّع ونظّم بل الإنسان مولود لغاية مهمة هي معرفة خالق هذا

الكون لعبادته وتوحيده ، وما نح هذه النعم لشكره ، وربّ هذا العالم وسيّده لإطاعة أوامره ونواهيه ، فإن أدرك الإنسان ذلك واستوعبه عمل بما شرّعه الله ، وحقق العدالة في الأرض ، وأشاع الخير والمحبة والصلاح وحارب الشر والفساد ، وعمّر الأرض ونشر الفضيلة لنيل رضى الله وغفرانه وفي ضوء هذه المعادلة يتحدد السلوك الدنيوي لذا نرى الناس على أصناف ، فمنهم من تغرّه الحياة الدنيا فيغرق في ملذاتها يلهو ويلعب من غير تفكير في واهب النعم التي يتلذذ بها . ومنهم من يجمع بين التمتع بمفاتن الحياة الدنيا ولذاتها في ضوء شرائع الله ، والاستعداد للآخرة بعمل الخيرات وعبادة الله سبحانه ومنهم من يزهد بالحياة الدنيا وملذاتها ولا يأخذ منها إلا ما يمدّه بالحياة فيحسن في كلّ شيء ، ويعدل في كلّ شيء ، ويعطي في كلّ ما يقتضيه الحق ، ويتصرف بكل جوارحه ووجدانه ومشاعره نحو عبادة ربّ العالمين وشكره على نعمه التي أسبغ بها على البشر وأولئك هم المتقون الذي هداهم الله إلى السير في طريق الحق .

وقد عرف الإسلام منذ بدء ظهوره طائفة من الزاهدين العابدين الذي آمنوا بكلّ جوارحهم وصدقوا الله ما عاهدوا فكانوا يعملون بصدق لإعلاء كلمة الحق ويضحّون بأنفسهم للدفاع عن جوهر الإسلام ومبادئه ولا تغريهم الحياة الدنيا لأنهم كانوا يعلمون أنها زائلة لا يّعّمر فيها الإنسان إلا قليلا ، لذا عقدوا العزم على أن يعدّوا العدة لحياة دائمة باقية يخلد فيها الإنسان وهي الحياة الآخرة .

والزهد لا يعني في الإسلام حرمان النفس من كلّ شيء والتقوقع في صوامع العبادة ليلاً ونهاراً لأنّ ذلك لا يرضاه الله - سبحانه وتعالى - ولا يدعو إليه الإسلام بل الزهد في الإسلام أن لا تغلب حراماً في طعامك أو شرابك أو لباسك أو سكنك أو متعتك على ما أحلّه الله ، بل تجعل الشريعة الاسلامية ميزاناً فيما تكسبه وتربحه أو تتمتع به وتضع الله أمام عينيك في خلواتك وعلنك وفي كلّ خطوة تخطوها ، وتجعل نفسك أمارة بالخير لا أمارة بالسوء ،

وتخضعها لمبادئ الحق بدءً مما تحب وتشتهي وانتهاءً بما يحبه الناس ويشتهونه وصولاً إلى تحقيق مرضاة الله .

وهذه الموازنة تجهد النفس وتتعبها وتجعلها في قلق دائم لعدم قدرتها على تحقيق العدل في موازين الحق في كلّ سلوك أو تصرف لأن ذلك لا يستطيعه إلا نبي أو رسول ، وهذه الحقيقة تدفع المؤمنين والتقاة إلى السعي إلى مجاهدة الرغبات ودفع الميل إلى اللذات ، وحمل النفس على المكابدة والمعاناة في الحياة الدنيا طمعاً في نيل مرضاة الله وتلك الموازنة الصعبة من أكبر عقد الحياة لأن الإنسان أضعف من أن يُروض نفسه على احقاق العدل مع نفسه وفي سلوكه مع الآخرين وقد أشعرنا الله سبحانه وتعالى بذلك حين أخبرنا أن النفس أمارة بالسوء وأن احقاق العدل في مواقف كثيرة غير ممكن ، قال تعالى { ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء } [النساء 129] ذلك أن الإنسان غير قادر على أن يمنح نساءه قدراً واحداً من المشاعر والأحاسيس ، وقدراً واحداً من الحب يساوي بينهن لذا أمرنا الله ـ تعالى ـ أن نكتفي بواحدة ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ [النساء 3] ولا يعني ذلك أن نجانب العدل لكوننا غير قادرين على العدل في بعض الأمور ، بل أمرنا بالعدل في الحياة على الرغم من أن تحقيق العدل أمر يحتاج إلى إيمان عميق وزهد وتقوى قد لا يستطيعها كل انسان لذا ترى الإنسان لا يعدل في شؤون حياته أحياناً ويبلغ به الأمر أنه لا يعدل في تحقيق حاجات نفسه ، ويجور عليها إما ايثاراً لمنفعة أهله وذويه ، وإما عقاباً لها لتقصيرها في تحقيق ما يريده الله سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿فمنهم ظالم لنفسه ﴾ [فاطر 32] وقال تعالى: ﴿ قالت ربِّ إني ظلمت نفسي﴾ [النمل 44 ] وقال تعالى: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ [النساء 64]وقال تعالى: ﴿ ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ [البقرة35] أي من الظالمين أنفسهم وقال تعالى: ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ [البقرة 231] فالإنسان مهما جاهد شهوات نفسه ، وأوتي من إرادة لدفع رغبات الشيطان ، قد تدفعه مغريات الحياة ، وغواية الشيطان ، وأمر النفس بالسوء واختلال المعايير الشرعية في التفسير،

وعدم الدقة في اختيار الأحكام السلوكية السليمة ، إلى الانزلاق في مهاوي معصية الله ـ جلت قدرته ـ والخروج عن طريق الحق ولو بالظن ، لأنَّ بعض الظن إثم ، ومن هنا يكون الندم فيبحث الإنسان عن منافذ للتكفير عن السيئات فلا يجد غير اللجوء إلى الله طلباً لعفوه وغفرانه ، وطمعاً في صفحه ورضوانه، داعياً الله ـ جلت قدرته ـ مستجيراً به ، مستغفراً لذنوبه .

وقد زخرت الصحيفة السجادية بأدعية ومناجيات أفرغ فيها الإمام عليه السلام أحاسيسه ومشاعره وهو يرى المجتمع الذي عاش فيه يتلاطم بأمواج من الظلم والجور والعصيان والفسق والفجور والاضطهاد والتفسخ الاجتماعي، فلا يستطيع وهو إمام زمانه ومرشد الناس في كل مكان أن يصلح المجتمع بيده وأمره فالثورة بالسيف كان وقتها غير مناسب بعد أن قُتل أبوه وأهل بيته ورأى المصائب بأم عينه تحل بأبيه وعائلته وأنصار أبيه حيث أبيدوا قتلاً وذبحاً في يوم عاشوراء، ولا يستطيع اصلاحه بلسانه لأن الخرق واسع فلا يُسمع صوته إن وعظ وأرشد ونصح وهدى ، لذا سعى بقدر ما يستطيع أن يعلم أنصاره ومريديه أصول الدين وفروعه ، وتعاليم الإسلام الصحيحة لكي يوصلوا آراءه إلى المسلمين وذلك بتدريس طوائف من الدعاة والمرشدين ثم يفك أسرهم ويدفع لهم الأموال ، ويمدهم بما يمكنهم من نشر مبادئ الإسلام في الأرض فضلاً عمّا كان يشيعه بين الناس من فضائل تجسدت في سلوكه فكان قدوة للناس وإماماً للمجتمع الذي رفعه وأجله لكن ذلك لا يرضي طموح الإمام ولا يحقق رغباته في إشاعة العدل ، فيحزن ويتألم وتضيق الأرض به لوحشته منها ومما يحصل فيها ، فلا يجد ملاذاً غير الانقطاع إلى الله في سكون الليل ، وهجوع الناس ، وصمت الأشياء إلا ما سبّح لله ـ سبحانه وتعالى فيناجي ربه مناجاة العبد المعترف بأنه غير قادر على إصلاح هذا العالم ، وإرشاد الناس كلهم إلى طريق الحق ، فيكبر ذلك في نظره ، ويعدّه ذنباً مهلكاً لا يغفره إلا الله ولا تمحوه إلا رحمته ، فيتوجه إلى خالقه بكل جوارحه ووجدانه خاشعاً متذللاً يقف بين يديه خجلاً مطرقاً يرجو عفوه ، فيبث الرحمن الرحيم والمبدع الجميل ، والعطوف الحنون ، كل شوقه إليه

وحبه الذي لا تحده حدود ولهفة قلبه لرؤياه ، ووجده ومكابدته في حبه ، فهو الحبيب الذي لا يدانيه حبيب ، وهو الأمل ، وهو المرتجى ، والملجأ والملاذ ، قد أخلص له حبه وأفرغ له قلبه فإذا قرأت مناجاة واحدة من خمس عشرة مناجاة ضمتها الصحيفة تجد نفسك بإزاء زاهد معتكف اناء الليل في محرابه ، قد نسي الدنيا ومغرياتها ، وطلق الحياة وزخارفها ، وتجلى لخالقه قلباً مفعماً بالحب والشوق والوجد ، يكاد ينشق عنه الجسد النحيف ليسمو إلى عالم الرحمة والملكوت تتسامى منه هالات من نور الإيمان بالله ، وتقوى الله وحبه ، تشع في نسج بديع من التسبيحات والتكبيرات والتهليلات ، وآيات الشوق والوجد والوله التي عجز عن التعبير عنها شعراء العشق في كل العصور في لغة جميلة زاخرة بالصور والتشبيهات والكنايات يأتلف اللفظ فيها مع الآخر في نسق جميل يأخذ بالألباب ، ويسحر الأرواح ويأخذ بمجامع القلوب ، لكونه ينبع من قلب مؤمن تقي زاهد عارف بفضائل الله . وقد ملكني هذا السحر والجمال في هذه المناجيات المؤثرة ووجدت أن أيسر ما أقدمه في هذا الكتاب هو تقصّي مواطن الجمال في هذه الصياغات الروحانية الساحرة لتكون دليلاً للباحثين و لاسيما الذين سحرتهم لغة المتصوفين فظنوا أنهم مبدعوها ، وبهرهم ما فيها من عبارات الشوق والوجد والمكابدة فعدوها من بديع صنعهم ، ولم يدروا أن الإمام السّجاد زين العابدين كان رائداً في صياغة هذه الألوان الجميلة من عبارات الحبّ الروحي الخالص لوجه الله سبحانه وتعالى وكان مبدعاً في اختيار ألفاظه ومعانيه وصوره التي حذا حذوها المتصوفون وأعادوا صياغتها شعراً ونثراً ، وسمّوا طبقاتهم ومراتبهم بحسب مفرداته التي وردت في هذه المناجيات وسأحاول قدر ما أستطيع بيان تلك العبارات والتجليات والمواجد التي تضمنتها الصحيفة السجادية .

## الدلالة الإيحائية للألفاظ المؤتلفة مع النفس :

انتظمت لفظة (النفس) مع عدد من الألفاظ في عبارات الصحيفة السجادية ، فأكسبتها دلالات إيحائية تكشف عن المعاني التي تعتور النفس . وسأحاول دراسة تلك الألفاظ مستنداً إلى جذورها أو صيغة الماضي منها محاولاً استجلاء دلالات النفس مما أحاط بها من تلك الألفاظ على النحو الآتي :

1- أمر : قال " اللهم إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة "[1] وهي صياغة وردت في القرآن الكريم مؤكدة بـ(إنَّ) في قوله تعالى ﴿ إنّ النفس لأمّارة بالسوء﴾ [يوسف227] وهي صيغة (فعّالة) من الفعل أمر (والأمر نقيض النهي)[2]

وذلك لتكثير ما تأمر به النفس من السوء ، وهذه المبالغة في الأمر وكثرته توحي بما توسوس به النفس وتأمر به قال تعالى ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف18] وقد ورد قول الإمام في مقام شكوى من هذه النفس فقدم الفعل (أشكو) ليعلم أن الأمر بالسوء إنّما هو من سجايا النفس وتنكيرها لايعني أنه يجهلها إذ يعترض قائل ليقول إن الانسان إذا شكا نفسه فهو يعرفها ، ولكن الإمام قصد هذا التنكير لتكون عامة تشمل كلّ نفس في حين أن التعبير القرآني أوردها معرفة ليؤكد حقيقة ثابتة مؤكدة بأكثر من تأكيد منها(إنّ) الحرف المشبه بالفعل الدال على التوكيد ، ولام الابتداء المزحلقة ، وكون الجملة اسمية دالة على الثبوت ، ليشيع في التعبير القرآني أنها من الأمور المسلّم بها والمقطوع بثباتها ، أما تعبير الإمام فلا يريد اثبات حقيقة بل أراد أن يشكو نفسه كما يشكو المؤمنون قاطبة نفوسهم المجبولة على الأمر بالسوء لذا نكّرها لتكون موحية بتقصيرها وكثرة ما يحدث عنها من أمر بالسوء معبّراً بذلك عن جنس النفس البشرية ، ويلاحظ تقديم الجار

(1) الصحيفة السجادية : 277 .

(2) العين : 8/ 297 .

والمجرور (إليك) لتكون الشكوى لله وحده لا لغيره ، فهو الذي نفتح له قلوبنا ونبثه شكوانا ونعرض عليه ما ألّم بنا لأنه أهل لسماع شكوانا .

2- حيي ، خشع ، سخط : قال الإمام " وهذا مقام من استحيى لنفسه منك، وسخط عليها ورضي عنك ، فتلقاك بنفس خاشعة ورقبة خاضعة ، وظهر مثقل من الخطايا " [1] وهذا القول صورة جلية لجلال الموقف ، وعظم هيبة الله ـ جلّ وعلا ـ إذ يستحيي الانسان من نفسه أمام الله لما اقترفه من ذنوب ومعاصٍ لا يستطيع المرء أن يواجه بها ربّه يوم الحشر .

والاستحياء من الحياء أي الخجل قال الراغب الأصفهاني (والحياء انقباض النفس عن القيام وتركه لذلك يقال حيي فهو حيّي ، واستحيا فهو مستحي وقيل استحى فهو مستحٍ قال الله تعالى ﴿ إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضةً فما فوقها﴾ [البقرة 26] وقال عزّ وجلّ ﴿ والله لا يستحي من الحق ﴾ [الأحزاب 53] " [2]

وقوله (هذا مقام) تذكير بالحال التي يكون عليها المذنب الذي يجد نفسه أمام إله الكون العظيم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا يستطيع أن ينكر ما اقترفه فتنقبض نفسه ويطأطئ رأسه خجلاً لذا تأتي عبارته (استحي لنفسه منك) ذات وقع أليم على النفس فالويل للنفس التي تلقى الله آثمة مذنبة فيندى لها الجبين استحياء لموقفها أمام الله ، ولا يجد الإنسان في هذا المقام مفرّاً مما هو عليه فيسخط على نفسه ويغضب غضباً شديداً والسخط " نقيض الرضا والفعل سخِط يسخَطُ وسَخّطه ، وتسخّطه لم يرض به غيره اسخاطاً ، والمسخَطُ مصدر من سخَطَ تقول هذا مسخطة أي من تعرّض له سخِط عليه ، والسُّخْط والسَّخَط مثل السُّقْم والسَّقَم والعُدم والعَدَم " [3] قال الله تعالى: ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ [ التوبة 58] وسخط الإنسان على نفسه تقريع لها وتنديد

(1) الصحيفة السجادية :141 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن 270 .

(3)العين : 4 / 192 ـ 193 .

بسلوكها فلا يجد غير قوله (تباً لها من نفس أوردتني المهالك ) أمّا الله ـ تعالى ـ فلا نملك إلا أن نشكره ونحمده تعبيراً عن رضانا عن عطاياه ومنحه التي لم تعرف النفس قدرها فعصيت وأذنبت ولم تحمد الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه . وهذا هو طريق المؤمنين التقاة يوجهون سخطهم إلى النفس الأمّارة بالسوء ، ويرضون بحكم الله لأن الله خلق الإنسان ومنحه العقل ليزن بين طريق الحق وطريق الضلال فإن أغوته نفسه فعليها وزرها وإن اختارت رضى الله فذلك هو الفوز العظيم حيث يلقى ربّه ونفسه راضية مرضية ، ويصف الإمام الأخرى بقوله " فتلقاك بنفس خاشعة ورقبة خاضعة وظهر مثقل من الخطايا " والنفس الخاشعة هي الخاضعة قال الخليل " الخشوع رميُك ببصرك إلى الأرض ، وتخاشعت تشبهت بالخاشعين ، ورجل متخشع متضرّع والخشوع والتخشع والتضرّع واحد "[1] والمشهد يهزّ النفس حين يتخيّل المرء في هذه الحال نفساً خاشعة منكسرة ذليلة ، ورقبة خاضعة ملتوية تطرق إلى الأرض من شدّة الندم وهوان الذل ، وظهراً منحنياً من ثقل الخطايا والذنوب ، ولا شكّ في أن الإمام سيلقى ربّه وهو راضٍ عنه ولكنّه يحكي حال العصاة ليصوّر لهم ما ينتظرهم من ذلّ وهوان يوم لا ينفع ندم .

3- ذَلّ : قال الإمام مناجياً ربّه " إلهي نفسٌ أعززتها بتوحيدك كيف تذلها بمهانة هجرانك ، وضمير انعقد على مودتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك "[2] وردت في نص الإمام لفظتان متقابلتان بالضد هما (أعززتها وتذلها) والعزّ رفعة يهبها الله لمن يشاء من عباده قال الخليل "العزّة لله تبارك وتعالى والله العزيز يُعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء من اعتزّ بالله اعزّه الله"[3]

والأخرى نقيضتها في المعنى قال الراغب "الذلّ ما كان عن قهر يُقال ذلّ يذِلّ ذُلاً .. قال الله تعالى ﴿ وأخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ [ الإسراء 24 ]

(1) المصدر نفسه : 1/ 112 .

(2) الصحيفة السجادية : 280 .

(3) العين : 1/ 76 .

أي كن كالمقهور لهما " [1] وقد استعمل الإمام هاتين اللفظتين استعمالاً وجدانياً يشعر السامع أنهما قد وضعا في موضع غير هذا الذي أشرنا إليه ، فالعزّة التي تحدّث عنها الإمام في هذه المناجاة وصف بها (نفس) النكرة وهو يقصد تنكيرها ليضعها في معنى العموم الإرشادي ، ولم يصفها بعزّ الجاه أو المال أو القوة الكامنة في الأهل والعشيرة ، ولا عزّ الجيوش والأنصار وبسط النفوذ بل هو أعزّها بشيء آخر يشعر به الفقير والمتشرد والمسكين وابن السبيل ومن ليس له قوة أو أنصار ، أعزّها بعزّ رباني يملأ النفس بالقوة والمتعة والعظمة حين يملأ قلبه الإيمان بالله الواحد الأحد ، القوي العزيز الذي لا يقهره شيء فلا يجد المؤمن الذي أعزّ نفسه بهذا العز كائناً يستحق أن يمدّ له يده خاضعاً أو يلوي له عنقه لأنه آمن بمن هو أقوى منه وأغنى فيشعر ذلك المؤمن بالعز والمتعة والقوة لأن الله معه يذل كلّ جبار وطاغية على نحو ما روى لنا التاريخ من أحداث ، وهذه النفس التي وحّدت الله وآمنت به واستندت إلى حوله وقوته ينكر عليها الإمام أن تُذل ، ويتساءل باستغراب وانكار كيف يذلها الله بمهانة هجرانه ، فالله رحمن رحيم ، لذا أكد الأمام لكل نفس عزت بتوحيد الله وقويت بالإيمان به أن الله لا يذلها ، وأي ذل ؟ هو ذل تلك النفس وهوانها على الله بهجرانها والإعراض عنها ، ولله در الإمام السجاد فقد ربط هذا الذل بالهجران ، وهو أمر لا بدّ لكل مؤمن أن يتوقف عنده فالهجران لفظ يكثر منه المحبون والعاشقون الذين لا يطيقون هجران الحبيب وقلاه ، ولا يستطيعون الصبر على الفراق والبعاد فيصيبهم الهمّ والهوان لذلك الهجران ، فما الذي أراده الإمام بايراد لفظ الهجران ؟ لقد أراد أن العزّ هو عزّ حبيب لاط حبه قلب المؤمن الموحد التقي والتصق به ، وصار كالهواء في حياته ، وهذا ما أكده الإمام في قوله (وضمير انعقد على مودتك كيف تحرقه بحرارة نيرانك ) فالمدنف المشبع بهذه المودة هو الذي يسحقه الهجران ويدمّره ، فكيف إذا كان هجران أعظم حبيب في الكون وهو الله جلّ وعلا .

(1) مفردات ألفاظ القرآن : 330 .

4- رجع : قال الإمام داعياً الله - سبحانه وتعالى - أن يجعله من الأتقياء الورعين المؤمنين الذين "اطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم "[1] والرجوع والرجعى صيغتان لمصدر الفعل (رجع) قال الخليل : " رجعت رجوعاً ورجعته يستوي فيه اللازم والمجاوز ، والرجعة المرّة الواحدة "[2] وقال ابن السكيت " ما رجَعَ إليّ جواباً يَرجِعُ رجعاً ورجعاناً وقد رجعته إلى كذا قال الله - تبارك وتعالى - ﴿ فإن رَجَعك الله إلى طائفة منهم﴾[3] وجاء في الصحاح : " والرُّجعى: الرجوع وكذا المرجع ومنه قوله تعالى : ﴿إلى ربّكم مرجعكم﴾ "[4] ومنه قوله تعالى : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة﴾ [الفجر 27] ورجوع النفس إلى بارئها تشير إلى حكمة الله - سبحانه وتعالى - في خلق الإنسان ، لأنّ الله - تعالى - ما خلق هذا الكون والانسان عبثاً ، ولا كانت رحلة الإنسان ، من مولده إلى يوم مماته مجرد لذة ومتعة قال تعالى ﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾ [القيامة] بل خلقه الله ومنحه النّعم كلّها ليشكره ويكون خليفته في الأرض قال تعالى ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدونِ﴾ [الذاريات 56] وقال تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائق في الأرض ﴾ [فاطر 39] وقال تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائق الأرض ﴾ [الأنعام 165] ليملأ الأرض عدلاً وأماناً ويشيع فيها النزوع إلى عمل الخير ليحقق للناس السعادة ، مادام حيّاً على وجه الأرض ، وعلمنا القرآن الكريم أن كلّ نفس ذائقة الموت: ﴿كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن 26 27] وبين المولد والممات امتحان عسير يأتي الإنسان ضعيفاً لا حول ولا قوة له فيوجد الله له برحمته أسباب الحياة حتى يكبر ويصبح قادراً على إطعام

---

(1) الصحيفة السجادية : 304 .

(2) العين : 225/1 .

(3) اصلاح المنطق : 263 .

(4) المختار من الصحاح : 186 .

نفسه وهذه الرعاية الربانية تستوجب الطاعة والشكر والعبادة فإن جحد وأنكر واستكبر فسوف يعود إلى ربّه فرداً ضعيفاً قال تعالى: ﴿ وكلُّهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ [مريم 95 ] ويومئذٍ يلقى ربّه خائفاً مضطرباً كما وصفه الله تعالى ﴿ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتدّ إليهم طرفهم﴾ [ ابراهيم 43 ] ومن كان هذا مصيره فهو لا شكّ خائف مضطرب قلق ينتظر لحظات عقابه المؤلم حين ترجع نفسه إلى ربّها بوجه أسود ملّوث بالآثام كما قال تعالى ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهو رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ [ محمد 27ـ 28 ] أمّا الثلة المؤمنة التي قضت الحياة الدّنيا في عبادة الله ، وتحقيق أوامره فلا يخافون الموت ولا يحزنون لأنهم اطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب نفوسهم " وحظيت بما وعدها الله في قوله تعالى : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي﴾ [ الفجر 27. 30 ] فتلك النفوس التقية تلقى ربّها مطمئنة ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾ [ عبس 38. 39 ] لذا قدم الإمام الفعل (اطمأن) على الفاعل (أنفسهم) لأن الفعل أي الاطمئنان هو المقصود أمّا الرجوع فهو واقع لا محالة لأنّ الله أمر بذلك فجاء في حديث الإمام مصدراً مجروراً بحرف الجر ، في حين جاء في الآية الكريمة فعل أمر وهو ملزم واجب التحقيق وإذا جاء الاطمئنان في دعاء الإمام فعلاً مسنداً إلى الأنفس في صيغة الماضي فقد دلّ ذلك على التيقن من الحدوث وكأنه متحقق لا شك في ذلك، أمّا الآية الكريمة فقد جاء الاطمئنان على صيغة اسم الفاعل (المطمئنة) المعرف بأل إذ وصفت بها النفس للدلالة على التكامل والتبيين، لأن أمر الرجوع هنا مردّه إلى الله ليعيد النفس المطمئنة إلى ملكوت رحمته .

وقد تكرر هذا المعنى في الصحيفة السجادية قال : " وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني ، وبقربك وجوارك خصصتني ، فتقر بذلك عيني وتطمئن

له نفسي"[1] وقال " أسألك بكرمك أن تمنّ علي من عطائك بما تقرّ به عيني، ومن رجائك بما تطمئن به نفسي "[2]

5- سرع : أصل هذه اللفظة من السرعة في جري الماء وانهمار المطر ونحوه " والسريع نقيض البطيء ، ما كان سريعاً ، ولقد سرُع سرعةً ، وأما قولك قد أسرع فإنه فعل مجاوز يقع معناه مضمراً على مفعول به أي أسرع المشي وغيره لمعرفته عند المخاطبين استغني عن اظهاره فاضمر ومثله أفصح فلان أي أفصح القول وفصح الرجل فصاحة أي صار فصيحاً "[3] وما تقدم يفصح عن دلالة هذه اللفظة على شدة الجري سواء أكان في الماء الذي يجري في النهر أو المطر المنهمر أو الخيل التي تسرع أو الانسان الذي يسرع وغير ذلك مما يستطيع الحركة ، أو يسخّر الله حركته لأمر ما وقد استعمل الإمام هذه اللفظة في نوع آخر من الجري حين تحدث عن نفسه فقال: " تُسرع بي إلى الحوبة"[4] والحوب الإثم قال الراغب " والحوب المصدر منه وروى (طلاق أم أيوب حوب) وتسميته بذلك لكونه مزجوراً عنه من قولهم حاب حُوباً وحَوباً وحيابة، والأصل فيه حوب لزجر الإبل، وفلان يتحوب من كذا أي يتأثّم، وقولهم ألحق الله به الحَوْبَة، أي المسكنة والحاجة، وحقيقتها هي الحاجة التي تحمل صاحبها على ارتكاب الإثم"[5] وقد يسأل سائل كيف تسرع النفس وهي لا تجري، والجواب واضح من كلام الخليل فليست النفس هي التي تسرع بل تسرع الآثام والذنوب والأحداث على النفس الأمارة بالسوء فلا تنهى عنها ولا تكف عنها لذا استعمل الإمام هذه اللفظة ليعبّر عن جريان الأيام والنفس تقترف الذنوب فكأنها تسرع هي وإن كانت التي تسرع هي الذنوب .

---

(1) الصحيفة السجادية : 279 .

(2) المصدر نفسه : 283 .

(3) العين : 1/ 330 .

(4) الصحيفة السجادية : 277 .

(5) مفردات ألفاظ القرآن : 261 .

6- سكن : قال الإمام " إلهي بك هامت القلوب الوالهة ، وعلى معرفتك جُمعت العقول المتباينة ، فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك "[1] وقوله (تسكن النفوس) أراد به سكونها وهدوءها واطمئنانها قال الخليل " السكون ذهاب الحركة ، سكن أي سكت .... سكنت الريح وسكن المطر وسكن الغضب "[2] وقال الراغب " السكون ثبوت الشيء بعد تحرّك .. وقوله تعالى ﴿ أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ [ الفتح 4 ] فقد قيل هو ملك يسكن قلب المؤمن ويؤمّنه وقيل هو العقل ، وقيل له سكينة إذا سكن عن الميل إلى الشهوات وعلى ذلك دلّ قوله تعالى : ﴿ وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ [ الرعد 28 ] وقيل السكينة والسكن واحد ، وهو زوال الرعب ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ﴾ [ البقرة 248 ][3] وقد جاء قول الإمام بصيغة القصر (ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك) فقد قصر سكون النفوس المؤمنة واطمئنانها على رؤية الله - جلّ وعلا - فهي تبقى قلقة مضطربة لا تعرف السكون والهدوء ما لم تتحقق لها رؤية الله ، فكيف تسكن تلك النفوس ؟ لقد أثبتت الدراسات النفسية أن المشركين والملحدين الذين لا يؤمنون بالله يعيشون حالات من القلق والاضطراب ويعانون من مشاكل نفسية لفقدانهم البصيرة لأنهم يتخبطون لا يعرفون منهجاً في حياتهم ، تساورهم الشكوك والأوهام لعدم استنادهم إلى حقيقة واضحة يتزلفون إلى البشر وأصحاب النفوذ والجاه فلا يجدون غير الطغيان والجبروت والتكبر والظلم واذلال من يلجأ إليهم ، ولا تجد مثل ذلك عند المؤمن الزاهد الذي آمن بمدبّر هذا الكون ، ومنظم الأفلاك وخالق كلّ شيء بأقدار ثابتة ﴿ إنا كلّ شيء خلقناه بقدر ﴾ [ القمر 49 ] فآمن به

---

(1) الصحيفة السجادية : 307 .

(2) العين : 5/ 312

(3) مفردات ألفاظ القرآن : 417 .

رحماناً رحيماً لا يمنّ على عباده إذا أنعم لأنه واسع الرحمة ، قريب من كل نفس يجيب دعوة الداعي إذا دعاه فتطمئن نفسه بذكر كما قال تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن النفوس﴾ [ الرعد 58 ] ويستقر في نفس المؤمن شعور بأن الله محيط به قريب منه يراه ويسمعه ، ويجيره وينقذه لذا يصبح أمام عينه وكأنه يراه ، فيناجيه ، ويحدّثه في الليل والنهار ، وتلك هي رؤية الله ، أي أن ذكر الله يملأ جوارح المؤمن التقي يُسبح باسمه في كلّ لحظة فتسكن نفسه وتطمئن لأن المؤمن يرى الله في قلبه في كلّ وقت من غير تجسيد بقلبه لا بعينه .

7- سلك : قال الإمام في مناجاة الشاكرين وهو يشكو النفس البشرية الأمّارة بالسوء " تسلك بي مسالك المهالك ، وتجعلني عندك أهون هالك "[1]

أي تسير بي في طرق المهالك المردية ، ولا شكّ في أن النفس لا تسلك وليس لها مسالك في الحقيقة ، بل النفس تهوى وترغب وتميل فتدفع الانسان إلى عمل ما لا يُحبه الله ولا يرضاه ، وتشوقه إلى تحقيق رغبات غير مشروعة تُغضب الله وتسخطه ، فيحاسب ذلك الانسان حساباً عسيراً ، وتكون عاقبته النار وتلك هي مسالك المهالك التي تسلكها النفس لذا قال بعدها (وتجعلني عندك أهون هالك) لأن الذلّ الذي سيلحقه والهوان الذي يصيبه مردّه إلى تلك المسالك التي سلكتها النفس .

8- سوّف : التسويف : المماطلة والتأخير ، وهو مأخوذ من (سوف) أفعل كذا[2] قال الإمام في حديثه عن النفس البشرية " تسرع بي إلى الحوبة وتسوّفني بالتوبة "[3] فقد عبّر الإمام بهذه اللفظة عن حالة نفسية يعاني منها كثير من الناس حين يغويهم الشيطان ويجعلهم ينغمرون في الملذات والمعاصي ولا يجدون فسحة للتوبة ، فتمضي الأيام والشهور والسنون وهم

(1) الصحيفة السجادية : 277 .

(2) ينظر : العين 7/ 309 .

(3) الصحيفة السجادية : 277 .

في طغيانهم يعمهون ولا شكّ في أن الحياة والموت وتغيّر صروف الحياة تدفع المرء إلى مراجعة نفسه بين الحين والحين ويحاول تصحيح مسلكه لكنّ الغواية أقوى ، والانغماس في العصيان يرين على القلوب فتسوّف النفس في وعودها بالتوبة والعودة إلى طريق الايمان والرشاد غير أن الموت يعاجل المرء قبل توبته فلا يفلح في تحقيقها فيموت نادماً يعض أصابع الندم وويل لمن ضلّ عن سبيل الله ولم يتب قبل الممات.

9- طمن : الاطمئنان هو سكوت النفس قال الخليل " اطمأنّ الرجل واطمأنّ قلبه واطمأنت نفسه إذا سكن واستأنس "[1] وقال الراغب الأصفهاني " الطمأنينة والاطمئنان السكون بعد الانزعاج قال تعالى ﴿ ولتطمئن قلوبكم﴾ [ الأنفال 10 ] ﴿ ولكن ليطمئن قلبي﴾ [ البقرة 260 ] "[2] وقد جاء كلام الإمام وفاقاً لهذا المعنى قال " وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني وبقربك وجوارك خصصتني فتقر بذلك عيني وتطمئن له نفسي "[3] وقال " أسألك بكرمك أن تمنّ عليّ من عطائك بما تقر به عيني ومن رجائك بما تطمئن به نفسي "[4] وقال " واطمأنت بالرجوع إلى ربّ الأرباب أنفسهم"[5] أسند الإمام في هذه الأقوال النفس إلى الاطمئنان مستلهماً ذلك من القرآن الكريم الذي أشار إلى هذه المعاني في الآية التي ذكرتها ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ والعبد لا تطمئن نفسه إلا إذا شعر بأنه قد فعل ما يرضي الله سبحانه وتعالى لأن النفس مشحونة بالمشاعر والأحاسيس المضطربة تبحث عن ملاذ آمن تجد فيه سكونها ، ولا سكون لها إلا في رحاب رضى

---

(1) العين : 7/ 442 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن 524 .

(3) الصحيفة السجادية : 279 .

(4) المصدر نفسه : 283 .

(5) المصدر نفسه : 304 .

الله وغفرانه وهدايته إلى الإيمان والتقوى ، فتستقر نفس المؤمن لشعوره بأنه يسلك الطريق الموصلة إلى دار النعيم لذا نجد المشرك والكافر والملحد مضطرباً تعشعش في نفسه الأمراض النفسية من خوف وقلق واضطراب وضيق قد يصل ببعضهم إلى حد الجنون ويلاحظ مما أوردته من ألفاظ أسندت إلى النفس توحي بما يعتمل في النفس من مشاعر تنتاب النفس البشرية لذا كان الإمام يسمو إلى العلى يخاطب الذات الإلهية بما يشغل نفسه ، وتأمره بعمله ، وما توسوس به ، خاشعاً بكل جوارحه ، يسلم نفسه إلى الله بارئها ليرضى عنها ويعيدها إليه راضية مرضية فهي أفعال وصفات تنم على قلق وخوف ورعب مما ينتظر الانسان وتدفعه إليه نفسه برغباتها وشهواتها فلا يجد الإمام غير بث شكواه ووجده من كلّ ما تحمله النفس البشرية كي يخلّصها مما يعتورها من شكوك ووساوس وانفعالات ، ويجعلها راضية مرضية تأمن بكنف رحمة الله - عزّ وجلّ - وبفيض رضوانه ومغفرته لتعود الطمأنينة والسكون إلى النفس الخائفة المضطربة.

## الدلالة الإيحائية للألفاظ المؤتلفة مع القلب :

أسند إلى لفظ (القلب) أفعال وصفات يطول الحديث عن كلّ واحدة منها لذا رأيت أن أبحث في دلالات تلك الألفاظ في النص الذي وردت فيه من غير افراد عنوان لكلّ لفظة ، وأبرز ما يسند إلى القلب من ألفاظ هي الألفاظ المعبرّة عن معنى (الحبّ والهيام) ذلك أنّ القلب هو العضو الذي يعتقد كثير من الناس أنه مكمن المشاعر من حبّ وكره وبغض وحزن وفرح وغير ذلك لذا نجد الإمام يكثر من ألفاظ الحب نحو قوله " وهيمت قلبه لإرادتك "[1] وقوله " تطبع على قلوب انطوت على محبتك"[2] وقوله " وقلوبهم متعلقة

(1) الصحيفة السجادية : 295 .

(2) الصحيفة السجادية : 280 .

بمحبتك" [1] وقوله " يا منى قلوب المشتاقين" [2] وقوله " وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم" [3] وقوله " إلهي هامت القلوب الوالهة.. "[4] ومن جميل أقواله في ذلك "واغرس في أفئدتنا أشجار محبتك"[5] فهذه الألفاظ تعبّر عن هيام قلوب المحبين الوالهين العاشقين بربّهم ، وقد غمر هذا الحب قلوبهم بمحبته ـ سبحانه وتعالى ـ حتى يغدو هذا الحب راسخاً في مجامع القلوب لا ينفك منها ، ويغدو لقاء الحبيب أمنية ينتظرها المؤمن ويرجو تحقيقها ، فيهز الشوق قلوبهم ، ويعصف بأرواحهم من فرط حبّهم وفيض شوقهم للقائه سبحانه من حبيب تسامى عن كلّ أوصاف البشر والخلائق ، وغدا حلماً وأمنية تهفو إلى لقائه قلوب المشتاقين ، تأخذ لوعة حبّه مجامع تلك القلوب الوالهة لذا ناجى الإمام ربّه بشوق " إلهي بك هامت القلوب الوالهة فلا تطمئن القلوب إلا بذكراك ولا تسكن النفوس إلا برؤياك " [6]

والهيام شدة العطش، وهو داء يأخذ الإبل من العطش ويضرب به المثل فيمن اشتد به العشق. [7] والوله ذهاب العقل والفؤاد من فقدان حبيب [8] ولو تأملت في النصوص السابقة لوجدتها تزخر بالشوق والحب واللهفة للقاء الحبيب وهو الله ـ جلّت قدرته ـ فكيف أحب المؤمن ربّه ؟ ولمَ أحبّه ؟ وما الصلة الروحية بين العبد وربّه في هذا العالم المزدحم بشتى صنوف الجمال مما يثير مشاعر الحب لها وما الذي يصرف المؤمن إلى حب الإله بهذا القدر ؟ والجواب لا يعرفه إلا من كابد هذا الحب وعاشه ، فالمؤمن التقي الورع الزاهد في

---

(1) المصدر نفسه : 296 .

(2) المصدر نفسه : 296 .

(3) المصدر نفسه : 303 .

(4) المصدر نفسه : 307 .

(5) المصدر نفسه : 311 .

(6) المصدر نفسه : 307 .

(7) مفردات ألفاظ القرآن : 848 .

(8) العين : 808/4 .

الدنيا ينظر إلى الأمور بغير ما ينظر إليها الانسان غير التقي لأن المؤمن الورع لا تغرّه زينة الحياة الدنيا ولا ينساق إلى ملذاتها لأنها في عينه زائلة ﴿ كلّ نفس ذائقة الموت﴾ [ آل عمران 185] فلا يتعلق بالحياة كما قال الإمام "وأخرج حبّ الدنيا من قلوبنا كما فعلت بالصالحين من صفوتك والأبرار من خاصتك"(1)

وحين يتأمل المؤمن في الحياتين الأولى والآخرة يجد أن كل ما في الحياة الدنيا هو من عطاء الله وهباته وفيض رحمته فالمال والأولاد والزوجات والأرض والأنعام وكل جميل يثير السعادة هو من فضائل الله التي أنعم بها على عباده ولا يمنح هذا الجمال إلا من هو أجمل من كلّ شيء فهو الذي جعل لكلّ شيء مقداراً ، وعلم الانسان أن هذه النعم محدودة الأمد لأن عمره محدود وأن ثمة نعماً أكبر وأبهى تنتظره إذا أحسن استغلال نعم الدنيا بحسب ما اختطه الشرع له وشكر الله - سبحانه - على ما أعطاه بعبادته واطاعة أوامره ونواهيه ومعرفة حقيقته فيشتاق المؤمن إلى ذلك اليوم الذي يلقى فيه ربّه وقد أحسن صنعاً في الحياة الدنيا وسار في النهج الذي اختطه له الله بتطبيق تعاليم دينه الحنيف ليلقى ربّه مطمئن القلب ويحظى بغفران الله ورضاه فما أجمل ذلك اللقاء وما أحلاه فهو أجمل من كلّ حبيب وأعظم من كلّ من نرجو لقاءه ، لذا هفت وتهفو نفوس المؤمنين إلى مناجاة الحبيب .

وتدفق هذه الألفاظ الرقيقة التي اعتاد الآخرون من شعراء وغيرهم أن يقولوها للفتيات الجميلات أو الزوجات الرقيقات أو الجاريات اللواتي يبهر جمالهن الناظرين ، هو أقل ما يقوله المؤمنون في مناجاة الحبيب الذي هو أقرب إليهم من حبل الوريد فتتضاءل أشعار الشعراء والمحبين بإزاء ألفاظ الزاهدين العابدين وقد وردت ألفاظ أخرى مسندة إلى القلب منها قوله " تجلى للقلوب بالعظمة"(2) وقوله "وأمات قلبي عظيم جنايتي"(3) وقوله " أحاطت هواجسه

(1) الصحيفة السجادية : 311 .

(2) الصحيفة السجادية : 244 .

(3) المصدر نفسه : 274 .

قلبي"[1] وقوله " أشكو لك قلباً قاسياً"[2] وقوله "مع الوسواس متقلباً وبالرين والطبع متلبساً" [3] وقوله "ورين قلبي لا يجلوه إلا عفوك"[4] وقوله" وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم"[5] وقوله " ما ألذّ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب"[6] وقوله" ولا تمدد لي مدّاً يقسو معه قلبي" [7] وقوله" واجعل قلبي واثقاً بما عندك ... واشرب قلبي عند ذهول العقول طاعتك " [8] وهذه الاستعمالات التي ورد القلب فيها مسنداً إليه أو مفعولاً به أو مجروراً تتوزع على معانٍ منها أن القلب يرى ويدرك غير ما تدركه العيون حين تتجلى عظمة الله لأن تجليها أمر لا تدركه الأبصار " واجعل قلبي واثقاً مما عندك واشرب قلبي عند ذهول العقول طاعتك " فالقلب يرى ويدرك ويثق ويشرب بالطاعة وهو يموت ويحيا ، يموت بالجناية ويحيا بالتوبة ، والقلب يقسوويتقلب يقسو بكثرة المال والخيرات والثروات ويقسو إذا أحاطت به حيل الشيطان وألاعيبه وتلبّس بالرين والطبع ولم يزح ذلك عنه بالعبادة والتقوى التي تتجلى بها عظمة الله ، والقلب يرقّ بذكر الله ومعرفته وانتفاء مخالجة الشك عنه، وانشرحت بتحقيق معرفة الله صدور المؤمنين . فالقلب مجمع للشك واليقين والمحبة والكره ، والهواجس والايمان وكأنه هو الانسان لأنه لبّه الذي يحرك مشاعره فيسمو المؤمن التقي بهذا القلب إلى ملكوت السماء يزيح كل طبع ورين ويفتح للايمان مصاريعه ، فتتكشف له الحجب ويرى الحقائق فيترسخ الايمان ، ويلتصق به حبّ الله ، بل يتفجّر حبّاً لله ويغدو شعاعاً منيراً للآخرين الذين لم تتكشف عن قلوبهم سجف الظلام .

---

(1) المصدر نفسه : 277 .

(2) المصدر نفسه : 278 .

(3) المصدر نفسه : 178 .

(4) المصدر نفسه : 301 .

(5) المصدر نفسه : 304 .

(6) المصدر نفسه : 304 .

(7) المصدر نفسه : 212 .

(8) المصدر نفسه : 214 .

## الدلالة الإيحائية لألفاظ الحب الإلهي :

والحديث عن القلب والروح وما يكتنفها من ألفاظ يقود إلى الحديث عن ألفاظ الحب التي زخرت بها مناجيات الإمام السجّاد تشعر فيها برقة العبادة وصفائها وجمالها قال " وأوردنا حياض حبّك وأذقنا حلاوة ودّك وقربك"[1] وقال وقال " ووصلك منى نفسي ، وإليك شوقي ، وفي محبتك ولهي ، وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي ، ورؤيتك حاجتي وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي، وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي، فكن أنيسي في وحشتي ، ومقيل عثرتي وغافر زلتي، وقابل توبتي ، ومجيب دعوتي ، وولي عصمتي ، ومغني فاقتي ، ولا تقطعني عنك ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنتي ويا دنياي وآخرتي"[2] أما تجد تجد حلاوة مناجاة الحبيب حبيبه وبثّه شوقه ولوعته ، فحبّ الله حياض يدعو الإمام ربّه أن يورده شربه منها ، وودّه كالعسل يدعوه كي يذيقه طعمه . ويكرر الإمام هذا المعنى في قوله " وملأت لهم ضمائرهم من حبّك ورويتهم من صافي شربك " [3] والظمأ إلى الحبيب من الألفاظ المجازية ، فالإنسان يشتاق إلى شرب الماء لأنه حاجة ضرورية فإذا انقطع عنه وقتاً من الزمن تلّهف إلى شرب الماء ويشتاق الحبيب إلى حبيبه ويتلهف إلى رؤيته كما يتلهف الظمآن إلى الماء وهو مما اعتاده الشعراء قال جرير :

كأني إنْ أمامَةُ حلأتني ... أرى الأشراب آجنةً سِداما
كصادٍ ظلّ مُحْتَمّاً لشُربٍ ... فلابَ على شرائعه وحاما
ولو شاءت أمامُة قد نَقَعْنا ... بعذبٍ باردٍ يشفي السقاما [4]

(1) الصحيفة السجادية : 290 .
(2) المصدر نفسه293 ـ 294.
(3) المصدر نفسه : 293 .
(4) ديوان جرير : 538 .

ولا يقف حبّ الإمام للّه ـ سبحانه وتعالى ـ عند حدّ بل يتعداه إلى أبعد حدود الحب حين يقول " ووصلك منى نفسي " أما ترى هذا المحبّ الذي لا يتمنى شيئاً في الحياة سوى وصال خالقه والشاعر يقول :

منى إن تكن حقّاً تكن أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا [1]

ولا أمنية أجمل من لقاء الله والتمتع بوصله والعيش في كنف رحمته ، ويحصر شوقه وحبّه وولهه بالله وحده دون غيره في قوله " إليك شوقي وفي محبّتك ولهي وإلى هواك صبابتي " بتقديم (إلى) و(في) والقارئ يحسّ برقة العبارة وصفائها في هذه العبارات التي ضمت الألفاظ " ولهي ، صبابتي ، بغيتي ، حاجتي ، في قوله ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي ، فلا طلب للإمام سوى رغبته في أن يكون في جوار الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، بل لا سؤال يطلبه في حياته الدنيا غير أن يكون قريباً منه ، وهذا الجوار والقرب من الله يمنحه الراحة والاطمئنان ويستمر الإمام في حصر أمانيه ورغباته في الله وحده كما يحصر المحب رغباته في حبيبه " وفي مناجاتك روحي وراحتي ، وعندك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعتي وكشف كربتي " فالقارئ يحس بعذوبة الألفاظ والعبارات التي تنبض بالحب فتفوح عبقاً وتشع نوراً ينثال من القلب المحب العاشق المتيّم ليشيع في قلوب المؤمنين فما أكثر شوق قلب الإمام ، وأشد لوعته في حبّ الله فمناجاة ربّه فيها روح وراحة وهو عليل لا دواء لعلته إلا عند ربّه ، والغُلّ العطش وهو الغُلة [2] ولا يشفي غُلة الإمام غير رضى الله والقرب منه ، وفي التخصيص الذي لمسناه في هذه الأقوال عذوبة في المعنى لأنّه حصر هذه الأمور في الحبيب الذي لا حبيب غيره ، فهل سمعت عاشقاً بمثل هذا السقم والمعاناة في عشقه حين يقول " عندك دواء علتي ، وبرد لوعتي وكشف كربتي " واللوعة هي الحرقة ، وكثيراً ما تستعمل مع الشوق فيقولون لاعه الحب والتاع قلبه أي احترق من شدّة الشوق ، ولا يبلّ لوعة الإمام

---

(1) زهر الآداب : 1/ 407 .

(2) اصلاح المنطق :33 .

إلا خالقه الذي تعلق قلب الإمام بحبّه ، ولا يكشف كربته ويزيل همّه إلا الذي أحبّه الإمام وهو في ملكوته ـ سبحانه وتعالى ـ فأي حبّ هذا وأي شوق كابده الإمام ولا يجد وسيلة إلا الدعاء ولا ذريعة إلا أن يمدّ يده إلى محبوبه متوسلاً خاشعاً خاضعاً وهو يقول " ولا تقطعني عنك ولا تبعدني منك يا نعيمي وجنّتي ودنياي وآخرتي " ما أرق هذا الدعاء يخرج من قلب لا يشغله شيئ سوى حبّ الله ، ولا يخالجه شعور سوى الشوق إلى الله فيتهدج في هدأة الليل والناس نيام غافلون أو لاهون قائلاً " لا تقطعني عنك ولا تبعدني منك " يقولها بحسرة ولهفة ، وصدق لأن قطيعة المحب لا تطاق ، وبُعده لا يُحتمل فلا لذة لعيشه إلا بوصله ، ولا فرحة له في حياته إلا بالقرب منه ، وقد عبّر الإمام عن هذه الحقيقة بنداء المحب الصادق في حبّه " يا نعيمي وجنتي ، ويا دنياي وآخرتي " فحبيب الإمام يتجلى فيه نعيم الدنيا كلّها ، وجنّة الآخرة كلّها بل هو نعيم الدنيا والآخرة، وجنّة الدنيا والآخرة ، لأن رضى الحبيب هو كلّ ما يملأ خلايا الإمام ويمدّه بالسعادة والحبور ، فتتكامل في زينة الحياة الدنيا والآخرة . فهو كلّ شيء ، وجوده ، وآماله ، وأنفاسه التي تتصاعد فهل رأيت حبيباً ذاب شوقاً في الله غير الإمام السجاد وآل بيته الطاهرين .

ويتساءل الإمام بانكار عمّن عاش هذه الحالة الروحانية وزاغ عنها قائلاً باطمئنان وثقة " من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بديلاً ، ومن ذا الذي آنس بقريك فابتغى عنك حولا " [1]

ذلك أن لمحبة الله ـ سبحانه وتعالى ـ حلاوة خاصة ، لا يستطيع الذي ذاقها إلا أن يظل طوال حياته مستطعماً هذا المذاق الذي لا يضاهيه طعم ، فأي حبّ هذا الذي ملك قلب الإمام وهو يرى أن لا خيار لمن ذاق طعم هذا الحب إلا أن يكون مقيماً على هذا الحب لا يبارحه ولا يبحث عن غيره ، وأيّ حب هذا الذي جعل الإمام ممتلئاً انساً وراحة ، فيجد الكون كلّه دار أنس حين يتوجه بقلبه وجوارحه وكل مكونات كيانه نحو بارئه في مناجياته

---

(1) الصحيفة السجادية : 295 .

وصلواته وخشوعه ناسياً كلّ متاعب الدنيا وأهوالها ومصائبها لأنها خارج مدار احساسه وشعوره ، فقلبه وروحه وجوارحه كلّها في رحلة روحية تقترب من عالم الملكوت الذي يتجلى لها بأنواره وهالاته ، لذا يغدو من المحال أن يبتغي المؤمن عن هذا العالم الروحاني حولاً ، لأن القرب من الله (منى قلوب المشتاقين) و(غاية آمال المحبين) لذا دعا الإمام بقلبه وروحه ضارعاً " أسألك حبّك وحبّ من يحبّك وحبّ كلّ عمل يُوصلني إلى قربك وأن تجعلني أحبّ إلي مما سواك ، وأن تجعل حبّي إياك قائداً إلى رضوانك وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك "[1] فمن أحبّ الله مثل هذا الحبّ غير النبي وآله ﷺ والمؤمنين الصادقين في إيمانهم ومن أحبّ الله وأحبّ من يحبّ الله ؟ من أحبّ الله وأحبّ كل ما يُوصل إلى الله وإن كان هذا الحب شاقاً مضنياً دونه خرق القتاد ؟ من ذا الذي تسامى حب الله في قلبه بمثل هذا السمو ، وتجلى له الله نوراً ساطعاً يملأ دنياه غير النبي وآله والمتقين فالحب في نفس الإمام حقيقة مطلقة لم يدركها شاعر أو فيلسوف فهو القائل لله " يا خير من خلا به وحيد ، ويا أعطف من آوى إليه طريد "[2] فتلك صورة لم يرسمها قبله زاهد أو عابد ولم يقلها أحد بعده بمثل هذا التجلي والتبريح ، وكأني بكل زهاد الدنيا ومتصوفيها وناسكيها قد نهلوا من هذا النهر الزاخر كثيراً من أقوالهم ومصطلحاتهم ومفرداتهم ووردوا من هذا المعين أليس هو القائل " فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم فهم إلى أوكار الأفكار يأوون وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون وشرايع المصافاة يردون ، قد كشف الغطاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم وعذب في معين المعاملة شِربُهم وطاب

(1) الصحيفة السجادية : 296 .

(2) المصدر نفسه : 299 .

في مجلس الأنس سرهم وأمن في موطن المخافة سربهم واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم وتيقنت بالفوز والفلاح أرواحهم وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم ، واستقر بادراك السؤل ونيل المأمول قرارهم ، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم " [1] فتأمل في ألفاظ هذه المناجاة الروحية وصورها ودقق النظر في الألفاظ والعبارات الآتية " ترسخت أشجار الشوق في حدائق صدورهم" " لوعة المحبة "و " مجامع القلوب " و " إلى أوكار الأفكار يأوون " و" القرب " و " المكاشفة " و " كأس الملاطفة " و " شرايع المصافاة " و " كشف الغطاء " و " عن أبصارهم " و " انجلت ظلمة الريب عن عقائدهم " و" مخالجة الشك " و" تحقيق المعرفة " و " سبق السعادة في الزهادة " و" عذب في مجلس الأنس سرّهم " و " اطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم " ... أليست هذه الألفاظ هي المعجم الذي تداوله الزاهدون والمتصوفون في العصور اللاحقة أليست هذه الصور هي الرؤى الحقيقية لكل الطوائف الروحانية التي شاع صيتها في القرون التالية لعصر الإمام فلماذا لا نعود إلى مصدر ألفاظ العشق الروحي المتدفق من قلب الإمام السجاد لنتأمل فيه ونعرف أسراره وندرس مضامينه وصوره أرأيت صورة للمؤمنين الزاهدين المتقين الذين تعلقت قلوبهم بحبّ الله مثل هذه الصور ، أرأيت إلى هذه الثلة من المؤمنين الذين يأوون إلى أوكار الأفكار بعيداً عن مغريات الحياة يتأملون في خلق الله وبدائع صنعه وعظائم آلائه وكأنهم أرواح مسبّحة وعقول نيّرة لا ترى غير جمال الله ولا تؤمن إلا بعبادته وشكر آلائه ،مسبحين في الليل والنهار لا تفتر ألسنتهم عن ذكر الله وهم يعيشون في رياض زاهية لا يدركها الجاحدون الغاوون الضالون بل تعرفها قلوب المؤمنين الصادقين لأنها رياض روحية يعيش فيها المؤمن حين تتسامى روحه لتقترب من الله سبحانه وتعالى تتأمل جماله من خلال جمال خلقه من سماوات ونجوم وشمس وقمر .. وكل ما أبدع صنعه وأحسنه ومنحه هبة للعالمين وكلّما عرفوا ذلك اقتربوا من الله وأدركوا أسرار عظمته وجلاله

---

(1) المصدر نفسه : 303 ـ 304 .

فتتكشف عن أبصارهم وعقولهم غلالات كانت تعصبها فيكرعون من حياض المحبة كؤوساً لا يذوقها إلا من تجلّت لعينه وقلبه تلك الأسرار لذا قال الإمام " قد كشف الغطاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم " لأن قلوبهم آمنت بربها فلا يخالجها شك لذا انشرحت وهلّلت لأنها أدركت الحقائق وأيقنت بها فصاروا أحبّة في الله لا غلّ ولا حقد ولا كراهية فيها ، فهم يردون معيناً عذباً ، تطيب مجالس الأنس بهم حين يتذاكرون ربّهم ويناجون خالقهم ، وقد قرّت أعينهم واطمأنت قلوبهم " بالنظر إلى محبوبهم " أرأيت بشراً كأنهم الملائكة يسبّحون بحمد خالقهم ليلاً ونهارا ، أرأيت هذه الثلة الصالحة التي دعا الإمام ربّه أن يكون واحداً منهم ، وهو قائدهم في زمانهم ومعلّمهم فنون الحبّ الإلهي والعشق الرباني لأنه الزاهد والعابد والساجد آناء الليل وأطراف النهار فهو الذي أحيا بزهده زهد جدّه - رسول الله صلى الله عليه وآله - وآله وأصحابه الغر الميامين ، فهم صفوة العابدين العارفين الكاشفين عن قلوبهم كلّ رين وغطاء لأنّهم أهل بيتٍ أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً .

وأعظم ما في زهد الإمام علي بن الحسين هو غربته في زمن قد تلبس بالضلال والمروق عن الدين وطلب الملذات من شرب الخمور ومجالسة أهل الطرب والرقص والمجون وسيادة قانون الظلم وسفك الدماء وضياع حرم الله لذا تأتي هذه المناجيات الروحية ناقوساً يدق في عالم الليل المظلم حين يناجي حبيبه العظيم - سبحانه وتعالى - هذه المناجاة الروحية الصافية " ما ألذ خواطر الإلهام بذكرك على القلوب ، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب وما أطيب طعم حبّك ، وما أعذب شرب قربك " [1] قال الخليل " خطر على بالي وببالي كله يخطر خطراناً وخطوراً إذا وقع ذلك في بالك وهمك " [2] فخواطر الإلهام ما يوحيه ذكر الله سبحانه وتعالى من خطرات تحرّك القلوب

---

(1) الصحيفة السجادية : 304 .

(2) العين : 4/ 214 .

نحو حبّه والمسير، إلى الله في مسالك الغيوب رحلة شاقة لا زاد فيها للمؤمن غير إيمانه ويقينه وهو يخلو في عالم روحاني بعيد عن ضجيج الحياة التي تعجّ بما يثير الأوهام والظنون فيزيح المؤمن بهذه الرحلة الشاقة كلّ وهمٍ وكلّ ريبٍ ، ويوجه وجهه إلى الحبيب ، وتلك أحلى رحلة في حياة المؤمنين الصادقين فيها يذوقون طعم حبّ الله ويستطيبون شرب قربه .

## الدلالة الإيحائية للألفاظ المؤتلفة مع الحواس والجوارح :

حواس الإنسان معروفة وهي السمع والبصر والذوق واللمس والشم وقد أسندت إلى الأعضاء المسؤولة عن هذه الحواس أفعال ووصفت بصفات عبّرت عن تسخير هذه الأعضاء لعبادة الله وطاعته فأسند الإمام إلى السمع ألفاظاً كثيرة نمت على قدرته التعبيرية قال " تصمّ أسماعاً تلذذت بسماع ذكرك"[1] فالسمع يتلذذ قال الخليل " شرابٌ لَذّ ولذيذٌ يُجريان مجرى واحداً في النعت، ويلذّ لذاذةً ولذذت الشيء وجدته لذيذاً ، ويجمع اللّذّ لِذاذاً قال :

تلومُ على لذٍ من العيش أغيدِ

وتقول : ما كنتَ لذاً ، ولقد لذذت بعدي "[2]

وقد جعل الإمام السمع كالشخص يتلذذ ويستطيب بسماع ذكر الله ويتساءل في دعائه ربّ العالمين " إلهي هل تسوّد وجوهاً خرّت ساجدة لعظمتك أو تخرس ألسنة نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك "[3] وقد وردت الألسنة موصوفة بالنطق ولسان المؤمن التقي لا ينطق إلا بعبارات الثناء على الله والتسبيح بحمد خالقه والتعظيم لجلاله ، ولا تعرف النطق بالفحش أو الكلام البذيء أو الطعن بالناس بل تراه مسبّحاً بحمد الله دائباً على ذكره ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد 28] وجعل الإمام ذلك من أعظم النعم

---

(1)الصحيفة السجادية : 280 .

(2) العين : 8/ 176

(3) الصحيفة السجادية :279ـ 280 .

علينا قال إمام الساجدين " ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا"[1] وقوله هذا يوحي بمعنى بعيد قال الراغب الأصفهاني " الجري المرّ السريع وأصله لمر الماء ولما يجري جريه ." [2] والمعروف أن جري الماء في النهر مستمر لا ينقطع ، وكلّ جريان فهو استمرار تدفقه من دون انقطاع لذا أضاف الإمام الجريان إلى الذكر فكأن ذكر الله مستمر في جريانه على ألسنة المؤمنين من غير انقطاع .

وعين الإنسان ترى الحسن والقبيح ، وترى النور والظلام ، لكن الإمام لا يريدها تنظر إلى ما في الوجود من كائنات فقط لأن هذه أمور - وإن كانت تروق للناظر - زائلة لا محالة فلا تملأ عين المؤمن الورع التقي لذا يجد الإمام غايته من النظر ويحصرها في محبوبه وسيده وخالقه ربّ العالمين قائلاً " وامنن بالنظر إليك عليّ ، وانظر بعين الودّ والعطف إليّ " [3] وتلك نعمة من الله أن يمنّ على المؤمن بجعله قادراً على النظر إلى الله ، ويقرب الإمام هذه الصورة الجميلة بالتفاتة أجمل وذلك بدعوة الله سبحانه وتعالى بأن ينظر هو إلى عبده بعين الود والعطف ، وتلك من أحسن الاستعمالات ، فتمكن العبد من رؤية منة من الله على عبده ، ونظرة الله سبحانه وتعالى بعين العطف والود إلى عبده منة أخرى ، وفي الحالين يسعد المؤمن بنظر ، ولكن ثمة فرق بين النظرتين نظر العبد متمتعاً بجمال الله المشّع في الأكوان ، ونظر الله إلى عبده بالعطف والود ، ولا تدري أي النعمتين على العبد أكبر فكلاهما لا ينالهما إلا المؤمن التقي الذي يحظى برضى الله ومحبته لأن النظر إلى الله - جلّ وعلا - تقرّ به عيون المؤمنين لذا قال الإمام " وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم " [4] لأن ذلك مما تتمناه قلوب المؤمنين لأن الله أعظم من أن يراه البشر لذا

---

(1) المصدر نفسه : 306 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن : 194 .

(3) الصحيفة السجادية : 296 - 297 .

(4) المصدر نفسه : 304 .

قال الإمام " وانحسرت الأبصار دون النظر إلى سبحات وجهك "[1] لأن جوارح الإنسان وحواسه لا تدرك بطاقاتها المحدودة رؤية الله ـ جلّ وعلا ـ أو معرفة كنهه ، بل يعرفه المؤمن بقلبه وعقله ، لذا يأتي النظر والإبصار في موضع المجاز وهذا ما أفصح عنه تعبير الإمام " حتّى إذا انفتح له بصر الهدى وتقشعت عنه سحائب العمى"[2] وقوله " يا من أنوار قدسه لأبصار محبيه رائقة "[3] فلا الأنبياء و لا الرسل ولا الأولياء بقادرين على رؤية الله ـ جلّ وعلا ـ وقصة موسى (عليه السلام) معروفة في قوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربِّ أرني أنظر إليك . قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربُّه للجبل جعله دكاً ، وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبتُ إليك ، وأنا أول المؤمنين ﴾ [الأعراف 143] فلا يرى البشر الله في الحياة الدنيا ، ولكن الأولياء المؤمنين يملؤون قلوبهم بالإيمان بربهم حتّى كأنهم يرونه من خلال عجائب صنعه ، وبدائع خلقه ، وعطاء آلائه ، فهم يرونه بقلوبهم، قال الإمام " واقشع عن بصائرنا سحاب الارتياب ، واكشف عن قلوبنا أغشية المرية والحجاب "[4] .

ومن الجوارح التي ائتلفت في مناجيات الإمام اليد فهي التي تُمد إلى السماء تدعو ربّ العالمين كما جاء في قول الإمام " إلى سعة عفوك مددت يدي ، وبذيل كرمك أعلقت كفي "[5] وقوله " خرجت من يدي أسباب الوصُلات إلا ما وَصَله رحمتُك "[6] وسخّر الإمام كلّ جارحة من جوارحه لخدمة الله والتوسل إليه والإيمان به إذ قال " توبة تسلم بها كلّ جارحة على

(1) الصحيفة السجاية : 303 .

(2) المصدر نفسه : 132 .

(3) المصدر نفسه : 296 .

(4) المصدر نفسه : 290 .

(5) المصدر نفسه : 299 .

(6) المصدر نفسه : 139 ـ 140 .

حيالها " [1] ويلاحظ فيما نسجه الإمام في هذه الاستعمالات سعيه إلى تسخير المجاز وذلك لتجسيد الصور وابراز جمالها في حلل قشيبة تظهر ضعف كلّ ما في جسم الإنسان ، وضآلته حين يقف المرء خاشعاً أمام ربّه داعياً ومستغفراً ، ساجداً راكعاً مستجلياً حقائق هذا الكون مقرّاً ومعترفاً بعظمة خالقه الذي أحسن صنع كلّ شيء ويتجلّى ذلك في إضافة السحائب إلى العمى ، والأنوار إلى قدسه ، والجريان إلى الذكر ، والعين إلى الود واللطف ، واسناد (قرّت) إلى (الأعين) وغيرها من الاستعمالات المجازية الجميلة التي خَلَعَت على عباراته جلابيب الحسن والجمال فضلاً عمّا تؤديه من معاني الزهد والورع والتقوى والسياحة في عوالم ملكوت السموات .

## دلالة الألفاظ والتراكيب على سلطان الله في نفوس العابدين :

الله نور السموات والأرض لا يراه البشر ولا يواجهونه ولا يسمعون له صوتاً ، ولا يحيطون بشيء من كنهه ، غير أن الرسالات النبوية على مدى تاريخ البشرية أفادت البشر بأن الله إله الكون ، ونور السموات ، وخالق الكون من سموات وأرضين وبشر وكائنات أخرى تدل على وجوده مخلوقاته وأنظمة الكون وأسرار الحياة ، فضلاً عن المعجزات التي أجراها - سبحانه - على أيدي الرسل فصدّق بها قوم وآمنوا بها وكذّب قوم وكفروا ، ولقد وصل الإيمان في نفوس ثلة من العباد الخاشعين المؤمنين حدّاً صاروا فيه محبين يملأ قلوبهم حبّ الله وارتقت أرواحهم إلى مدارج عليا من الإيمان حتى صاروا يرون الله بقلوبهم وضمائرهم ووجدانهم ، وتستطيع أن نلمس ذلك في العالم الروحي الذي عاشه الإمام علي بن الحسين فهو يخاطب الله ويناجيه وكأنه يناجي حبيباً لا يستطيع فراقه ، قال " إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك ، وأخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته إلى لقائك ، ورضيته بقضائك ، ومنحته بالنظر إلى وجهك ، وحبوتهِ برضاك ، وأعذته من هجرك وقلاك ، وبوأته

(1) المصدر نفسه : 136 .

مقعد الصدق في جوارك ، وخصصته بمعرفتك ، وأهلته لعبادتك ، وهيّمت قلبه لإرادتك ، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك ، وفرّغت فؤاده لحبك ، ورغّبته فيما عندك وألهمته ذكرك ، وأوزعته شكرك وشغلته بطاعتك ، وصيّرته من صالحي بريتك ، واخترته لمناجاتك ، وقطعت عنه كلّ شيء يقطعه عنك "[1] ألا ترى أن هذه الجمل والألفاظ هي اشعاع من قلب الإمام الذي ملكه حبّ الملك القيوم ، تدفقت بعفويّة عندما وصف المؤمنين الأتقياء الذين سمت قلوبهم إلى ملكوت الإله، فالفعل (اصطفى) في هذا الوضع يذكرنا باصطفاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنبياءه ورسله، قال الراغب الأصفهاني " والاصطفاء تناول صفو الشيء ، كما أن الاختيار : تناول خيره ، والاجتباء : تناول جبايته ، واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بايجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره ، وقد يكون باختياره وبحكمه ، وإن لم يتعرّ ذلك من الأول قال تعالى ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ [الحج 75] ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً﴾ [ آل عمران 33] ﴿اصطفاك وطهّرك واصطفاك﴾ [آل عمران 42] ﴿اصطفيتك على الناس﴾ [ الأعراف 144] و ﴿ وإنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾[ص47] "[2] .

ولما كان نبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل ، فإن لفظة الأصفياء دلت على اصطفاء الأولياء والصالحين قال تعالى : ﴿قل الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى﴾ [النمل 59] فالله يصطفي لقربه من طهّر قلوبهم من كلّ رجس وجعلهم من أوليائه الصالحين . والفعل ( أخلصته) أي جعلته خالصاً وقد تعلّق بالفعل حرف (اللام) وقد جرّ كلاً من (ودّك ومحبتك) قال الراغب الأصفهاني " الخالص كالصافي إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه ، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه ، ويقال خلّصته فخلص ... ويقال هذا خالص وخالصة نحو داهية وراوية ، وقوله تعالى ﴿فلَمّا استيأسوا منه

(1) الصحيفة السجادية : 295 ـ 296 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن 488 .

خلصـوا نجيّـاً﴾ [يوسـف 80] أي انفـردوا خالصـين عـن غيرهـم " [1] وهـؤلاء المؤمنـون أخلصـهم الله لـودّه ومحبتـه دون غيرهـم ، والفعـل (شـوّقته) أي زدت شوقه إلى لقائك، وشوق المؤمن يزداد كلّما أدرك أنه عرف معادلة الحياة التي تحدثنا عنها بما يحدثه الله في قلوب المؤمنين من يقين صادق بأنّ كلّ شيء في الحياة يتحدث عن نعم الله على الإنسان وكلّ نعمة توجب شكره ، وكلّ شكر يوجب شكراً، ويعلم أنّ هذه الآلاء والنعم محدودة لو قابلناها بنعم الاخرة الدائمة على الفائزين برضى الله وغفرانه لذا يتعمّق حبّ الله ويزداد شوقه إلى لقائه في ذلك اليوم العظيم ، وفكر قليلاً في قوله " ومنحته بالنظر إلى وجهك " فالنظر إلى وجه الله منحة يمنحها الله عباده الصادقين ولفظ (وجهك) مجاز يراد به سنى نوره المشع على المؤمنين لأن الوجه للإنسان والحيوان ولا يمكن أن نجسّد الله بصورة كائن من مخلوقاته ، ويراد من هذه التعبيرات المجازية التي وردت في القرآن الكريم ﴿ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن 47] وقوله تعالى ﴿ فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ [البقرة 38] وقوله تعالى ﴿ إنّما نطعمكم لوجه الله ﴾ [الإنسان 9] ذات الله ، وقد قرّب الله هذا المعنى بما هو مألوف في استعمالاتهم قال الطبرسي " كلّ شيء هالك إلا وجهه أي إلا هو ويبقى وجه ربّك أي ويبقى ربّك " [2]

وتأمل في الأفعال الأخرى (حبوته) و(أعذته) و(بوأته) فكلّها أفعال مقترنة بنعم الله على الإنسان لأن رضى الله نعمة ، وإعاذة المؤمن من هجران الله وبعده نعمة وتبوّؤه مقعد صدق نعمة لا يحظى بها إلا المؤمنون الخاشعون العابدون الزاهدون . وقد ذكرت أن هذه النعم يخصّ الله بها المؤمنين الصادقين لذا قال الإمام " وخصصته بمعرفتك " وذلك قول عظيم لأن معرفة الله حق معرفته يوصله إلى أن يُخلص قلبه وجوارحه وكلّ مشاعره وأحاسيسه لله وحدهَ الذي تتضاءل بإزاء آلائه كلّ عباداتنا وطقوسنا وصلواتنا وابداء آيات

---

(1) المصدر نفسه : 292 .

(2) مجمع البيان : 1 / 191 .

شكرنا ، لذا يجد العبد المؤمن نفسه مقصراً في كل حين لأنه لا يستطيع الوفاء لما أسبغه الله عليه ، وهذا ما لمسناه في أدعية الإمام زين العابدين واستغفاره ومناجياته .

ويأتي الفعل (أهلته) أي جعلته أهلاً لعبادتك أي خليقاً بعبادتك وجديراً بها ولولا هداية الله لكن من الغاوين ، ولكان مصيره الخزي في الدنيا وفي الآخرة ، قال الخليل " وأهّلته لهذا الأمر تأهيلاً ومن قال وهلتُه ذهب به إلى لغة من يقول وامرتُهُ وواكلتهُ " [1] وقد مر بنا الفعل (هام) ومصدره (الهُيام) والجديد في هذا الاستعمال (هيّمت قلبه لإرادتك) أي جعلته عطشاً متشوقاً لإرادتك والرغبة في عبادتك واطاعتك والشوق إلى لقائك وقربك ، فالهيام المسند إلى القلب قد أضيف باللام - على رأي سيبويه - إلى الارادة وهو معنى جميل أي جعلته هائماً يريد وجهك ويسعى لمعرفتك كي يمجّدك ويعظّمك ويسبّحك وتلك نعمة أخرى ، والفعل (اجتبى) أي اختار واصطفى قال تعالى ﴿فاجتباه ربّه ﴾ [القلم 50] وقال تعالى ﴿وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها ﴾ [الأعراف 203] قال الراغب " واجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعي من العبد وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم من الصديقين والشهداء ... قال تعالى ﴿يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ [الشورى 13] " [2] وقد اضيف الاجتباء باللام إلى مشاهدة الله - جلّ وعلا - فالله يجتبي ويختار من الأنبياء والصديقين والأولياء الصالحين لمشاهدته في قلوبهم أو لرؤيته يوم القيامة وتلك نعم كبيرة على المؤمنين .

وتأمل في الفعلين (أخليت) و(فرّغت) تجد مفعوليهما (وجهه) و(فؤاده) وتصوّر عابداً زاهداً قد أخلى وجهه من كلّ من يستحق المواجهة والمقابلة سوى الله فلا يرى في الكون من هو أعظم منه يستحق أن يولي وجهه إليه ويسلم أمره إليه ، وكأن الملوك والجبابرة والسلاطين والتجار وأصحاب الشأن لا

(1) العين : 4 / 89 .

(2) مفردات ألفاظ القرآن : 186 .

يستحقون أن يولي وجهه إليهم ، لأنه يرى أنّ من هو أعظم منهم جدير بأن يقبل عليه وتقرّ به عينه ، وذلك لأن الله منّ عليه (ففرغ فؤاده) لحبّه فلا حبيب آخر يشركه في حبّه ولا مجال في فؤاده ليُشغل بغيره وتلك نعمة عظمى يمنّ الله بها على المؤمنين الزاهدين .

وقد ذكرت أن الأفعال (رغبته فيما عندك) و(ألهمته ذكرك) و(أوزعته شكرك) و(شغلته بطاعتك) و(صيرته من صالحي بريتك) في استعمالاتها هذه وما أسندت إليه من ألفاظ وما أحاط بها من سياق تدلّ على نعم الله على المؤمن العابد الذي عرف ما عند الله من آلاء ونعم فرغب فيها ، وأحبّ الله شكراً عليها وألهمه القدرة على ذكر الله في كلّ وقت حتى لا يفتر لسانه أو قلبه عن ذكر الله ، ومن اتصل في قلبه ذكر الله لم يجر على بشر ولم يغمط حقّاً ولم يأخذ ما ليس له فيطعم المساكين والفقراء والمعوزين ، ويرعى اليتامى والقاصرين ابتغاء مرضاة الله الذي يعيش في قلبه ولا يكلّ عن ذكره لسانه فيصبح برحمة الله من الصالحين الأتقياء. فإن نال ذلك الفضل الكبير فقد اختاره الله لمناجاته ، والتلذذ بذكر صفاته وآلائه ، وابتعد عن كلّ شيء يقطعه عن ذكر الله ومناجاته ، أولئك المؤمنون حقاً وأولئك الأتقياء.

وهذا دأب الإمام في التصرف في استعمال الألفاظ يفضي إلى الوصول إلى المعنى المقصود فهو يتساءل في مناجاة ربّه قائلاً " كيف أنساك ولم تزل ذاكري ، وكيف ألهو عنك وأنت مراقبي "[1] ويدعوه متضرعاً " فاسلك بنا سبل الوصول إليك ، وسيرنا في أقرب الطريق للوفود عليك ، قرّب علينا البعيد ، وسهّل علينا العسير الشديد"[2] ومعلوم أن الاستفهام هنا لا يراد به الاستفهام الحقيقي ، لأنه ينكر على نفسه أن تنسى الله وينفي ذلك عنها لأن الله يذكر عبده على الدوام ، وينكر على نفسه أن تلهو عن الله أو أن تنساه طرفة عين لأن الله يرى كلّ حركاته وسكناته ، لذا يتوسّل إلى ربّه أن يهديه

(1) الصحيفة السجادية : 283 .

(2) المصدر نفسه : 292 .

إلى سبل الوصول إليه في قوله " فاسلك بنا سبل الوصول إليك " والفعل اسلك أمر خرج إلى الدعاء من سلك التي مرّ ذكرها ، والوصول إلى الله يمر بطريقين : العقل والقلب ، فالعقل يستدل على الغائب بالحاضر ، والقلب السليم الذي لم ترن عليه أدران الضلالة يمتلئ بالإيمان الصادق النابع من معرفة حقيقية بالله - جلّ وعلا - وهنا تدهشنا عبارة الإمام وهو يدعو ربّه - سبحانه وتعالى - " قرّب علينا البعيد وسهّل علينا العسير الشديد " فهي عبارة نابعة من قلب ولي مؤمن بكرامات الله ومعجزاته يدعوه ليقرب عليه كلّ ما يراه غير المؤمن أمراً بعيداً ، ويسهل عليه ما يبدو لغير الزاهد عسيراً شديدا 0

والإمام علي بن الحسين (عليه السلام) مؤمن بأن الله - جلت قدرته - يجيب دعوة الداعي إذا دعاه وهو القائل ﴿أمَّن يُجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ [النمل 62] لذا قال " يا من إذا سأله عبد أعطاه وإذا أمّل ما عنده بلّغه مناه وإذا أقبل عليه قرّبه وأدناه " [1] . وقال في المناجاة نفسها " إلهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قرّيته ، ومن الذي أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته"[2] وهذه الأسئلة تقرّ بأن كلّ عبد مؤمن صادق في إيمانه نزل بباب رحمة الله ملتمساً قراه فلا بدّ من أن يقريه ، وكل من أناخ بباب رحمة الله مرتجياً نداه فلا بدّ من أن يوليه رعايته ورحمته ، وانظر إلى عبارات الإمام وهو يناجي الله " وكيف أؤمل سواك ، والخلق والأمر لك أأقطع رجائي منك ؟ وقد أوليتني ما لم أساله من فضلك أم تفقرني إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك يا من سعد برحمته القاصدون " [3] وتأمل في كل استفهام ورد في هذه العبارات تجد أن الإمام يخلق من هذه العبارات جسوراً بين الأرض والسماء فيشد قلوب المؤمنين إلى الخالق العظيم لتربط أرواحهم وضمائرهم وآمالهم وطموحهم وكلّ ما يخطر ببالهم وحده دون غيره فقوله " أم تفقرني إلى مثلي " عبارة قصيرة

(1) الصحيفة السجادية : 282 .

(2) المصدر نفسه : 282 .

(3) المصدر نفسه : 282 - 283 .

لكنها تحوي من المعاني ما يعجز المرء عن تبيانها فالمقصود شيء عظيم لا نظير له يملك كلّ شيء وقادر على كل شيء بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير ليس كمثله شيء فإن قصده المؤمنون فلا يخيبون ولا يُذلّون ولا يُصدّون لأنّ ما يُعطون صادر عن عظيم الشأن الذي ليس له مثيل تساءل الإمام متعجباً كيف يقصد الناس الملوك والأغنياء والسلاطين وهم بشر مثلهم يرزقهم الله، ويملكون بإرادة الله وهو الذي ينزع منهم الملك متى شاء قال تعالى ﴿قلِ اللهم مالك الملك تؤتي الملك مَن تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنّك على كلّ شيء قدير﴾ [ آل عمران 26] وهذا هو سرّ عجب الإمام ممن يقصد البشر ويمدّ يده ويذلّ إلى من هو مرزوق مثله ولا يتجه إلى من رزق ذلك الحاكم أو الملك وهو الله الذي بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير فعبارات الإمام عليه السلام فيها رصانة التأليف ودقة الاختيار للألفاظ وجمال التأليف ، تتراءى لك من خلالها صور حيّة تجسّد المعاني فما أجمل قوله:" مَن الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته " فالعبارة ترسم لك صورة مسافر في صحراء ينزل بمن يقريه ويطعمه ويؤيه من برد ومطر ، ومن حرارة الشمس وهبوب الرياح ، وكذلك حال المؤمن الزاهد المسافر في رحلة الحياة يبحث عن طريق الهداية ، وينزل بباب رحمة ربّه يسأله ما يشاء فيجيب دعوته لأنّه أقرب إليه من حبل الوريد ، وما أجمل قوله " ومن أناخ ببابك مرتجياً نداك فما أوليته " فأنت تتخيل كثيراً من الشعراء والواقفين على أبواب الملوك ينيخون إبلهم بإزاء تلك الأبواب يرتجون عطاياهم وقد يحظى بعضهم بذلك وقد يكون الحاجب مانعاً لذلك وقد يكون مزاج الحاكم وحالته النفسية في أسوء أحوالها فلا يجد الطالب غير الذل والإهانة وربّما القتل ، لكن المؤمن الزاهد الذي يتوجه إلى ربه في سكون الليل بقلبه وروحه وكلّ جوارحه يعبده ويدعوه فلا يصدّه أحد ولا يحجبه عن رحمة الله حاجب بل يجد رحمة الله أوسع من كلّ عطاء قال تعالى ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ [الأعراف 156 ] لذا وجد المؤمنون باحة رحمة الله خير مناخ يعرضون فيها همومهم ، ويسألون الله عطاياه وهباته .

## الدلالة الإيحائية لألفاظ التضرع والخشوع :

تغلب على الصحيفة السجادية روح الخشوع والتضرّع والتذلل والاستكانة لله الواحد الأحد فهي كما ذكرت مجموعة أدعية ومناجيات يفزع بها الإمام عليه السلام من عالم الحياة الدنيا المليء بالمعاصي والذنوب ليخلو مع ربّه الغفور الرحيم يدعوه لنفسه وللمسلمين كافة ، ويتوسل إليه بكلّ عبارات الخضوع أن يرحم هذه الأمة ، ويعفو عن المخطئين ، فيجد لذة روحية في هذه الرحلة الوجدانية حيث الصفاء والصدق والتجرّد من رغبات النفس وشهواتها وحيث الرحمة والغفران وكل ما يحيط بعالم السموات من هيبة وجلال وسلطان ، فيتصاغر الإنسان ويتضاءل بإزاء هذا العالم المهيب الذي تصطف فيه الملائكة يسبحون بحمد ربّهم مطيعين منيبين إلى الله فلا إثم ولا عدوان ولا عصيان بل يرى العبد بقلبه العالم الرباني يحيط بهذا الكون ينظمه بقدر ، ويسيّره بقدر ويحركه بقدر ، وكل شيء في الكون يجري بأمر الله وبإرادته فهو الذي يحيي ويميت وهو الذي يخلق كلّ شيء بقوله كن فيكون ، فما أصغر الإنسان بإزاء هذا العالم العظيم ، وما أضعف المخلوق بإزاء الخالق ، وما أهون المذنب بإزاء السلطان العادل وفي خضم هذه الموازنات الروحية كان الإمام عليه السلام يعتكف في صومعة عباراته لتصدع قريحته بتلك المناجيات الروحية يستغفر ربّه ويدعوه ويناجيه ويبثه شوقه ولوعته ، يسلم كيانه بين يدي قدرته لذا جاءت ألفاظه تفصح عن الخشوع والتذلل فتقرأ قوله (عُبَيْدك بفنائك) (فقيرك بفنائك) و(عنت الوجوه لخشيته) وغيرها من العبارات الرقيقة ، فلم يكتف الإمام بقوله (عبدك) بل صغر الاسم ليزيد من دلالة اللفظة على العبودية تحقيراً وتذليلاً أمام عظمة من يقف في فنائه ، ووصف نفسه بالفقير الذي يفتقر إلى عطاء الله ورحمته الذي تعنو الوجوه وتذل خوفاً من غضبه إذ قال " وانقاد كلّ عظيم لعظمته " وقال " عنوت بالاستكانة لديك " والفعل (عنا) يعني خضع وذلّ والعاني الأسير ولا شكّ في أن الأسير يذوق طعم الذل والخشوع ممن أسره لذا جمع الإمام عليه السلام الفعل (عنا) مع الفعل (استكان) فقال " عنوت بالاستكانة لديك " وقد يصرّح الإمام

عليه السلام بأفعال التضرّع والخشوع في نحو قوله " لك تخضّعي وسؤالي، وإليك تضرّعي وابتهالي "[1] وقوله " ها أنذا بين يديك صاغراً ذليلاً خاضعاً خاشعاً خائفاً معترفاً بعظيم من الذنوب تحملته ، وجليل من الخطايا اجترمته "[2] والصاغر كما جاء في كتاب العين " الراضي بالضيم ، وصغُرَ يصغُرُ صُغراً وصغاراً وتصاغرت إليه نفسه ذلاً ومهانة "[3] أما الذليل فمن كان ذله عن قهر وكذلك الخاضع أي المتضرّع والخاشع المتضرّع كذلك وأكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح ، والضراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب ولذلك قيل إذا ضرع القلب خشعت الجوارح قال تعالى ﴿ويزيدهم خشوعا﴾ [الإسراء109 ] وقال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ [ الأنبياء 90 ] فالخشوع والتضرّع والتذلل لله كلها بمعنى واحد ، وهذا ما يقرنه الإمام بألفاظ أخرى فيها مبالغة في الخشوع والتضرّع نحو قوله "لك تخضّعي ... وإليك تضرّعي ..." فلفظة (تخضّع) فيها كثرة في إبداء الخضوع أي زيادة في الخشوع ، ومثل التخضّع التضرع الذي يعني التذلل وكذلك التضرع إلى الله : التخشّع ، وقوم ضرَعَة أي متخشعون من الضعف "[4] واستعمال الإمام هذه الألفاظ في أكثر من مناسبة يظهر معرفته الدقيقة بالموازنة التي ينبغي أن يجريها كل انسان بين العبد وربّه ، والمخلوق وخالقه والفقير والغني عن عباده والضعيف والقوي المكين ليدرك أن الإنسان أثر زائل بجسمه من ملايين الملايين ممن يحدثهم الله ثم يزيلهم من الحياة ليكون عظاماً نخرة تأكل الديدان من لحمه وجلده أما الله فهو باقٍ دائم ، ومتى استوثق الانسان من ذلك بعقل عرف أنه مهما تذلل إلى ربّه وخشع وتخضّع فهو أضعف من أن يواجه ربّه إلا إذا شمله برحمته، وهذا الإيمان حدا بالإمام عليه السلام إلى أن

---

(1) الصحيفة السجادية : 301 .

(2) المصدر نفسه : 205 .

(3) العين : 4 / 372 .

(4) العين : 1 / 270 .

يقول " إلهي ارحم عبدك الذليل ، ذا اللسان الكليل ، والعمل القليل ، وامنن عليه بطولك الجزيل واكنفه تحت ظلك الظليل "[1] توسّل إلى الله أن يسبغ عليه من رحمته كي يمكنه من دعائه ومناجاته ويدل على ذلك قوله عليه السلام " ذا اللسان الكليل " فلسانه لا يستطيع النطق من هيبة الله وجلال قدره، بل يذهب الإمام إلى أبعد حدّ في الخشوع حين قال " إلهي لولا الواجب من قبول أمرك، لنزهتك من ذكري إياك ، على أن ذكري لك بقدري لا بقدرك، وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أُجعل محلاً لتقديسك ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا ، وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك"[2] . أي زاهد يقول مثل هذا القول ، وأي عابد تصل مراتب إيمانه إلى مثل هذه الدرجات من التقوى وأي متصوف أو مؤمن أو تقي تتسامى روحه ليجعل ذكر الله أسمى من أن يجري على لسانه لأن شأن الإنسان أضعف من أن يذكر - ولو ذكراً - هذا السلطان العظيم الذي يقف اللسان كليلاً عن النطق بذكره لأنه أعظم من أن يجري ذكره على لسان ، ولولا أنّ ذكره أمر من الله - سبحانه وتعالى - ووجوب الطاعة لهذا الأمر لكان كما قال الإمام لنزهتك من ذكري إياك ، ولكن العبد لا بد له أن يطيع أمر الله حين قال ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا﴾ [ البقرة 198 ] وقال تعالى : ﴿فاذكروني أذكركم﴾ [البقرة 152] إن البدن ليرتجف حين يسمع قول الإمام السجاد ينزه الله حتى عن ذكره على ألسنة الناس بل يذهب أكثر من ذلك فيرى أنّ ذكر الله يوجب شكره وحمده وكيف لا تقشعر الأبدان وأنت تسمع الإمام عليه السلام يقول على أن ذكري لك بقدري لا بقدرك وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلاً لتقديسك ، فمهما نذكر الله ونسبحه ونقدسه ونعظمه فلا نصل إلا إلى الحد الذي نقدر عليه ، وليس القدر الذي هو عليه لأن القدر الذي هو عليه أكبر من أن يدركه بشر وأعظم من أن يحدّ

(1) الصحيفة السجادية : 302 .

(2) المصدر نفسه : 306.

بـذكـر صـفـات أو أفعـال أو آثـار نلمسـها ونحسـها بقـدر حـدود معرفتنـا وأنـى للإنسـان أن يعـرف قـدر الله الـذي هـو عليـه في قدراتـه الـتي لا نحـيط بهـا ولا ندركها ولا نشعر بها ، وما أقلّ من قال مثل هذا القول لمعرفة الإمام المتصلة بمعرفة جدّه النبي ﷺ بقدرات الله - سبحانه - المطلقة غير المحدودة لذا استكثر الإمام على نفسه أن يكون محلاً لتقديس الله فقال في أجمل عبارات سمعتها " وما عسى أن يبلغ مقداري .." وكل باحث منصف يعرف مقدار هذا الزاهد العظيم الذي لا أريد أن أنسبه إلى جدّه وأبيه عليهما السلام ولا إلى جدّه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فذلك فخر لا حدود له بل أقتصر على القدر الذي ناله بزهده وعبادته وصبره وعلمه حيث كان يطوي الليل ساجداً عابداً مسبحاً ويقضي النهار معلماً ومفسراً وفقيهاً ومحدّثاً ومصلحاً وعالماً لا يضاهيه أحد في زمانه في أي من هذه الصفات وغيرها إلا الصفوة من المتقين الأطهار الذين نهلوا من معين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتذكر الكتب أنّ الإمام هو الذي انزاحت جموع الحجيج من الكعبة اكراماً له وإعظاماً لقدره يقول ابن خلكان لمّا حجّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه فطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليتسلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فيما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم وكان مَن أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً فطاف بالبيت فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلم ... وفي ذلك قال الفرزدق معرّفاً هشاماً به :

هـذا الـذي تعـرف البطحـاء وطاتـه والبيت يعرفه والحل والحرم .. [1]

(1)

أسوق هذه الحادثة لأذكّر بقدر هذا الإمام العظيم الشأن ومكانته في عصره فهو أشهر من الخليفة في ذلك الزمان ، وأقرب إلى نفوسهم وأعظم من أي فقيه أو عالم في زمانه يتنحى الناس عنه في موسم الحج الذي يتساوى فيه

(1) وفيات الأعيان : 6 / 96 .

العباد إكباراً لقدره غير أنه حين يقف بين يدي ربّه يقول مثل هذا القول ذي المغزى العميق الذي لا يدرك الناس أسراره ، ولو تأملنا في القول مرة أخرى واستنبطنا المعاني الكبيرة التي توحي بها هذه الألفاظ لوجدنا أن صاحب هذا القدر الجليل يستكثر على نفسه أن يكون محلاً لذكر الله أي يكون لسانه لهجاً بتقديس الله فما أسمى التقديس والمقدّس ، وما أعظم التسبيح والمسبَّح وما أجلّ هذا الذكر وصاحب الذكر فأي قدر هو قدر الله - جلّ وعلا - وأي شان شأنه حتى يرى الإمام أن نفسه غير جديرة بأن تجري ألفاظ تقديس الله على جارحة من جوارحه وها هي الناس - الغافلة عن معرفة قدر الله - تمضغ اسم الله في الصغيرة والكبيرة تحلف باسمه العظيم وتشهد الزور بعد القسم باسمه ، ويلغو بعضهم ويهذي من غير أن يعرف قدر نفسه الضئيلة ومكانته التي لا تعدل شيئاً في هذا الكون الناطق بعظمة الله أما المؤمن التقي فلا يملك إلا أن يستغفر ربّه ويطلب عفوه لمحو ذنوبه لأنه تعظم في عينه أصغر الذنوب فيلجأ إلى الله خاشعاً يعرب عن ندمه " فوا أسفاه من خجلتي وافتضاحي ، ووا لهفاه من سوء عملي واجتراحي "[1] وحين تكبر هذه الذنوب في عينه يجد الأرض تضيق به بما رحبت فيتجه إلى المنقذ الوحيد " إلهي كسري لا يجبره إلا لطفك وحنانك "[2] والكسر هو في الحقيقة كسر العظم لكن الإمام صرفه إلى معنى آخر هو الخطأ واللمم فلا يغفر الذنوب إلا الله ، وتأمل في شدّة الألم النابعة من أعماق المؤمن وهو يدعو ربّه في قوله (وا أسفاه) و(وا لهفاه) وهو أسلوب في التحسر يأخذ صيغ الندبة باستعمال (وا) قبل كلّ من (أسفي) و(لهفي) والانتهاء بهاء السكت كما تقول (وا محمداه ، وا حسيناه) وقد ورد في القرآن الكريم باستعمال (يا) من غير هاء السكت في قوله تعالى ﴿يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله﴾ [الزمر 56 ] والحسرة الغم على ما

---

(1) الصحيفة السجادية : 274 .

(2) المصدر نفسه : 300 .

فاته والندم عليه كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه أو انحسرت قواه من فرط غم أو أدركه اعياء من تدارك ما فرط منه " [1] .

ولهف من باب فهم أي حزن وتحسّر وكذلك التلهف على الشيء "[2] واللفظتان تدلان على الحزن والغم والتحسر على ما فرط به الإنسان ، ويزيد الإمام في أسلوبه حسرة حين يقول " فوا أسفاه من خجلتي وافتضاحي " ليزيد في تأنيب النفس البشرية وقد ذكرت أكثر من مرة أن الإمام لا يعبّر عن جرم اقترفه ، أو ذنب اجترمه بل يتحدث عن هموم الناس وشكاياتهم أمام الله سبحانه وتعالى ويضع الدروس أمام البشرية في عصورها المتعاقبة لتتعلم كيف يقف العبد بين يدي ربّه مستجيراً به عائذاً بمقامه لذا يقول " اللهم يا ملاذ اللائذين ويا معاذ العائذين ، ويا منجي الهالكين ، ويا عاصم البائسين ويا راحم المساكين ويا مجيب المضطرين ويا كنز المفتقرين ويا جابر المنكسرين ، ويا مأوى المنقطعين ويا ناصر المستضعفين ويا مجير الخائفين ويا مغيث المكروبين ويا حصن اللاجين"[3] موضحاً الصفات التي يتحتم على المؤمن معرفتها فلا ملاذ لهم غير الله ولا منجي غيره ولا عاصم سواه يرحم المساكين ويجيب المضطرين وهو كنز للمفتقرين وهذه الأحوال كلّها للناس جميعاً لا تخصّه وحده وهذا ما يؤكد ما ذهبت إليه من أنه يعبر عن أحوال الناس وشكاياتهم ، وكثيراً ما ينسب تلك الآثام لنفسه لأنه إمام الأمة يشعر بما يدور في أذهانهم ويتألم لآلامهم ، ويتجلى خشوع الإمام فيما يبنيه على تلك المقدمات فيتساءل " إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ ، وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ " [4] ليؤكد أنه الباب الوحيد الذي ينبغي أن يقف العبد على أعتابه ، فذلك هو طريق المؤمنين الصالحين ، لأن كل باب سوى باب الله يورث المذلة ،

---

(1) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن 235 .

(2) المختار من الصحاح 480 (لهف) .

(3) الصحيفة السجادية : 206 .

(4) المصدر نفسه : 206.

أما الذلة بين يدي الله فهي رفعة للإنسان المؤمن لأنها توقفه على طريق المعرفة الواعية لطريق الحق قال الإمام " وأتيتك من الأبواب التي أمرت أن تؤتى منها ، وتقربت إليك بما لا يقُرب به أحد منك إلا بالتقرب به ، ثم أتبعت ذلك بالإنابة إليك والتذلل والاستكانة لك وحسن الظن بك ، والثقة بما عندك ، وشفعته برجائك الذي قل ما يخيب عليه راجيك وسألتك مسألة الحقير الذليل البائس الفقير الخائف المستجير ، ومع ذلك خيفة وتضرعاً وتعوذاً وتلوذاً ، لا مستطيلاً بتكبر المتكبرين ولا متعالياً بدالة المطيعين ولا مستطيلاً بشفاعة الشافعين ، وأنا بعدُ أقلّ الأقلين ، وأذلّ الأذلين ومثل الذرة أو دونها "[1] أفرأيت خاشعاً عابداً متضرعاً مثل الإمام علي بن الحسين وهو يسمو بروحه ليخاطب الذات الإلهية المقدّسة بخشوع وتقديس " أتيتك من الأبواب التي أمرت أن تؤتى منها " فلم يجعل بينه وبين الله واسطة ولا زلفى ولا رقى بل وجّهه لله العلي القدير مسلماً حنيفاً داعياً ربّه لأنه يعلم أنّه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ويكشف السوء متقرباً إليه بعبادته وتسبيحه ، وشاكراً آلاءه ، ساجداً بين يديه ليلاً ونهاراً مقبلاً عليه بقلبه وجوارحه ، متبعاً ذلك بالإنابة والتسليم إليه لا إلى غيره ، خاشعاً متذللاً مستكيناً واثقاً من رحمة الله التي وسعت كلّ شيء قال تعالى ﴿وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم صاغرين﴾ [ غافر 60 ] ودعا الإمام ربّه بخشوع وتضرّع " وسألتك مسألة الحقير الذليل البائس الفقير الخائف المستجير "[2] ولا شكّ في أنك تدرك أن الإمام يشبّه مسألته لله ـ جلّت قدرته ـ بمسألة الحقير قليل الشأن الذليل الخاضع الخائف من غضب ربّه المستجير برحمته مؤكداً ذلك بقوله " ومع ذلك خيفة وتضرّعا وتعوذاً وتلوذا " فهل رأيت خاشعاً يقف بين يدي ربّه ساجداً راكعاً آناء الليل والنهار يخشى الله كهذه الخشية أو رأيت متضرّعاً بمثل هذا الخشوع وعائذاً بحبل الله لائذاً بملكوته وأغرب من ذلك

---

(1) المصدر نفسه : 206 .

(2) المصدر نفسه : 206 .

أن الإمام السجاد وهو من هو يقول " لا مستطيلاً بتكبر المتكبرين ولا متعاليب بدالة المطيعين ولا مستطيلاً بشفاعة الشافعين " ولو وعي الناس كلام الإمام هذا لصاروا خير عباد الله أجمعين لأنه لا يجد في نفسه وأهله وعبادته وما يقدمه للناس من عطاء ، ما يتكبر به أو يتعالى لأنه حين يقف بين يدي ربّه لا يرى غير الذات البشرية الضعيفة بإزاء الذات الإلهية العظيمة فيعرف قدر الإنسان بإزاء قدر الله سبحانه وتعالى والأعظم من ذلك أنه لا يستطيل أمام الله بشفاعة أجداده وآبائه لأنه يعلم أن الإنسان مسؤول عن عمله وعطائه ، ويروى أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال للإمام علي بن الحسين " يا ابن رسول الله أما علمت أن الله تعالى إنما خلق الجنة لكم ولمن أحبكم وخلق النار لمن أبغضكم وعاداكم فما هذا الجهد الذي كلّفته نفسك ؟ فأجابه الإمام : يا صاحب رسول الله أما علمت أن جدي رسول الله ﷺ قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فلم يدع الاجتهاد له وتعبّد - بأبي وأمي - حتى انتفخ ساقه ، وورم قدمه ، وقد قيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال ﷺ أفلا أكون عبداً شكورا ؟ فقال له جابر يا ابن رسول الله البقيا على نفسك فإنك من أسرة بهم يستدفع البلاء وبهم تستكشف الأدواء ، وبهم تستمطر السماء ، فأجابه الإمام لا أزال على منهاج أبويّ متأسياً بهما حتى ألقاهما " (1)

لم يستشفع الإمام بآبائه وأجداده ، ولم يستطل بنسبه بل اختار مجاهدة النفس بالعبادة والخشوع والتضرّع حتى إنه ليدعو ربّه قائلاً " وانزع من قلبي حبّ دنيا دنية تنهى عما عندك ، وتصدّ عن ابتغاء الوسيلة إليك ، وتذهل عن التقرّب منك، وزيّن لي التفرّد بمناجاتك بالليل والنهار ، وهب لي عصمة تدنيني من خشيتك وتقطعني عن ركوب محارمك ، وتفكني من أسر العظائم ، وهب لي التطهير من دنس العصيان ، وأذهب عني درن الخطايا " (2)

(1) أعلام الهداية : 6 / 130 .

(2) الصحيفة السجادية : 210 .

الناس كلّهم يتمسكون بالبقاء في العالم الدنيوي ، ويفزعون من الموت باحثين عن أسباب الرخاء والسعادة لكن الإمام يخالف الناس فلا يتشبث بالحياة الدنيا ولا يرفضها ، لأن الحياة الدنيا وسيلة لنيل سعادة الآخرة ، فإن أصلح المرء حياته وسخّرها لعمل الخير نال سعادة الآخرة و(الدنيا الدنيّة) هي الدنيا القريبة إذا أردنا الدنو ، وقد يقصد بها الدنيا الدنيئة فسّهل الهمزة إذا أراد بها الخساسة أو النقيصة، وإنما سُمّيت الدنيا لدنوها ، وقد خصّها الإمام بالنزع من قلبه لكونها تنهى العبد عمّا يدنيها من حب الله ، لأن حبّ هذه الدنيا الموشّاة ببريق يعمي القلوب قبل الأبصار ، يصرف الإنسان إلى حبّ الملذات والشهوات وابتغاء ما يفسد النفس ويجعلها من عبدة الشيطان لذا يدعو الإمام ربّه أن ينزع من قلبه حبّ هذه الدنيا الدنيّة ، وتنزع نفس الإمام إلى دنيا ملؤها الصلاح والإيمان والعبادة والتقوى لذا دعا ربّه بخشوع " وزيّن لي التفرد بمناجاتك بالليل والنهار " والتفرّد بالشيء الانفراد به لذا يرجو الإمام ربّه أن يزيّن لقلبه الانفراد بمناجاته في الليل والنهار ليكون الله سبحانه وتعالى أنيس حياته يأنس بذكره وتسبيحه وعبادته فلا يشغله عن ذلك شاغل والعصمة من عصم والعصم الإمساك والاعتصام التمسك .... وعصمة الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر ثم بما أولاهم من الفضائل الجسيمة ثم بالنصرة وبتثبيت أقدامهم ثم بانزال السكينة عليهم ، وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق قال تعالى ﴿والله يعصمك من الناس﴾ [ المائدة 67][1] فالإمام يدعو ربّه أن يهب له عصمة تدنيه من خشية الله فيعصمه من الذنوب والأخطاء لكي يكون قلبه صافياً محبّاً لله - جلّ وعلا - متورعاً عن اقتراف الذنوب وكلّ ما يمنع من القرب إلى الله ، وتهفو نفس الإمام الطاهر إلى أن تكون عبادة الله ومناجاته شغله الشاغل لا يمنعه منها شيء لذا ينادي ربّه متذللاً خاشعاً " وأعمر ليلي بإيقاظي فيه لعبادتك ، وتفرّدي بالتهجّد لك وتجردي بسكوني إليك ، وانزال حوائجي بك ، ومنازلتي إياك في فكاك رقبتي من نارك

---

(1) مفردات ألفاظ القرآن : 569 - 570 .

وإجارتي مما فيه أهلها من عذابك "[1] ولو تأملت في الألفاظ (تفرّدي) و (تجرّدي) لأدركت أن الإمام ينسلخ عن العالم كلّه ، ويتجرّد عن الكائنات التي حوله ، فيخلي قلبه لحب الله متفرداً له لا لغيره لذا عشق التفرّد في مناجاة الله، والتجردعن كلّ الكائنات الأخرى ليعبد ربّه بلا انقطاع أو انشغال ، ولو تحرّيت عن لفظ (التهجّد) تجد أنها تعني الصلاة ليلاً ، والصلاة التي كان يتهجّد بها الإمام آناء الليل وأطراف النهار يُضرب بها المثل فقد ذكر المؤرخون أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال مُتحدّثاً عن جدّه علي بن أبي طالب عليه السلام في حديث اقتبس منه قوله " وما أشبهه من ولده ولا أهل بيته أحد أقرب شبهاً به في لباسه وفقهه من علي بن الحسين ولقد دخل أبو جعفر ابنه - عليهما السلام - عليه فإذا هو قد بلغ من العبادة ما لم يبلغه أحد فرآه قد اصفرّ لونه من السهر ، ورمصت عيناه من البكاء ، ودبرت جبهته ، وانخرم أنفه من السجود وورمت ساقاه وقدماه من القيام في الصلاة فقال أبو جعفر فلم أملك حين رأيته بتلك الحال إلاّ البكاء ، فبكيت رحمة عليه ، وإذا هو يفكر ، فالتفت إلي بعد هنيهة من دخولي وقال يا بني أعطني بعض تلك الصحف التي فيها عبادة علي بن أبي طالب فأعطيته ، فقرأ فيها شيئاً يسيراً ثمّ تركها من يدّه تضجّراً وقال من يقوى على عبادة علي" [2]

وروي أن الإمام كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة وأنه كانت له خمسمائة نخلة فكان يصلي عند كل نخلة ركعتين ، ونظراً لكثرة صلاته فقد كانت له ثفنات في مواضع سجوده كثفنات البعير ، وكان يسقط منها في كلّ سنة فكان يجمعها في كيس ، ولما توفي دفنت معه [3] لذا كان الإمام يأنس بتفردّه لأنه ينسى نفسه ويعيش في عالم روحاني آخر متهجداً لله ،

---

(1) الصحيفة السجادية : 212 .

(2) الإرشاد : 287 .

(3) أعلام الهداية : 6 / 127 .

متجرّداً بالسكون إلى الله ، داعياً ربّه متوسلاً إليه كي يخلّصه من خطايا الحياة وذنوبها ويقرّبه إليه ، فهل رأيت مثل الإمام زاهداً متهجّداً .

وتبلغ درجات خشوع الإمام مراتب الزاهدين حين يقف بين يدي ربّه ذليلاً خاشعاً فلا يفخر بذلك ولا يتباهى ولا يتبختر بل يدعو ربّه دعاءً قد يبدو غريباً عند كثير من الناس حين يقول " وذلّلني بين يديك ، وأعزني عند خلقك ، وضعني إذا خلوت بك وارفعني بين عبادك ، وأغنني عمّن هو غني عني ، وزدني إليك فاقة وفقرا "[1] وتلك هي سجايا الزاهدين يرجو ربّه أن يزيده ذلاً وفقراً وضعة إذا وقف بين يديه لأن الله حريّ بأن يكون العبد خاشعاً له ، ويرجو أن يعزّه ويغنيه ويرفعه بين الناس لكي لا يقف متوسلاً إلى بشر مثله بل يزيده إيمانه بالله ثقة بما جاء في القرآن الكريم ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [ آل عمران 139 ] لأن المؤمنين هم الأعلون ، فثمة فرق بين الذل لله والذلّ للناس، لأن الله أحق أن نتضرع بين يديه ، ونذلّ أمامه لنغسل قلوبنا من كلّ الأدران ونزداد إيماناً بعظمة الله - سبحانه وتعالى - أما البشر فهم أمثالنا لا مسوغ لإذلال النفس لهم فهو يقول " وأغنني عمّن هو غني عني " و" زدني إليك فاقة وفقرا " لأن الافتقار إلى الإنسان ضياع لإيمان المؤمن ، ومسايرة للباطل الذي قد يكون عليه . هكذا علّمنا الإمام الزاهد زين العابدين ودعانا إلى قصر عبادتنا لله وحده لأنه أهل لذلك " يامن هو منتهى خوف العابدين ، ويا من هو غاية خشية المتقين "[2] ولم أسمع لأحد من الزاهدين مثل وصف الإمام لخشوع المؤمن " فمثل بين يديك متضرّعاً ، وغمّض بصره إلى الأرض متخشّعاً ، وطأطأ رأسه لعزتك متذللاً وأبثّك من سرّه ما أنت أعلم به منه خضوعاً ، وعدد من ذنوبه ما أنت أحصى لها خشوعا "[3] فتلك صورة تبهر الناظرين لعبد زاهد شخص أمام المؤمنين يعلمهم كيف

---

(1) الصحيفة السجادية : 211 .

(2) الصحيفة السجادية : 132 .

(3) المصدر نفسه : 133 .

يقفون في صلواتهم كما يقف وقد أغمض عينيه خشوعاً وطأطأ رأسه ذلّة وخضوعاً ثم ناجى ربّه بما يكنّه في صدره من هموم . وها هو الإمام يتوسل إلى ربّه ليغفر ذنوبه " فها أنا ذا يا إلهي واقف بباب عزّك وقوف المستسلم الذليل ، وسائلك على الحياء منّي سؤال البائس المعيل ، مقرّ لك بأني لم أستسلم وقت احسانك إلا بالاقلاع عن عصيانك ولم أخلُ في الحالات كلّها من امتنانك "[1] فنسب العزّ لله في استعارة جميلة ، ونسب الذل لنفسه لأنه لا قبل له بعدل الله واحسانه لذا يقف دائماً مطأطئ الرأس أمام الله - جلّت قدرته - في خشوع لم تألفه إلا القلوب المؤمنة " فقام إليك بقلب طاهر نقي ثم دعاك بصوت حائل خفي قد تطأطأ فانحنى ونكّس رأسه فانثنى قد أرعشت خشيته رجليه وغرقت دموعه خديه يدعوك بيا أرحم الراحمين وبيا أرحم من انتابه المسترحمون ، ويا أعطف من أطاف به المستغفرون .. "[2] أجل نظرك في الألفاظ (وقوف المستسلم الذليل) و (سائلك على الحياء مني سؤال البائس المعيل ) تجد أن المستسلم هو الذي لا حول له ولا قوة ، وقد مرّ بنا لفظ الذليل أكثر من مرة ، وتأمّل في صياغة (سائلك على الحياء ) فكأن الإمام يقف بين يدي ربّه خجلاً مستحيياً أن يراه الله يسأل غفران ذنب ، وهو يعلم علم اليقين أنه طاهر القلب نقي السرائر لكنه لا يجد مناصاً من الاستغفار له ولكل المسلمين " ثم دعاك بصوت حائل خفي " والحائل المتغير الذي خفتت نبراته فلم يعد مسموعاً حتى صار خفياً (قد تطأطأ لك فانحنى ، ونكّس رأسه فانثنى) وهذا هو حال المؤمنين الخاشعين الذين يخشون ربّهم يحنون أجسادهم خضوعاً وخشوعاً وينكسون رؤوسهم حياءً وتأدباً ، وقد ارتعشت أرجلهم خوفاً وهلعاً من غضب ربّ العالمين وفاضت عيونهم من خشية ورهبة . ولا ينسى الإمام وهو يجاهد نفسه ويسلم أمرها إلى الله فيقف خاشعاً متضرّعاً أمور الدنيا فيدعو الله - سبحانه - كي يثبت الإيمان في قلبه ويشد

---

(1) المصدر نفسه :67 - 68 .

(2) المصدر نفسه : 68 .

قدميه على الصراط المستقيم قائلاً " وحلّني بحلية الصالحين ، وألبسني زينة المتقين في بسط العدل ، وكظم الغيظ ، واطفاء النائرة ، وضم أهل الفرقة ، واصلاح ذات البين وافشاء العارفة " [1] ولو عرف الناس ما حلية الصالحين وما زينة المتقين لصاروا كالملائكة يمشون على الأرض، فأولئك قرآن يترجم بأفعال وقوانين ، وسلوك وخلق ، فبسط العدل وحده قيمة انسانية عالية لا يستطيعها أي بشر وقد ذكرت ذلك في مكان سابق ، وكظم الغيظ حلية أخرى وصف الله بها المتقين ﴿وسارعو إلى مغفرة من ربّكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعدّت للمتقين الذين ينفقون في السّراء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ [ آل عمران 133- 134 ] ويراد بالكاظمين الغيظ : الحابسين الغيظ ومما تحلى به المؤمنون (ضم أهل الفرقة) الذين يريدون شق صفوف المسلمين وإشاعة الفرقة في نفوسهم، ومنها اصلاح ذات البين ، وصلة الرحم وتنقية القلوب وافشاء المعارف والعلوم التي تصقل العقول وتثقف المسلمين .

ولا يريد الإمام - شأن المؤمنين التقاة - أن يوصف بالضعف في دفاعه عن الحق لذا دعا الله أن يمدّه بالقوة ليصول بقوته ويدافع عن الإسلام بنصرته فلا يطلب حاجة من انسان بل يسأل الله وحده لأن الاستعانة بغير الله فتنة ومذلة تجعل رقبة المستعين ممدودة لمن أنعم عليه من البشر فيعصي الله ولا يطيعه بحسب مشيئة ذلك المعين ، فهل يعي الناس ذلك ويسلموا أمرهم إلى الله يتوجهون إليه بقلوب خاشعة وعيون دامعة ، ورقاب منحنية ورؤوس منكّسة له وحده لا لغيره .

ويلاحظ في ألفاظ هذه المناجيات والأدعية الملاحظ الآتية :

1- صدق العبارة عمّا يختلج في نفس الإمام فهو يعبّر عما يجيش بصدره لإيمانه الراسخ بعظمة الله وجلال قدره وقوة سلطانه ومن عرف الله حقّ

(1) المصدر نفسه : 93 .

معرفته عبده بما يستحقه من الشكر والعرفان ، ومعرفة الله أول خطوة يسعى إليها المؤمن قال الإمام " واجعلنا من أخصّ عارفيك " لأن معرفة الله وإن كانت عصية إلا على المتقين ، توصل المؤمن إلى معرفة نفسه بإزاء عظمة الله ، ونريد بالمعرفة ادراك الشيء بتفكر وتدبّر لأثره وهو أخصّ من العلم ، ويضادّه الإنكار ويقال فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد لما كان معرفة البشر لله هي بتدبّر آثاره دون إدراك ذاته ، ويقال الله يعلم كذا ولا يقال يعرف كذا لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل به بتفكر ، وأصله من عرفت أي أصبت عُرْفَه أي رائحته أو من أصبت عُرفَه أي خدّه .... والعارف في تعارف قوم : هو المختص بمعرفة الله ومعرفة ملكوته وحسن معاملته تعالى"[1] قال الإمام " سبحانك عجباً من عرفك كيف لا يخافك "[2]

2- كان الإمام ينتقي العبارات والألفاظ الدالة على الخشوع والاستكانة لتكون ناطقة بما يجيش في صدره من حبٍّ لله وهيبة لسلطانه وتعظيم لشأنه نحو (عُبيدك ، فقيرك ، ذليلاً ، خاضعاً ، خاشعاً ، خائفاً ، معترفاً بعظيم من الذنوب ) ومن العبارات الدالة على الذل والخشوع لله ( جباههم ساجدة لعظمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك) أو قوله (وقد تطأطأ لك فانحنى ، ونكّس رأسه فانثنى ) وغيرها من العبارات التي توحي بالخشوع من تآلف ألفاظها والصور التي تثيرها في الخيال .

3- تناسق الألفاظ ورصفها رصفا يدل على قدرة لغوية فائقة فهو يمازج بين الألفاظ ، ويجانس بينها حتى يحيلها إلى نسيج متلائم كقوله ( لك تخضعّي وسؤالي ، وإليك تضرّعي وابتهالي ) فالمجانسة واضحة بين (تخضّعي وتضرعي) و (سؤالي وابتهالي) وقوله " إلهي كسري لا يجبره إلا لطفك وحنانك ، وفقري لا يغنيه إلا عطفك واحسانك ، وروعتي لا

(1) مفردات ألفاظ القرآن : 560 ـ 561 .

(2) الصحيفة السجادية : 242 ـ 243 .

يسكنها إلا أمانك وذلتي لا يعزها إلا سلطانك ، فكل جملتين من هذه الجمل قد وضعت في مكان مناظر لمكان أختها ، وكلُّ كلمة قيست بمقدار نظيرتها فقوله (كسري) يساوي (فقري) وقوله (لا يجبره) يقابل (لا يغنيه) في النفي ، ولطفك يناظر عطفك في الجرس وكذلك حنانك واحسانك وفي الجملتين الأخريين تجد (روعتي) تقابلها (ذلتي) و(يسكنها) تقابل (يعزها) و (أمانك) تناظر (سلطانك) وهذا البناء المعماري يأتي منسوقاً نسقاً جميلاً يوحي باشعاع روحي فضلاً عن القدرة التعبيرية التي لا يمتلكها أشعر الشعراء وأبلغ البلغاء .

4. القدرة الإيحائية للألفاظ والجمل ، وهي قدرة عجيبة تنقل إلى نفس القارئ أو السامع الأجواء الرّوحية التي كانت تعتمل في نفس الإمام فتشعر معه بالرهبة والخشوع وأنت تتأمل في ملكوت السموات والأرض حتى كأنك ترى خالق هذا الكون بسلطانه وعظمته قد سجد الكون له وخشعت القلوب وصمت كلّ شيء إلا ما كان مسبحاً بحمده فتأخذك هالات النور الساطع من السماء وتملأ لبّك خشية الملك العظيم القادر على كلّ شيء ، بل تخال روحك تحلّق في السماء تشهد عظمة الكون وهي ضعيفة كريشة في مهب الريح لا ينقذها غير سلطان هذا الكون القادر على كلّ شيء فلا يجد الإنسان غير الوقوف في المحراب يدعو ربّه لغفران ذنوبه وآثامه التي خالف بها أوامر الله في لحظات كانت النفس فيها أمّارة بالسوء، يزين لها الشيطان أفعال الشر ومعصية الله فترتجف الفرائص وترتعش الأرجل وتصفرّ الوجوه وتدمع الأعين وتطأطئ الرؤوس وتنحني الأجساد حياءً وخجلاً من الله ربّ العالمين فلا يملك المرء إلا أن يكرر مع الإمام قوله " فوا أسفاه من خجلتي وافتضاحي ، ووا لهفاه من سوء عملي واجتراحي " .

5- تعدّ مناجيات الإمام تراثاً فكرياً وعقائدياً استقت منه طوائف المسلمين كثيراً من الألفاظ والعبارات ولاسيما (المتصوفة) والزهّاد حتى صارت من المصطلحات الشائعة في تعبيرهم ، بل صارت درجاتهم في العرفان تستقي

من ألفاظ تلك المناجيات لأنه كان رائداً في الزهد والخشوع غير أن زهد الإمام وعبادته غير ما كان عليه غيره ممن ساروا في مسالك الزهد ، فقد كان الإمام رمزاً للإيمان الصادق الذي أراده الله للمؤمنين فيحيا حياته الدنيا ويعمل بصدق لآخرته باسمى مراتب التقوى فهو لا يعتكف في صومعة بعيداً عن أحداث الدنيا ومشكلاتها بل كان يعيش كما يعيش الناس يعمل ويتزوج ويعيل عائلته ، ويجلس في المسجد يفتي ويعلم الناس أمور دنياهم ويشرح لهم المسائل الفقهيّة ويفسر القرآن الكريم ويروي الحديث النبوي الشريف، ويعلم العبيد ويفقههم بأصول الدين وفروعه ثم يطلق سراحهم لوجه الله ، ثم يخلو في الليل بعد أن يهجع الناس يسجد ويركع ويتلو القرآن مناجياً ربّه شاكراً آلاءه . ومن يوازن بين المصطلحات الصوفية وألفاظ الصحيفة السجادية يجد كثيراً من الشبه والتوافق في الألفاظ والعبارات .

6- كان الإمام يجمع بين الاختصار المبين ، والتكرار المتنوع المفيد ، وهو بين هذا وذاك يوصل المعاني بدقة إلى السامع فلا تثير الملل ولا تحدث السأم، ولا تشكل ولا تبهم كقوله " فكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إياك يفتقر إلى شكر فكلما قلت الحمد وجب على لذلك أن أقول لك الحمد " وقد أوضحت دلالة هذا النص ، وقد كان الإمام يحسن اختيار الألفاظ ويضعها في مواضعها التي تستحقّها ولاسيما الحروف المتعلقة بالأفعال كقوله " إلهي استشفعت بك إليك واستجرت بك منك " .

7 - رسم الإمام بعفوية ودقة الصور البيانية لتجسيم المعاني وبيان وجوه جمالها فكان يستعير استعارات مكنية وتصريحية ويشبه بكل وجوه التشبيه ويكني في كثير مما مرّ بنا ايضاحه في فصل سابق كقوله " من نار يأكل بعضها بعض " وقوله " واكسر شهوتي " وقوله " وافرشني مهاد كرامتك وأوردني مشارع رحمتك " وقوله " وتجلّى ملك الموت لقبضها من حجب الغيوب ورماها عن قوس المنايا بأسهم وحشة الفراق "وقوله " وأضبأ

إلـيّ اضبـاء السـبع لطريدتـه "وقولـه" لا تغلـق علـى موحـديك أبـواب رحمتـك "وقولـه" ومـن الـذي أنـاخ ببابـك مرتجيـاً نـداك فمـا أوليتـه "وقولـه" إلهـي بـذيل كرمك أعلقت يدي"(1)

وهذه الصور التي لا يمكن الإحاطة بها في هذه العجالة توحي بخشـوع الإمـام وتعلّقـه بـرب العـزة ، وتجسّـم المعـاني تجسـيماً يجعـل الصـورة مرئيـة ومتصورة وكأنها تجري أمامك .

وأقـول جازمـاً إن أسـاليب الصـحيفة السـجادية نمـط فريـد في الكتابـات البشـرية تغـترف كـثيراً مـن أسـاليب القـرآن الكـريم والأحاديـث النبويـة الشـريفة، لأنهـا تمثـل قمـة السـبك اللغـوي ، ووضـع الألفـاظ في مواضـعها الـتي يقتضيها المقـام، فهـي سـهلة ممتنعـة، تجـد الألفـاظ فيهـا تتثـال انثيـالاً وتنسـاب انسـياباً، وكأنهـا لؤلـؤ منضـود لا تسـتطيع رفـع لفظـة مـن مكانهـا ولا وضـع غيرهـا في مكانهـا ، وقـد رجعـت إلى المعـاجم وكتـب الألفـاظ فوجـدت الإمـام مصدراً لغوياً يُرجع إليه في صحة الاستعمال ، ودقة المعـاني وفصـاحة الألفـاظ ، وصحة بنـاء الأبنيـة ، وسـلامة التـأليف ، فـلا تجـد كلمـة تخـدش سمعـك ، ولا لفظة تبتعد عن المعنى المقصود ، ولا جملة فيها اضطراب ، بل تجد العجب في حسن الموازنة بين الجملة ونظيرتها ، واللفظة ومقابلها ، وقد ذكرت أن اختيـار اللفظة يأخذ في الاعتبـار مسـاواتها مـع غيرهـا في الصـياغة أوالدلالـة أو الجـرس في نظم بديع .

ولقد رأيت الإمام يختار أفعال مناجياته بحسب الأزمنـة المقصـودة المعبّـرة عـن المعنـى المطلـوب ، فـأكثر مـا يسـتعمل فعـل الأمـر كمـا نوهـت عـن ذلـك، ولكنه يحسن استعمال الماضي في موقعه والمضارع في موقعه كقوله " تصاغر عند تعاظم آلائك شـكري ، وتضـاءل في جنـب إكرامـك إيـاي ثنـائي ونشـري،

(1) تنظـر : الصـحيفة السـجادية : 144 ، 159 ، 165 ، 170 ، 207 ، 224 ، 280 ، 282، 283

جللتني نعمك من أنوار الإيمان حللاً وضربت عليّ لطائف برك من العز كللاً"[1]

فالأفعال الماضية تتحدث عن آلاء منّ الله بها على الإمام سبقت كلّ شكر وثناء ولكنه حين يجد الفعل مستمراً يدل على الحال وما يستمر بعده يضع المضارع في ذلك الاستعمال كما قال " وألحقنا بعبادك الذي هم بالبدار إليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون، وإياك في الليل والنهار يعبدون وهم من هيبتك مشفقون "[2] فالفعل مستمر يدل على ذلك استعمال اسم الفاعل (مشفقون) جنباً إلى جنب مع الأفعال المضارعة ذلك أن اسم الفاعل كما يرى الكوفيون فعل دائم .

وأعتقد أن جمال أسلوب الإمام ورصانته ، ودقة استعماله مردها إلى تأثر الإمام بأساليب القرآن الكريم فهو يُكثر من ألفاظه وصيغه وتآليفه وأساليبه ، ويدل على ذلك كثرة الاقتباس من القرآن الكريم سواء بنصّه أم بالمعنى أم بتغيير في الألفاظ ، ولن أبحث في هذا الجانب فقد استوفى ذلك بحث استقصى وجوه الاقتباس ومواطنها [3] ولا أزيد على ذلك سوى القول إن اشعاع القرآن بمعانيه وصوره وابنيته وألفاظه وطرائق نظمه وحسن تأليفه استقر في ذاكرة الإمام وعقله ووجدانه وعواطفه حتى صار كالدم يسري في عروقه ، فعاش القرآن ووعاه ثم استقى منه ما جعل صحيفته بهذه الدرجة من الرقي الأسلوبي ، والدقة في التعبير ، والسمو في الأفكار والمضامين .

---

(1) الصحيفة السجادية : 288 .

(2) المصدر نفسه : 292 .

(3) ينظر : أثر القرآن في الصحيفة السجادية . مجلة رسالة الإسلام ، العدد 1 ، 2 .

# توطئة

مع كون (الصيحفة السجادية) اثراً اجتماعيا عظيما (كانت ضرورة المرحلة تفرضه على الامام) و (تراثا ربانيا فريدا)[1] فأنها تعّد ابداعا فنّيا يهاب الباحث ويتردّد كثيرا قبل الأقدام على دراستها تواضعاً لرفعةِ صاحبها وما يجده من (التسامي في اغراضها وقوة معانيها ورقّة اسلوبها)[2]

فعليٌّ بن الحسين (عليه السلام) كان اشبه اولاد الحسين (عليه السلام ) واهل بيته من جده ( علي بن ابي طالب ) - رضي الله عنه - في حياته وفقهه وزهده[3]، قيل له (عليه السلام) (وكان الغاية في العبادة : أين عبادتك من عبادة جدك ؟ قال عبادتي عند عبادة جدي كعبادة جدي عند عبادة رسول الله ﷺ)[4]. وكذا في بيانه وبلاغته، فأن كان (نهج البلاغة) قد افصح عن ظروف سياسية، واجتماعية، وتناول قضايا دينية وفكرية وروحية بأسلوب مميّز، فأن (الصحيفة السجادية) نَحتْ منحىً آخر لكن من المنطلق نفسه وهو المرجع الاقرب والاحب عند الجد والحفيد (عليهما السلام) وهو القرآن الكريم وبأسلوب فريد ايضا، حمل

---

(1) الصحيفة السجادية الكاملة ، تقديم سماحة الشيخ محمد باقرالصدر :16 دار التيار الجديد 2000م

(2) اثر القرآن في الصحيفة السجادية ، د كاصد ياسر الزيدي بحث مستل من مجلة رسالة الاسلام كلية اصول الدين بغداد ع او 2 سنة 1971

(3) الارشاد للشيخ المفيد : 287 ط الحيدرية النجف1972

(4) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد 10 / 30 ط بيروت 2004 .

طابع مبدعه وهي النزعة الانسانية التي ترتبط (ارتباطاً كاملاً بالبحث عن وسائل تحرير الفرد والانسانية كلها من كل انواع الظلم الاجتماعي )[1]

ولقد أختار الامام (عليه السلام) السلاح الأبقى في إصلاح النفوس وهو (البيان) الذي كرم الله تعالى الانسان به في قوله (عز وجل) «الرحمن علَم القرآن، خلق الانسان علمه البيان» الرحمن ( 1- 4). وكيف وهو من عاش مع جده (عليه السلام) سنتين ومع عمه الحسن (عليه السلام) اثنتي عشرة سنةً ومع ابيه الحسين (عليه السلام) ثلاثا وعشرين سنة !!

ولقد اطلقت هذه القدرة البيانية مشاهد معركة (الطف) في كربلاء، وماتلاها من احداث جسام مرَت على آل البيت الطاهرين

ومع ان هذه الصحيفة قد شرحت اكثر من مرة ، فأنها ستظل مشروعاً للبحث والتأمل والنظر في مفاهيم الامام (عليه السلام) عن (الاسلام وقيمه ومقاصده وعقائده واصوله وفروعه)[2] . ولسوف أفرد جهدي المتواضع هذا اعتزازاً واكباراً لتقصّي مواطن الابداع في الخطاب السجادي ابتداءً بدراسة منهجيّة الصحيفة ، ثم البحث عن الاسس الجمالية في بنائها الفني ، ومن ثمّ تقصّي السمات الروحية الكامنة في فكرها وعاطفتها ،راجية من الله تعالى العون والتوفيق وأن يجعلنا ممنّ توجّه بنيّةٍ صادقة محبّةٍ في السير على هدى من قرَّبَهم وطهَرّهم وجعلهم ائمّةً وقادة للروحِ والفكر انه خير مجيب .

---

(1) مشكلات علم الجمال الحديث (مجموعة من علماء الجمال) : 297 دار الثقافة الجديدة، الأهرام

(2) أثر القرآن في الصحيفة السجادية (بحث) : 41 .

# الباب الثاني
# القراءة النقدية

الفصل الأول:

الخصائص المنهجية

الفصل الثاني:

الاسس الجمالية في البناء الفني

الفصل الثالث:

( السمات الروحية )

# الباب الثاني

# القراءة النقدية

## الفصل الأول

## الخصائص المنهجية للأثر السجادي

### توطئة

1- التوافق بين العرض والمضمون

2- التكرار

3- التفصيل

4- اعتماد المرجعية الدينية

### الخصائص المنهجية للأثر السجادي

لا يتحقَّقُ عملٌ ما ، فيصل الى متلقّيه من غير طريقٍ بيّنٍ ، اي منهجٍ واضحٍ يسلكه صاحبه ، ومهما تعدَدت المناهج ، فإنَ لكلٍّ منها خصائص تَسِمه ، وتعبّر عن شخصيّة من اختاره ، وبعد قراءة الصحيفة بميادينها الثلاثة {الادعية والتسبيجات والمناجيات} توضَحت جملةُ امورٍ جعلها البحث تنضوي تحت هذه المحاور:-

### اولا- التوافق بين العرض والمضمون

وذلك بأن يكون هذا التوافق في مساحة العرضِ قِصرا او طولاً ، و في طبيعة التوجّه مباشِراً او غيرَ مباشر.

أ- في مساحة العرض: ففي دعائه ( في يوم عرفة )[1] جاء العرضُ مطوّلاً وكان من مسوّغاته: تعدّد المضامين التي احتواها الخطاب ، فقد تصدّر التحميد لله تعالى ، تلاه التسبيح ، فالحمدُ والصلاة على النبي (ﷺ) واله الطاهرين ، ثم الدعاء لامام العابدين المتولّي لامور المسلمين حتى قوله (هذا يوم عرفة) ، استغرق العرضُ عشر صفحات وجاء القسم الثاني مماثلاً لما تقدّم في مساحته ، وتنوّع عرضه ففيه الاعتراف بالذنب والتقصير محيلاً بضمير الغائب الى نفسه ، ومتضمنا الحديث عن غيره ايضا :

(وانا عبدكَ الذي انعمتَ عليه قبل خلقك له وبعد خلقك اياه ، فجلعته ممنّ هديْتَهُ لدينك، ووفّقته لحقّك وعصمته بحبلكِ . . . ثم امرتَه فلم يأتمرْ ، وزجرته فلم ينزجرْ ونهيته عن معصيتك ، فخالفَ امرك الى نهيك لا معاندةً لك ولا استكبارا عليك بل دعاه هواه الى ما زيَلْتَهُ والى ما حذّرته واعانه على ذلك عدوك وعدوه . . . )[2]

وبعدها جاء التخصيص بـ (انا) اقراراً واستغفاراً ( وها انذا بين يديك صاغرا ذليلا خاضعا خاشعا خائفا معترفا . . لا يجيرني منك مجير ، ولا يمنعني منك مانع ، فَعُدْ عليّ . . وجُدْ عليّ . . . وامنن عليّ . . . )[3] ثم خصَّ النبي (ﷺ) بالذكر وسيلة للشّفاعة(بحق من انتجبت من خلقك. . .) مستعينا به لانشاء جمل عدة تحمل الالتماس اثباتاً مرة (تغمدّي ، تولني ، نجنّي ، خلصني) وسلبا اخرى (لا تؤاخذني ، لا تستدرجني ، ولا تمحقني ، ولا تهلكني . . . ) ليختم داعيا ربه تعالى (واجعل باقي عمري في الحجّ والعمرة ابتغاء وجهك يارب العالمين )[4] طال العرض في هذا الخطاب ، لأن وقفة (عرفة) التي هي من مراسيم أداء مناسك الحج وشعائره ، فيها القنوت والخشوع ، وذكر الله

---

(1) الصحيفة السجادية : 196

(2) م . ن : 205

(3) الصحيفة : 205

(4) م . ن : 215

كثيرا مع الاستغفار ، واعلان التوبة ، ولأن (الحج عرفة) كما قال النبي (ﷺ)[1] وفي حين نجد (التسبيحات) يُفضى بمضامينها في عبارات قصيرة مكثفة فيها زخم دلالي وتوافق صوتي كما في قوله[2] :-

(سبحانك اللهم وحنانيت

سبحانك اللهم وتعاليت

سبحانك اللهم والعز ازارك

سبحانك اللهم والعظمة رداؤك

سبحانك اللهم والكبرياء سلطانك

سبحانك من عظيمٍ ما اعظمك)

نجد في المقابل ان ( التمجيد ) يُعبَر عنه بخطاب اطول واكثر تفصيلاً ، فقد يأتي مثلا بالمقابلة (الحمد لله الذي تجلّى للقلوب بالعظمة ، واحتجب عن الابصار بالعزّة)[3] او يأتي باستقصاءٍ شموليّ كما في عرض اسماء الله الحسنى اذ يقدم لنا الفكرة ولا يصرّح بالاسم كما في قوله (فلا الابصارُ تَثبْت لرؤيته، ولا الاوهام تبلغ كنه عظمته، تجبَر بالعظمة و الكبرياء ، وتعطف بالعزِّ والبرّ والجلال، وتقدّس بالحسن والجمال ، وتمجّد بالفخر والبهاء، وتجلّل بالمجد والالاء واستخلص بالنور والضياء...)[4]

و تتحقق الاطالةُ في العرض بتنوّع الاساليب كما في تأكيد الصفة بالسلب بعد الايجاب (خالق لا نظير له ، وأحد لا ندّ له ، وواحد لا ضدَ له وصمد لا كفو له ، واله لا ثاني معه ، وفاطر لا شريك له ، ورازق لا معين له..)

---

(1) صحيح النسائي في ( مناسك الحج / باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الامام بالمزدلفة 5 / 264 )

(2) الصحيفة : 241

(3) م . ن : 244

(4) م . ن : 244

أو بتقديم النفي وصولاً لاثبات اسم الجلالة (الحي القيوم) يقول :

(ليس له حدٌّ في مكان ، ولا غاية في زمان ، لم يزل ولا يزول ولن يزال كذلك ابداً هو الاله الحيّ القيوم)[1]

وهذا التوافق بين المضمون والعرض ، طولاً وقصراً ، يأتي في وحدة منهج منظّم بأن يتقدّم الحمد والتمجيد ثم ذكر النبي مع الصلاة عليه وعلى اله الطاهرين فالدخول في مضمون الدعاء

ب- في التوجه الخطابي مباشراً أو غير مباشر

**1-** المباشر: قد يأتي الخطابُ حيناً مباشراً من غير تقديم وذلك لمسوّغات بعينها ، كما في ( الاستسقاء بعد الجدب )[2] فقد جاء الدعاء من غير تمهيد أو تبسيطٍ في العرض ، لأنه طلبٌ سريعٌ فيه احتياجٌ جماعي ، وليس لتلبية حاجة ذاتية . يبدأ الخطاب بقوله :

( اللهم اسقنا الغيث ) ليذكر بعدها مباشرة صفات هذا الغيث وهي صفات ايجابية غالباً تتراوح في عرضها بين جملٍ اسمية وفعلية :

( اسقنا غيثاً مغيثا مريعا ممرعا عريضا واسعا غزيرا تردّ به النهيض ، و تجبر به المهيض ، اللهم اسقنا سقيا تسيل منه الظراب وتملأ منه الجباب )

ومن هذا ايضا ، دعاؤه بالعافية[3] ، فقد جاء من غير تقديم لانه عن شدة وابتلاء وجهد وفيه احتياج سريع لذا كرّر فيه طلب (العافية) عشر مرات . يقول مبتدئا (اللهم صل على محمد واله والبسني عافيتك وجللّني عافيتك ...) وفي طلب (العفو والرحمة)[4] يبدأ دعاؤه من غير تمهيد ايضا بالتوجه الى الله

---

(1) الصحيفة : 245

(2) م . ن : 89 ( عند الاستقساء بعد الجدب )

(3) م . ن : 108 (اذا سأل الله العافية وشكرها)

(4) م . ن : 159

تعالى بأن يغفر لمن اساء اليه من الاحياء والاموات ، وان يعوّضه بهذا عفوا عنه من لدنه سبحانه

(اللهم صلى على محمد واله واكسر شهواتي عن كل محرم ، وازْو حرصي عن كلَ مأثم وامنعني عن اذى كل مؤمنٍ ومؤمنةٍ ومسلمٍ ومسلمةٍ ، اللّهم وايّما عبدٍ نالَ منّي ما حظْرت عليه وانتهكَ منّي ما حجرْت عليه فمضى بظلامتي ميّتاً أو حَصَلَتْ لي قِبلَه حياً فأغفِرْ لَهُ ما ألمَّ بهِ منّي واعفُ له عمّا أدبرَ به عَنّي ولا تَقفِه على ماارتكبَ فِيّ ولا تكشِفه عمّا اكتسبَ بي وأجعلْ ماسَمَحْتُ به من العفو عنهم وتبرَعتُ به من الصدقة عليهم ازكى صدقاتِ المتصدّقين و أعلى صِلات المتقربّين وعوّضني من عفوي عنهم عفوك ومن دعائي لهم رحمتك)

2- غير المباشر : وفي هذا التوجه نجد مقدمات تتصدر الادعية قد تطول وقد تقصر فمن الاولى دعاؤه ( عند الصباح والمساء )[1] يستوحي الباحث في عباراتها إجابات ضمنية عن اسئلة مقدرةٍ ب(ما ، كيف ، لماذا ) تتوزع باتقان وترتبط باحكام ، يقول مبتدئا بالاجابة عن (ماخلق؟!)

(الحمد لله الذي خلقَ اللّيلَ والنهار بقوّته ، وميّز بينهما بقدرته و جعل لكلَّ واحدٍ منهما حدّاً محدوداً وأمدًا ممدودًا يولجُ كلَّ واحدٍ منهما في صاحبه ويولج صاحبه فيه بتقديرٍ منه للعباد فيما يغذوهم به ويُنشئهم عليه فخلقَ لهم اللّيلَ ليسكنوا فيه من حركاتِ التّعب ونهضاتِ النّصب وجعله لباساً ليلبسوا من راحته ومنامه فيكون ذلك لهم جماماً وقوةً ولينالوا به لذةً وشهوةً وخلقَ لهم النهار ميصراً ليبتغوا فيه من فضله وليتسبّبوا الى رزقه ويسرحوا في ارضه طلباً لما فيه نيلُ العاجل من دنياهم ودرك الاجل في اخراهم ) ثم تأتي الاجابة الضمنية عن (لماذا خلق الليل والنهار؟) بقوله بعدما تقدّم ما

(1) الصحيفة : 52

مضمونه انه لتوثيق الصلة بين الحياة الدنيا والحياة الاخرة وهي صلة متينة قوية كي لاينسى المخلوقُ قدرةَ الخالق :

(بكلّ ذلك يُصلحُ شأنهم ويبلُوَ اخبارهم وينظرُ كيف هم في اوقات طاعتِه ومنازلِ فروضه ومواقع احكامه ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزيَ الذين احسنوا بالحسُنى)

اثر هذا التقديم الذي توزّع كما رأينا على جملة مضامين يبدأ الدعاء (اللهم فلك الحمدُ على ما خلقت لنا من الاصباح ومتعْتنا به من ضوء النهار ، وبصرّتنا من مطالب الاقوات ووقيتنا فيه من طوارق الافات ، أصبحنا وأصبحت الاشياءُ كلها بجملتها لك . . اللهم صل على محمد واله وارزقنا حسن مصاحبته واعصمنا من سوء مفارقته . . . ) الى اخر الدعاء .

ومن المقدمات التي وجدنا فيها عرضا وتفصيلا دعاؤه في طلب الحوائج الى الله تعالى [1] ، فهو دعاء غير محدّد بل شامل ، لذا مهّد له بالحمد والتمجيد لله سبحانه وعرض فكرةٍ بعينها وهي انه سبحانه مقصد المحتاجين وذلك بأساليب متنوعة فيها النداء ( اللهم يا منتهى طلب الحاجات ويا من عنده نيل الطلبات . . .) ومنها التقرير بالافعال (تمدّحت بالغناء عن خلقك وأنت اهل الغنى عنهم ونسبتهم الى الفقر وهم اهل الفقر اليك) ومنها الجمل الشرطية (فمن حاول سدّ خلته من عندك ورام صرف الفقر عن نفسه بك فقد طلب حاجته في مظانّها ، واتى طلبته من وجهها) حتى يصل الى المطلوب من دعائه وهو قضاء حوائجه

(اللهم ولي اليك حاجة قد قصّر عنها جهدي وتقطّعت دونها حيلي...)[2]

ومن المقدمات القصيرة ما جاء في دعائه (عند الشدة والجهد وتعسّر الامور)[3]

---

(1) الصحيفة : 71

(2) م . ن : 72

(3) م . ن : 104

فهو يعرض الحالَ واصفا إياه بجملٍ قصار ، ينتقل بعدها الى الدعاء متوجّها بطلب الرزق ونيل المغفرة والهداية والسلامة من الحسد والزّلل :

(اللهم انك كلفتني من نفسي ما انتَ املك به منّي ، وقدرتك عليه وعليّ اغلبُ من قدرتي ، فآعطني من نفسي مايرضيك عنّي وخذ لنفسك رضاها من نفسي في عافية) يبدأ بعدها الدعاء والطلب في قوله (اللهم لا طاقة لي بالجهد، ولا صبر لي على البلاء ولا قوة لي على الفقر فلا تحظر عليّ رزقي ، ولا تكلني الى خلقك ، بل تفرّد بحاجتي وتولّ كفايتي ، وانظر اليّ وانظر لي في جميع اموري) فهو دعاء المضطرّين كما اسماه في خاتمة الدعاء ، من هنا لم نجد الاطالة في التقديم . وفي دعائه ( اذا اعتدى عليه أو رأى من الظالمين ما لا يحب)[1] نجد التقديم موجزاً مكثفاً لان المتظلّم مضطر وبه حاجة ملحّة الى نصير، والى قوةٍ تعينه وليس اقرب من قوة الله تعالى يقول : (يا من لا يخفى عليه انباء المتظلّمين ويامن لا يحتاج في قصصهم الى شهادات الشاهدين ، ويا من قربت نصرته من المظلومين ويا من بعد عونه عن الظالمين قد علمت ياالهي مانالني من...) ثم يسرد الدعاء تفصيلات المظلمة . جاء الخطاب في تقديم قصير متوافقا مع ما قال الامام علي (عليه السلام) مجيبا لمن سأله : كم بين السماء والارض؟ فقال : (دعوة مستجابة)[2]

## ثانيا – التكرار

يأتي التكرار إمّا للترسيخ والتثبيت . يقول تعالى مخاطبا نبيه (ﷺ) . «وكلاً نقصّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك»[3]

أو للتنبيه أو التأكيد ، كما في تأكيد الانذار في قوله تعالى : «كلاّ سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين . . . »[1] أو

---

(1) الصحيفة : 74

(2) شرح نهج البلاغة 377/2

(3) هود : 120

للتحسّر والتوجع أو لغير ذلك ، ولربما يأتي التكرار أيضا في سياقِ سردٍ يتطلّب تفصيلاً واطناباً ، فَلِبعُدِ الكلام تكون الحاجة الى اعادة صيغة كلامية بعينها تذكيراً بما مضى . ولقد تنوّعت أنماط التكرار في الخطاب السجادي ما بين تكرار (الادوات و المفردات والاصوات والمضامين ) .

فمن الاساليب التي اتّسقت بتكرار أدواتها وكثافة توظيفها اسلوب الاستفهام (الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب )[2] خارجا بمطلوبه الى مفاهيم عدة منها الانكار والتقرير والاستبعاد والتعجب والنفي والتنبيه والاستبطاء . والمثير هنا ان تكرار الاستفهام كان يأتي عن طريق توليد اسئلة من اسئلة اعتماداً على المقابلة والمقارنة . وكثيرا ما حمل السؤال اجابته معه مرتبطا في هذا بالجانب النفسي .

فمن قوله مستئذنا بالبدء بالدعاء مفيدا من الاداة (هل) التي تكررت ضمناً موحية بالرجاء « هل انت ياالهي راحمٌ من دعاك فأبلغ في الدعاء ؟ أم انت غافرٌ لمن بكاك فأسرع في البكاء ؟ أم انت مُتجاوز عمّن عفر لك وجهه تذلّلا؟ أم انت مغنٍ من شكا إليك فقره متوكلا ؟ »[3]

وفي توبيخ النفس مع الاعتذار يأتي توظيف (من) مع تكرارها في دعائه . (فَمن أجهلُ مني ياالهي برشده ؟ ومن أغفلُ منّي عن حظه ؟ ومن أبعد مني من استصلاح نفسه حين أُنفق ما اجريتَ عليَّ من رزقك فيما نهيتني عنه من معصيتك؟ ومن أبعدُ غوراً في الباطل وأشدّ إقداماً على السوءِ منّي حين أقف بين دعوتك ودعوة الشيطان فاتّبع دعوته . . وإنّما أوبّخُ بهذا نفسي طمعاً في رأفتك التي بها صلاح امر المذنبين . . . )[4]

---

(1) التكاثر : 3- 5

(2) التلخيص في علوم البلاغة ، القزويني : 151

(3) الصحيفة : 80

(4) الصحيفة : 81- 82

وقد يكون المضمون بحاجة الى تكرار (مَن) ليخرج بها الى النفي والاستبعاد ، كما في قوله : (الهي إن رفعتني فمن ذا الذي يضعني ، وان وضعتني فمن ذا الذي يرفعني ؟ وان أكرمتني فمن ذا الذي يهينني ؟ وان اهنتني فمن ذا الذي يكرمني ؟ وان عذبتني فمن ذا الذي يرحمني ؟ وان اهلكتني فمن ذا الذي يعرض لك في عبدك او يسألك عن امره . . )[1]

وللغاية نفسها يأتي توظيف الاداتين (من وكيف ) في قوله : (الهي من الذي نزل بك ملتمساً قراك فما قريته ومن الذي أناخ ببابك مرتجيا نداك فما اوليته ؟ . كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك؟ وكيف اؤمل سواك والخلق والامر لك ؟)[2]

وتكرار الطلب الالتماسي يأتي متوافقا مع طبيعة البنية الدعائية لانها طلب حاجة ، وتكراره مرغوب ، على ان مارصده البحث هو التنويع في الصيغ مابين سلبٍ وايجاب بتقابلٍ منتظم كما في قوله بادئاً بالنفي ومنتهيا بالاثبات والاقرار :

(الهي لا تخيّب من لايجد معطيا غيرك ، ولا تخذل من لا يستغني عنك بأحدٍ دونك ، الهي فصل على محمد واله ، ولا تعرض عنّي وقد اقبلتُ عليك ولاتحرمني وقد رغبتُ اليك ، ولا تجبهني بالردّ وقد انتصبْتُ بين يديك أنت الذي وصفتَ نفسك بالرحمة فصل على محمد واله وارحمني وانت الذي سمّيْتَ نفسك بالعفو فأعفُ عنّي)[3]

و فضلا عن تكرار الالتماس ، نجد تردّد مفردات بعينها ، وهذا مالحظناه في دعائه بالعافية، ففيه تكرّر ذكر (العافية) صريحاً (عشرمرات) في المقطع الاول (اللهم صل على محمد واله وألبسني عافيتك ، وجلّلني

---

(1) م . ن : 220

(2) م . ن : 282

(3) الصحيفة : 80

عافيتك، وخصّني عافيتك ، وأكرمني بعافيتك ، واغنني بعافيتك ، وتصدّق عليَّ بعافيتك ، وهبْ لي عافيتك ، وأفرشني عافيتك ، وأصلح لي عافيتك ، ولاتفرّق بيني وبين عافيتك في الدنيا والاخرة)[1]

جاء تكرار المفردة لاغناء المضمون إجابة عن : (اولاً) كيف هي العافية ، حيث يُردّدُ ذكرها ما بين صيغة فعلية واسمية : (وعافني عافية كافيةً شافيةً عاليةً ناميةً ، عافيةً تولدّ في بدني العافية، عافية الدنيا والاخرة) واجابة (ثانيا) عن : المتعوّذ منه كي يحظى بالعافية اذ يردّد مفردة (الشر) مفصّلا في احواله (وأعذني وذريّتي من الشيطان الرجيم ومن شرّ السامة والهامة و العامة واللامّة ، ومن شر كل شيطان مريد ومن شر كل سلطان عنيد ، ومن شر كل مترفٍ حفيد ، ومن شرّ كل ضعيف وشديد ،ومن شر كل شريف ووضيع ، ومن شر كل صغير وكبير ، ومن شرّ كل قريب وبعيد، ومن شرّ كل من نصب لرسولك ولأهل بيته حرباً من الجن والانس ومن شرّ كل دابةٍ انت آخذٌ بناصيتها)

كما يأتي تكرار المفردة لانها تُذكرّ بعنوان الدعاء كما في تكرار مفردة (شهر) في دعائه عليه السلام (اذا دخل شهررمضان) فقد كررّها اثنتي عشرة مرة ، فقد عرّف بهذ الشهر الكريم أولاً بقوله : (شهرُ رمضان شهر الصيام ، وشهر الاسلام ، وشهر الطهور وشهر التمحيص وشهر القيام . .)[2]

وهذا التردّد يأتي متوافقا مع توجهّه الى التفصيل ، فهو بعد تعريفه له يتناول كلَّ فضيلة من فضائله فهو (اولاً) شهر الصيام ، ومن هنا يبدأ بتحديد صيام الجوارح من لسان وبصر وشهوات نفس لمذاق وشرب ومتع وغيرها ، ومن رياء واشراكٍ ، ثم هو شهر الاسلام بما حدّدته الشرائع الاسلامية من فرائض على المسلم ابتداءً بالصلاة ومن ثم بالتواصل الاجتماعي من برٍ ورحمة وتصالح

---

(1) م . ن : 108

(2) الصحيفة : 175

ومودّة ، مع اداء انواع الطاعات ثم التطّهر والتحميص وقيام الليل واستحقاق الرفيع الاعلى برحمة الله تعالى

(واذا كان لك في كل ليلة من ليالي شهرنا هذا رقابٌ يعتقها عفوك أو يهبها صفحك ، فاجعل رقابنا من تلك الرقاب ، واجعلنا لشهرنا من خير أهلٍ وأصحاب) ثم يختم مردّداً هذه المفردة ولكن بصيغة الجمع قائلاً (واجعلنا في سائر الشهور والايام كذلك ما عمرتنا)(1)

ومن شواهد توافق تكرار المفردة مع عنوان الدعاء ما جاء في مناجاة الراجين، فقد تكررت لفظة (الرجاء) سبع مرات بصيغ مختلفة (مرتجيا ، أرجو، رجائي، يرتجي ، مرجو ، راجية ، رجائك ) بالاخبار حينا : (أناخ ببابك مرتجيا) وبالاستفهام منكِراً حينا آخر (كيف أُرجو غيرك والخير كله بيدك؟) (أأقطع رجائي منك وقد أوليتني مالم أسأله من فضلك؟) وبالنداء للترجي ( وكلّ طالب اياه يرتجي يا خير مرجوّ ويا اكرم مدعو)

كما نجد هذا التوافق في التكرار بين عنوان الخطاب ومضمونه في (مناجاة المحبيّن) اذ تردّدت صيغ (المحبّة) اثنتي عشرة مرة مابين (المحبة والحب والمحبيّن)(2) وما يقوله البحث هنا : إن هذا النهجَ في التكرار لم يخرج عن مرجعيته الدينيّة ، بل جاء ممتثلا لنهج القرآن الكريم ومقتفياً اثره في هذا الجانب ، فلكي نفهم تكرار مفردة في سورة بعينها علينا التوقّف عند المغزى الدقيق المطلوب من السورة بأجمعها اي فهم المضمون المراد في وعيٍ شامل له ، فهو المحور الذي ستدور حوله وتعود اليه مفردة خاصة دون غيرها ، والشواهد تترى لكننا سنُحيل الى سورتين فحسب :-

فمن يتأمّل ما جاء في خاتمة سورة يونس (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿واتبّع ما يوحى اليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ الاية 109

---

(1) م . ن : 179

(2) م . ن : 296

سيجد انها تسعى الى تصبير الرسول (ﷺ) ومدّه بالقوة الروحية منالله تعالى على التحمل لأداء الرسالة بسبب ما كان يلقاه من رفضٍ واذىً فهو يخاطبه (سبحانه) قبل هذا بقوله تعالى « ولا يحزنك قولهم ان العزّة لله جميعا » : الاية 65 ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ : الاية 199

ولقد سارت مضامين السورة الكريمة في عرض مواقف الضرّ التي حلّتْ بالانبياء وصولاً الى ما مَنَّ الله تعالى عليهم من رحمةٍ بالنجاة استجابة لدعائهم الخالص . وما نقوله : انه من هنا تكرّرت مفردة (النجاة) بهذا المدلول (ست مرات) وبمدلول العقاب والاعتبار (مرة واحدة فقط) في عرضٍ لنهاية فرعون والايات هي على التوالي .

﴿ لئن انجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الارض بغير الحق ﴾ : 22- 23

« فكذبوه فنجيّناه ومن معه في الفلك . . . » : 73

« ونَجنّا برحمتك من القوم الكافرين » : 86

« فاليوم ننجيّك ببدنك لتكون لمن خلقك آية » : 92

« ثم ننجيّ رسلنا والذين امنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » : 103

كما ورد ذكر النبي (يونس) (عليه السلام) وتسمية السورة باسمه ايحاءً مقصوداً بنجاته رحمة من ربه بعد مكوثه في بطن الحوت زمنا مستغفرا ، مسبّحاً يقول تعالى في سورة الانبياء « فاستجبنا له ونَجيّناه من الغمَّ وكذلك ننجي المؤمنين »: 88

وهذا ما نجده في سورة (يوسف) (ع) أيضا ، فَلِكونِ حياة هذا النبي (عليه السلام) قد رافقتها ألوان المكائد فقد تكررّت هذه المفردة (الكيد) ثماني مرات ، ومنذ اوائل السورة حيث يقول الله تعالى في الحديث عن كيد إخوته له:

« يا بنيّ لا تقصص رؤياك على اخواتك فيكيدوا لك كيدا » :-

ثـم تتكـرر خمس مـرات في معـرض الحـديث عـن كيـد زوجـةِ فرعـون مصر له ومن معها من النسوة :-

« قال انه من كيدكن انّ كيدكنَّ عظيم » : 28

« فصرف عنه كيدهنّ . . » : 34

« انّ ربيّ بكيدهنّ عليم » : 50

« وأنّ الله لايهدي كيد الخائنين » : 52

ثم جاء قوله تعالى :

« وكذلك كدنا ليوسف ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك الا أن يشاء الله»: 76

لتشير المفردة الى تدبير الله وحكمته ومشيئتِه (سبحانه( في تصريف الاحداث والامور .

وهنـاك التكرار الصوتي الـذي تحقّق في جملة امور ومنهـا(التجنيس) الذي (يستغّل القدرة التعبيرية في جرس الالفاظ على توليد المعنى الذي تهيّئه اللغة في اشتقاقاتها )[1]

فالايقـاع الحاصـل يُغذيـه التكـرار بتـواتر الافعـال كمـا في دعائـه (عندالاستسقاء بعد الجدب ) حيث التكرار بالاشتقاق فمن فعل يقابله مصدر : (اسقنا سقيا تسيل منه الظراب) ومن اسم تقابله صفة (اسقنا غيثا مغيثا)[2] . كل هذا بتنسيق بديع يتواصل في نسقٍ يبدو وكأنه عفويٌّ غيرُ مستجلَب .

و كمـا في (الترّصيع) وهـو (ان تكـون الالفـاظ مستوية الاوزان متفقّة الاعجـاز)[3] وهـو مـا شـاع حضوره في كثير مـن الادعيـة كمـا في قولـه (عنـد

---

(1) جرس الالفاظ ودلالتها في البحث اللغوي والنقدي عند العرب ، ماهر مهدي : 274 ط بغداد 1986

(2) الصحيفة : 89

(3) نهاية الايجاز ، الرازي : 66

الصباح والمساء ) : (وجعل لكلٍّ منهما حدّاً محدوداً وأمداً ممدوداً )[1] وقوله (في طلب الحوائج ) : ( يا من لا تفني خزائِنه المسائل ، ويا من لا تبدّل حكمته الوسائل )[2] وفي دعائه إذا أحزنه امر:

(ولا يجير ياالهي الأ رب على مريوب ، ولا يؤمن الا غالب على مغلوب)[3]

ولم يكن التكرار في انماطه التي تقدّمت اعادةً حرفيّة بل لإضافةِ شئٍ جديد ، أو تقديم المعاد باسلوب مختلف ، مما يشير الى القدرة البيانيّة على التصرّف وقراءة المتكرّر وكأنه متجدّد لمجيئهِ في سياق مختلف ، ففي دعائه متّظلماً يقول (عليه السلام) :

( اللهم لا تَفْتنّي بالقنوطِ من إنصرافك ، ولا تفتنه بالأمن من إنكارك فيصرُّ على ظلمي ويحاضرني بحقّي وعرّفه عمّا قليل ما أوعدتَ الظالمين ، وعرّفني ما وعدت من اجابة المضطرّين)[4]

فقد تكررّ الفعلان ( تفتن و عَرّف )

جاء الاول ( لا تفتن ) حاملا دلالة النهي عن اليأس من رحمة الله وانصافه وجاء الثاني في دلالة مغايرة هي الامن من عذاب الله من لدن الظالم اما دلالة (عرّفه) في السياق الاول فهي التنبيه بانزال العقاب وتعريف الظالم بظلمه ، قابلها باجابة الدعاء ( وعرّفني ) تعريفا بنصرة الله تعالى للمظلوم .

ومع التردّد اللفظي للفعلين فان السياق هو الذي أبعد حرفيّة التكرار ونمطيتّه وفي عرضه لمضمون ( دفع الظلم ) نجد تكرار الفكرة لكن بصياغةٍ دقيقةٍ في كل عرض يقول الخطاب أوّلا مُعَممّا في دعائه :

---

(1) الصحيفة : 52

(2) م . ن : 71

(3) الصحيفة : 100

(4) م . ن : 75

( ولا أُظلَمَنَّ وأنتَ مطيقٌ للدفع عني ، ولا أظلِمَنَّ وأنت القادرُ على القبضِ منّي)[1]

و بتـأخير مـا تقـدّم في هـذا العـرض يقـول في دعـاءٍ آخـر فيـه تخصـيص اكثر: (ولا تسوّغ له ظلمي وأحسِن عليه عوني، واعصمني من مثلِ أفعاله . . . اللهمّ فكما كرّهتَ الي أن أظلِم فقني من أن أُظلم)[2]

بهـذا التلـوين الجميـل ، وهـذا التّشـكيل المتفـنّن في العـرض اسـتطاع التكرار ان يكون خصيصة جمالية فيه متعة التنبيه غير المباشر والترسيخ غير المجافي والتأثير المتواصل في السامع .

## ثالثا – التفصيل

ومـن خصـائص منهجيّتـه أيضـا (التفصيل) وهـو أمـرٌ يعـود الى مسـوّغات عدة نذكر منها : ان الاسترسال قد يأتي متسِقاً مع الاجابة عن جملة تساؤلات تحيط بالمضامين كافّة ، اجابة عن (ما) مثلاً او (كيف) أو (لم) أو غيرهـا مـن المبهمات، مجارياً في هذا ميله الى التفنّن بالاساليب عند العرض .

اما المسوّغ الاخر فهو الرغبـة في اعطـاء صـورة شـاملةٍ وشاخصـة بعـرض الامور الايجابية ومقابلتها بالامور السلبيّة ، هذه المسوّغات وجدناها حاضـرة في شـواهد كثيرة ، سيكتفي البحـث بعـرض بعضٍ منهـا . فممّا جـاء إجابة عـن تساؤلات مُسْبقَة اخترنا الخطاب الاول ( اذا ابتدأ بالدعاء بدأ بالتحميد لله عـز وجل والثناء عليه) فهو يقدّم تعريفا بهذا الحمد اجابة عن ( لمن الحمد ؟) يقول:.

( الحمـد لله الاول بـلا أول كـان قبلـه ، والاخـر بـلا آخـر يكـون بعـده ، الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين ، وعجـزت عـن نعتـه أوهـام الواصـفين ، ابتدع بقدرتـه الخلق ابتـداعا واخترعهـم علـى مشيئته اختراعـا . . )[3] ويتواصل

---

(1) م . ن : 95

(2) م . ن: 74 - 75

(3) الصحيفة : 33

الخطاب بتفصيل مترسل ليقدم اسباب هذا الحمد ابتداء من خلق الانسان وتقدير قوتهِ وأجله حتى مجازاته إثابةً أو عقاباً ، كل هذا عدلاً ومن ثم ينتقل للاجابة عن (لم هذا الحمد؟) فيقول :-

(والحمد لله الذي لو حَبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مِننه المتتابعة ، وأسبغَ عليهم من نِعمه المتظاهرة ، لتصرّفوا في مِننه فلم يحمدوه وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الانسانية الى حدّ البهيمية ) فهو لإكرام بني ادم بأن فتحَ لهم ابواب العلم ودلّهم على توحيده وجنّبهم الالحاد .

اما كيف يكون هذا الحمد ( حالاً ومكانا وزمانا )؟ و ( ماغايته ) في الحياة الدنيا وبعدها فأنه يقول مفصّلا في هذا كله : ( الحمد للهِ بكلّ ما حمده به ادنى ملائكته اليه واكرم خليقته عليه وارضى حامديه لديه حمداً يفضل سائر الحمد ، كفضلِ ربّنا على جميع خلقه ، ثم له الحمدُ مكان كل نعمةٍ له علينا و على جميع عباده الماضين والباقين عددَ ما احاط به علمه من جميع الاشياء ومكان كلّ واحدة منها عددها اضعافاً مضاعفة أبداً سرمدا الى يوم القيامة ، حمداً لا منتهى لحدّه ولا حساب لعدده ، ولا مبلغ لغايته ولا انقطاع لأمده ، حمداً يكون وصلة الى طاعته وعفوه وسبباً الى رضوانه وذريعة الى مغفرته وطريقا الى جنته . . . حمداً نسعد به في السعداء من اوليائه . . .)[1]

وهناك المسوّغ الثاني وهو تنوّع الاساليب في عرض الفكرة الواحدة ولقد أبدع الخطاب السجادي في هذا الجانب ، وهو ينتقل من فن بلاغي الى اخر غيره فكان كَمن يقبض على ناصية اللغة بثرائها اللفظيّ وطاقاتها التعبيريّة ، فمن سردٍ الى حوارٍ الى مناظرة ، ومن تكرار الى نداء واستفهام ، ومن جرس هادئٍ الى نبرٍ عالٍ ، ومن تقابلٍ متضادٍ الى شبيهٍ مماثلٍ في نسقٍ متدرّج متصاعدٍ يبدو عفويّا لا يترك سأماً أو نصباً في ذهن القارئ ، بل انّه لَيُشكّل أخيراً وحدة

---

(1) الصحيفة : 37

مترابطة في الأثر الابداعي ولسوف يرصد البحث شواهده لاثبات ذلك ، ففي دعائه ( اذا استقال من ذنوبه) نجده يبدأ بصيغة النداء أولاً معتمداً الاداة (يا) مكررة سبع مرات : (اللهم يا من برحمته يستغيث المذنبون ، ويا من الى ذكر إحسانه يفزع المضطرّون . . )[1] ولم يكن الخطاب مباشراً اِجلالاً وتنزيها وهو من أدب الدعاء في فاتحته ، توصّلاً الى منزلةِ أقرب متوسّلاً في خطابه بالضمير (انت) :

(أنتَ الذي وسعتَ كلَّ شئ رحمة وعلماً ) ليستلّ منها ذكر بعض الصفات الالهية متصاعداً في العدد ليصل الى ثماني مرات ( أنت الذي وسعت .. انت الذي جعلت . . انت الذي تسعى رحمته ...) وبعد المثول بين يدي الله تعالى يعود الخطاب الى النفس مكرراً الضمير الخاص (انا) بعدد اقل وهو خمس مرات : ( و أنا يا الهي عبدك . . أنا الذي اوقرت الخطا يا ظهره . . . وأنا الذي أفنت الذنوب عمره ) منتقلا بعد هذا التشخيص لمثول العبد في حضرة الخالق الى الدعاء ملتَمِساً منه العفو بأساليب بلاغية متعدّدة منها ( الاستفهام المجازي ذاهبا الى الرجاء (هل أنت ياالهي راحم . . أم أنت غافر . . أم أنت متجاوز..) والالتماس (الهي لا تُخَيّب . . ولا تخذل . . ولا تعرض . . لاتحرمني . . لا تجبهني بالرد . . )

وبأسلوب السرد في وصف الحال مستنداً الى المصادر والافعال الموحية بالحركة والانفعال يقول : (قد ترى يا الهي فيضَ دمعي من خيفتك ، ووجيب قلبي من خشيتك وانتفاض جوارحي من هيبتك ، كلُّ ذلك حياءً مني لسوء عملي ، ولذلك خمد صوتي عند الجأر اليك ، وكَلَّ لساني عن مناجاتك )[2] ولعلّ هذا التنوّع في العرض يعود الى رغبة الخطاب في الاحاطة والشمول وأما الاطالة فجاءت تعبيراً عن راحة النفس في المناجاة والذكر والتلذّذ في الافضاء .

---

(1)الصحيفة : (79) وينظر ما يماثل ذلك في التضرع و الاستكانة : 229

(2) الصحيفة : 80- 81 وينظر ص 47 ففيها سرد مفصل في الاعتراف بالذنب بين يدي ربه بعد الفراغ من صلاة الليل

يقول الله تعالى في محكم كتابه العزيز عن الذاكرين « يُسبّح له فيها بالغدوّ والاصال رجالٌ لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله »[1]

فقد جعل الله تعالى ذكره وإدامة تسبيحه وتنزيهه كما يقول الامام علي (عليه السلام) (جلاءً للقلوب)[2] وقد يتنوّع الخطاب مابين حوار النفس ومناجاة الرب بعد وصف الحالِ سرداً . ففي دعائه ( في طلب الحوائج ) يبدأ بتشخيص الموقف واصفا اياه : .

( اللهم ولي اليك حاجة قد قَصّر عنها جهدي وتقطّعت دونها حيلي وسوّلت لي نفسي رفعها الى من يرفع حوائجه اليك ولا يستغني في طلباته عنك وهي زلة من زلل الخاطئين وعثرة من عثرات المذنبين ثم انتبهتُ بتذكيرك لي من غفلتي . . . ) وهنا الموضع الدقيق لحوار النفس بعد انتباها للزلّةِ ، وانها حين استعانت لجأت الى المخلوق وليس الخالق : ( وقلتُ : سبحان ربي كيف يسأل محتاج محتاجا وأنّى يرغبُ معدم الى معدم ) وبعد حديث النفس يتوجه الى مناجاة الله تعالى : ( فقصدتك يا الهي بالرغبة و أوفدت عليك رجائي بالثقة بك، و علمت ان كثير ما أسألك يسير في وجدك )[3] و تجد ( المناظرة ) مكاناً لها في المواقع الاسلوبية لِتُغني الخطابَ تفصيلاً بالسؤال والجواب والمحاججة ، ففي دعائه في ( الرهبة ) يقول :

( اللهم فانّي امرؤ حقير و خطري يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ، ولو انّ عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه و أحببتُ ان يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك اللهم اعظم وملكك أدوم من ان تزيد فيه طاعة المطيعين أو تنقص منه معصية المذنبين فارحمني يا أرحم الراحمين )[4] .

---

(1) النور : 36- 37

(2) شرح نهج البلاغة : 121/11

(3) الصحيفة : 71

(4) م . ن : 228

كما نجدها في دعائه بطلب العفو الرحمة في ( مناجاة الخائفين ) يقول:

( الهي أتراك بعد الايمان بك تعذبني ؟ أم بعد حبّي اياك تبعدني ؟ أم مع رجائي برحمتك وصفحك تحرمني ؟ ام مع استجارتي لعفوك تسلمني ؟ ) ثم تأتي الاجابة بعد المحاجة .

( حاشا لوجهك الكريم ان تخيبنّي . . . الهي نفس اعززتها بتوحيدك كيف تذلها بمهانة هجرانك ؟ وضميرٌ انعقد على مودتك كيف تحرمه بحرارة نيرانك )[1] ومن المحاجة قوله : ( ما أنا بأعصى من عصاك فغفرت له وما أنا بأظلم من تاب فعدتَ عليه)[2]

ومع المناظرة يأتي التعليل المنطقي مع التقابل كما في قوله : ( يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الاعمال لأني اجدني اعتمدُ في الاعمال على الاخلاص ، وكيف احرزها وأنا بالآفةِ معروف وأجدني في الذنوب اعتمد على عفوك وكيف لا تغفرها وانت بالجود موصوف )[3]

ويبقى المسوّغ الثالث للتفصيل وهو عرض الصفات الايجابية ومقابلتها بالسلبيّة ، وفيه نقترب من ركنٍ يتحقّق فيه رسم هندسي منتظم يعتمد التوازي في تحديد الخطوط ، وشاهدنا هنا ما جاء في دعائه ( في طلب الستر والوقاية ) ففي الجزء الاول منه هناك التماس ايجابي مكثّف : ( اللهم صل على محمد واله ، وأفرشني مهاد كرامتك ، و أوردني مشارع رحمتك ، و أحللني بحبوحة جنّتِك)[4]

وفي الجزء الثاني من الدعاء يأتي الالتماس مضاعفاً في جانبه السلبي (ولا تسمني بالردّ عنك ، ولا تحرمني بالخيبة منك ولا تقاصّني بما اجترحت ،

---

(1) الصحيفة : 279- 280

(2) م . ن : 69

(3) شرح نهج البلاغة 133/11ولم اقف عليه في الصحيفة

(4) الصحيفة : 165

و لا تناقشني بما اكتسبت ولا تبرز مكتومي ولا تكشف مستوري ولا تحمل على ميزان الانصاف عملي ولا تعلن على عيون الملأ خبري )

ويتواصل الدعاء في عودةٍ الى الالتماس الايجابي موازياً في عدد فقراته الطلب السلبي المتقدّم :.

( أخفِ عنهم ما يكون نشرُه عليَّ عاراً ، وأطوِ عنهم ما يلحقني عندك شنارا ، شرّف درجتي برضوانك ، وأكمل كرامتي بغفرانك ، وأنظمني في أصحاب اليمين، ووجّهني في مسالك الامين ، واجعلني في فوج الفائزين ، وأُعمر بي مجالس الصالحين امين يارب العالمين )

وفي نعته للغيث نجد الصفات الايجابية أولاً فهو احياءٌ بسقيٍ ( نافع دائم غزره واسع ، درره وابل، سريع عاجل . . )[1] ثم الصفات السلبية في آخر الدعاء:.

( لا تجعل ظله علينا سموما ، ولا تجعل برده علينا حسوما ، ولا تجعل صوبه علينا رجوما ، ولا تجعل ماؤه علينا اجاجا )[2]

بهذ التوازي الدقيق في النفي والاثبات تحققّت شمولية الدعاء تفصيلاً جامعاً ومحيطاً.

## رابعا : اعتماد المرجعية الدينية

وهو مسلكٌ آخر، ونهجٌ فيه مغايرة لمسلك التفصيل ففيه يتحقّق حضور النصّ الاخر المقتبَس أو المضمّن من القرآن الكريم و استثماره في الخطاب بما يُغنيه ويكثّف مغزاه من غير اسهاب واطالة . كما انه (يبسط معنى الاية ويوضحه في أوجز عبارةٍ و أنصعها و أدقّ لفظة وافصحها )[3]

ومسوّغات هذا النهج للاقتباس الاشاري والنصيّ متعددة منها : مكانة المبدع الجليّة دينياً والاقتراب الزمنيّ من عهد صاحب الرسالة النبوية ومن جدّه

---

(1) الصحيفة : 89

(2) م . ن : 90

(3) اثر القرآن في الصحيفة السجادية (بحث) : 46

الامام (علي) (عليه السلام) بكلّ ما تحمله هاتان الشخصيتان العظيمتان من أثرٍ بيانيٍّ فصاحةً وبلاغةً .

يكفي من المأثور عن عبادته وقنوته انّه من لقبّ بذي الثّفنات الثلاثة (لان طول السجود كان قد أثّر في ثفناته وهو ما يقع على الارض فيغلظ ويكثف )[1] وما يروى من انه كان يوما يصليّ ( فوقعت عليه حيّة فلم يتحرك لها ، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك احداهما عن مكانه ولا تغيّر لونه )[2]

وقد ظهرهذا التأثّر مبكّراً ، فَمِمّا نقلته المصادر لنا من تمثّل الامام السجاد (عليه السلام) بآي القرآن الكريم في اجاباته ومحاوراته ما ذكره الشيخ (المفيد) في (الارشاد) : انه حين عُرضت الرؤوس الطاهرة اثر حادثة الطفّ بين يدي (يزيد) وفيها رأس والده (الحسين) (عليه السلام) قال يزيد لعلي بن الحسين (عليه السلام) : ( يا ابن حسين ابوك قطع رحمي وجهل حقّي ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما قد رأيت )[3] فقال علي بن الحسين (عليه السلام) مكثفا اجابته الدالة مستشهدًا بالاي الكريم : « ما أصاب من مصيبةٍ في الارض ولا في انفسكم الاّ في كتابٍ من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير »[4]

وليس من خُطّة الدراسة ان تتقصّى هذا الحضور و تعرضه لأنّه أمرٌ مفروغ منه ، لكنّنا ارتأينا البحث عن خصائص هذا الاعتماد ، فكان ان وجدنا خصيصةً بعينها تَسِم هذه المرجعية وهي (الدقّة) ولقد تجلّت في جوانب متعدّدة من هذا التوظيف وهي:.

1- الدقّة في اختيار <u>الموضع المناسب</u> للاقتباس، فقد يأتي الاستشهاد في الخاتمة تماما بعد العرض الموفي بمضمون الاية المبُتغاة فمن دعائه مثلا (اذا قتر عليه الرزق) جاء عرض حال من يشغله همّ الرزق فهو اسير سوء الظن بوعد الله تعالى ، مفتقرٌ الى اليقين الصادق والثقة برحمته سبحانه ، وإثر

(1) شرح نهج البلاغة : 271/10

(2) م . ن : 324/10

(3) الارشاد : 276 وينظر ايضا 274

(4) الحديد : 22

دعاءٍ قصير في قوله ( فصل على محمد واله وهب لنا يقينا صادقا تكفينا به من مؤونة الطلب ، وألهمنا ثقة خالصة تعفينا بها من شدّة النصّب )[1] نجد البراعة في وضع الاية موضعها المناسب ولتشفعْ بأية اخرى توكيداً وترسيخاً :

(واجعل ما صرحت به من عِدتك في وحيك واتبعته من قسمك في كتابك قاطعاً لاهتمامنا بالرزق الذي تكفلت به وحسماً للاشتغال بما ضمنت الكفاية له فقلت وقولك الحق الاصدق ، وأقسمت وقسمك الابرّ الاوفى « وفي السماء رزقكم وما توعدون»[2] ثم قلت « فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون »[3]

وقد يأتي الاستشهاد في المقدمة وذلك لضرورة الافتتاح به ومنه ما جاء في دعائه (في الرهبة)[4] يقول (ع):.

( اللهم انك خلقتني سوياً ، وربيّتني صغيرا ، ورزقتني مكفّياً ، اللهم اني وجدتُ فيما انزلْتَ من كتابك ، وبشّرتَ به عبادك أن قلتَ : ( يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمةِ الله اِن الله يغفر الذنوبَ جميعا )[5] .

اذ اقتضى بعد الاستشهاد ذكر ضعف الانسان وعجزه وقدرة الرب على طلبه وحسابه ثم التطرّق بعدها الى الرحمة الالهية لينتهي في آخر الدعاء الى الاستشهاد بالاي الكريم موصلا به ما بدأ وهو طلب الرحمة قائلا :. ( فأرحمني يا أرحم الراحمين وتجاوز عنّي يا ذا الجلالِ والاكرام ، وتب علي « أنك انت التواب الرحيم»[6] )[7]

---

(1) الصحيفة : 129

(2) الذاريات : 22- 23

(3) الذاريات : 22- 23

(4) الصحيفة : 227

(5) سورة الزمر : 53

(6) (البقرة : 128)

(7) الصحيفة : 163

2- الدقة في تكرار المفردة الدالة على الدعاء، بما يوازي ذكرها في الاية المقتبسَة . ففي دعائه (عند ذكر الموت) وجدنا الاعتماد على ماورد في سورة الجمعة الايات (6- 8) يقول الله تعالى :. « قل يا ايها الذين هادوا ان زعمتم انكم اولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين ، ولا يتمنونه ابدا بما قدمت ايديهم ، والله عليم بالظالمين ، قل ان الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم ثمّ تردّون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » فقد وردت مفردة (الموت) في السورة مرتين ، وهذا ما رصدناه من عدد في مجمل الدعاء وذلك في قوله « حتى يكون الموتُ مأنسَنا الذي نأنسُ به » وقوله داعيا « أمِتنا مهتدين غير ضالّين »[1] ومن شواهد هذا التناسب ايضا ماجاء من تردّدِ مفردة (الستر) في دعائه (عليه السلام) ( اذا ابتلي أو رأى مبتلى بفضيحة بذنب ) فقد تكررت ثلاث مرات ( اللهم لك الحمد على سترك ) ( وتستّر بالمساوي فلم تدلل عليه ) ( فاجعل ما سترت من العورة وأخفيت من الدخيلة واعظاً لنا )[2]

ولقد وردت هذه المفردة في القرآن الكريم ثلاث مرات فقط أيضا في قوله تعالى « ما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . . . »[3] .

وفي قوله تعالى : « حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا »[4] وقوله سبحانه : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا »[5]

وقد لا يكون الامر مقصودا ، على انه لم يأتِ عفوًا أيضا إنّما هو جرّاء الحفظ والذكر الدائم للقرآن الكريم، فلكأنّ وقع المفردات بتردّداتها القليلة

(1) م . ن : 163

(2) م . ن : 148

(3) فصلت : 22

(4) الكهف : 91

(5) الاسراء : 45

أو الكثيرة الواردة في الذكر الحكيم تتبادر الى الذهن فيكون التوظيف مماثلاً قِلّةً أو كثرةً فكيف وهي تأتي متماثلة في عدد توظيفها أيضا بدقة بالغة.

ولناخذ شاهدًا آخر وهو ما جاء في دعائه (عليه السلام) (اذا نظر الى السحاب والبرق وسمع صوت الرعد ) فقد تكرّرت مفردة (الاية)مرتين في مقدمة الدعاء بقوله: «اللهم انّ هذين آيتان من اياتك...»[1] ولقد تكررت هذه المفردة في سورة الروم مرتين أيضا في قوله تعالى: « ومن آياته يريكم البرقَ خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحي به الارض بعد موتها ، ان في ذلك لاياتٍ لقوم يعقلون »[2]

ومع هذا التناسب العددي هناك التوافق في ذكر (الخوف والطمع) بين الخطاب السجادي وما ورد في قوله (عز وجل) . يقول الامام (ع) : ( يبتدران طاعتك برحمةٍ نافعة أو نقمة ضارّة )[3] وهذا ما جاء في سورة الرعد أيضا « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً »[4]

3- الدقة في اختيار التركيب اللغوي بما يوافق وروده في التعبير القرآني .

ففي دعائه ( في الاعتراف بالتقصير على تأدية الشكر ) استند الى ما ورد في سورتي (الرحمن) و (النحل) فقد وردت مفردة (الاحسان) وهي مصدر معرّف ثلاث مرات في الايتين الكريمتين ، وماثل هذا الوضع ما جاء في الدعاء في قوله (عليه السلام):

( اللهم إن أحداً لا يبلغ من شكرك غايةً الّا حصل عليه من احسانك ما يلزمه شكرا . . . وذلك ان سنّتك الافضال وعادتك الاحسان . . فتباركت ان توصف الاّ بالاحسان)[5] جاءت الفقرة الاولى متمثلة مضمون ما ورد في سورة

---

(1) الصحيفة : 152

(2) الروم : 24

(3) الصحيفة : 152

(4) الرعد : 13

(5) الصحيفة : 154- 157

الرحمن : (هل جزاء الاحسان الاّ الاحسان )[1] والفقرتان التاليتان تمثّل ماورد في سورة النحل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان »[2]

وفي شاهد اخر وهو ماجاء في دعائه ( في طلب العفو والرحمة ) تكررت كلمة (العفو) (ست مرات) في الدعاء[3]

بما يماثل تردّدها في سورة النساء[4] . على ان ما يثير الانتباه هو دقة استعمالها بما يماثل توظيفها في السورة نفسها ، فقد بدأ بالرجاء في حصول العفو ( وعوّضني من عفوي عنهم عفوك ) ثم تدرج في الدعاء وصولاً الى صفة من صفات الذات الالهية وهي (العفو) في اشارة الى الوعد بتحقيقه ونيلهِ فيقول:-

(وكم قد شمل عفوك الظالمين فصلّ على محمد واله ، واجعلني اسوة من قد أنهضته بتجاوزك عن مصارع الخاطئين ، وخلّصته بتوفيقك من ورطات المجرمين ، فأصبح طليق عفوك من إسار سخطك )[5]

وفي سورة النساء يقول الله تعالى : « فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفّوا غفورا » : 99 اذ تقدّم الرجاء ثم اعقبه التحقّق بالنيل بمشيئه تعالى فهو العفوّ الغفور .

4- الدقة في التوسّع بالاقتباس : ولقد كانت لنا هنا وقفة متأنيّة عند دعائه في(وداع شهر رمضان) فلقد وجدنا ان الاقتباسات النصيّة كانت تتناول اموراً محددة بعينها هي على التوالي:-

1- التوبة

---

(1) الرحمن : 60

(2) النمل : 90

(3) الصحيفة : 161

(4) في قوله تعالى « عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفّوا غفورا » : 99 ، «ان الله كان عفوا غفورا» : 43 ، « ان تبدوا خيرا او تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا»: 149 ، « فعفونا عن ذلك » : 153

(5) الصحيفة : 161

2- الاحسان
3- الذكر
4- الشكر
5- الدعاء

وذلك من سورٍ متعدّدة هي ( التحريم ، الانعام ، البقرة ، غافر ) وحين عدنا الى ما ورد في القرآن الكريم عن هذا الشهر المبارك وجدنا ان ذكر اسمه صريحا قد ورد مرة واحدة في (سورة البقرة) وفيه ما يخص هذا الشهر جميعا يقول الله تعالى:-

« يا ايها الذين امنوا كتب عليكم الصيام ، كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (183) اياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدّةٌ من ايام اخر ، وعلى الذين يطيقونه فديةٌ طعام مسكين ، فمن تطوّع خيراً فهو خير له « وأن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون (184) شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدّةٌ من ايام اخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدّة ولتكبّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون (185) وإذا سألك عبادي عني فأني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلّهم يرشدون (186) أحِل لكم ليلة الصيام الرّفث الى نسائكم هنّ لباس لكن وانتم لباس لهنّ ، علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم ، وعفا عنكم فالان باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبيّن الخيطُ الابيضُ من الخيط الاسود من الفجر ثم أتموّا الصيام الى الليل ولا تباشروهنّ وانتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آيته للناس لعلّهم يتقون 187 »

وكان بإمكان النص السجادي الاقتباس من هذه السورة بعينها (الايات 184- 187) للتأكيد على ما اراد من دعوة الى (التوبة والاحسان والذكر والشكر والدعاء) لكنه ذهب الى نظائرها في القرآن الكريم في نظرةٍ اوسع وتفصيل أشمل.

ففي الاشارة الى (التوبة) التي دار حولها الاقتباس الاول في الخطاب السجادي بقوله : (وجعلتَ على ذلك الباب دليلاً من وحيك لئلا يضلّوا عنه ، فقلت تبارك اسمك (توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم ان يكفّر عنكم سيّئاتكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون

«ربنا أتمِمْ لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شئ قدير»[1] فما عذرُ من أغفلَ دخول ذلك المنزل بعد فتح الباب واقامة الدليل)[2]

ولو عدنا الى سورة البقرة لوجدنا فيها ذكر (التوبة) اسماً صريحا «فتاب عليكم وعفا عنكم»[3] . ثم تطرّق الخطاب الى ذكر الخير والاحسان للغير بالانفاق والبرّ في قوله : ( وأنت الذي زدت في السومِ على نفسك لعبادك تريد ربحهم في متاجرتهم لك وفوزهم بالوفادة عليك والزيادة منك ، فقلت تبارك اسمك وتعاليت «من جاء بالحسنةِ فله عشرأمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها »[4] وقلت : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبّةٍ أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبلةٍ مائة حبّة والله يُضاعِف لمن يشاء »[5] وقلت : « « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة »[6] وما أنزلتَ من نظائرهن في القرآن الكريم من تضاعيف الحسنات) ولقد ورد ذكر الاحسان والتفضّل على الغير بفِعْلِ الخير مكثّفا في موضع ذكر شهر رمضان بقوله تعالى « فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له »[7] . اما الذكر والشكر فقد وردا وردا بعد التوبة وفعل الخير في الخطاب السجادي ، يقول إثر ما تقدّم : (وانك

(1) التحريم : 8

(2) الصحيفة : 182

(3) البقرة : 187

(4) الانعام : 160

(5) البقرة : 261

(6) البقرة : 245

(7) البقرة : 185

الذي دَلَّلتهم بقولك من غيبك وترغيبك الذي فيه حظّهم على مالوسترته عنهم لم تدركه ابصارهم ، ولم تَعِهِ أسماعهم ، ولم تلحقه أوهامهم

فقلت « اذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون »[1] وقلت : « لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم انّ عذابي لشديد »[2].

وقد وردت الاشارة الى ذكر الله وتكبيره وشكره في قوله (جلّ وعلا) : «ولتكملوا العدّةَ ولتكبّروا الله على ماهداكم ولعلّكم تشكرون »[3] . اما ذكر (الدعاء) فقد جاء في الخطاب السجادي في قوله : ( وقلت« اِدعوني استجب لكم انّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم واخرين »[4] فسميّت دعائك عبادة وتركه استكباراً )[5]. ولقد ورد ذكر الدعاء في موضع الحديث عن هذا الشهر في قوله تعالى : « واذا سألك عبادي عني فأني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون»[6]

فمع تواتر الاقتباسات ظلّ الخطاب السجادي محافظا على الدقّةِ والاتساق ومحاذاة ما جاء في القرآن الكريم من مضامين في الموضع المحدّد لذكر هذا الشهر المبارك الذي لابد للسامع او القارئ الحافظ لاي القرآن الكريم ان يعود اليها اولا عند قراءته للدعاء على ان النصَّ السجادي أغنانا ومَنحنا شواهد أخرى مناظِرة ومماثلة من الاقتباسات الكريمة فهي الدقّة مع التوسع في الافادة من المرجعية الدينية بما يدلّ على سعة المحفوظ والمهارة في الحفاظ على وحدة التناول .

---

(1) البقرة : 152

(2) ابراهيم : 7

(3) البقرة : 185

(4) غافر : 60

(5) الصحيفة : 183

(6) البقرة : 186

# (الفصل الثاني)

# الاسس الجمالية في البناء الفني

## توطئة

1- الطبيعة الفنية
2 - امتلاك ناصية الوحدة
3- الانسجام
4- الشمولية والاستقصاء
5- التناسب
6- حسن الائتلاف
7- الاتزان
8- التدرج والتنامي
9- القدرة على الوصل
10- مهارة الانتقاء

## توطئة

النصُّ عند المتلقي قبل قراءته هو ما يؤول الى كشفٍ وبيانٍ أو حقيقةٍ ما، وتمشّياً مع حقيقة اختلاف القدرات الابداعيّة، وتباين معطيات النصّ يأتي تحديد ماهيّته فيما قَدّمَ من فَهْمٍ، أو أثّر في بيانٍ وفي فضل الابانةِ والتبين هذا، والبواعث الكامنة في النفوس المعبّرة يقول السجّاد (ع) : (لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة وجملة الحال في فضل التبيين، لأعربوا عن كلّ ما يتلجلجُ في صدورهم ولَوَجدوا من بَرْدِ اليقين ما يغنيهم عن

المنازعة الى كلِّ حال سوى حالهم، على انَّ ادراك ذلك كان لا يعدمهم في الايام القليلة العدّة، والفكرة القصيرةِ المدّةِ، ولكنّهم بين مغمورٍ بالجهلِ ومفتونٍ بالعجب، ومعدول بالهوى عن باب التثبّت، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلّم )[1] وفي قراءة لما جاء في كتاب (في ظلال الصحيفة السجادية) بشرح الشيخ محمد جواد مغنيه ، توقفت مَليّاً عند تعليقه على اسلوب الصحيفة بقوله:

(اما اسلوب الصحيفة فمن الصعب على ايّ كاتب ان يصفه على حقيقته ، أو يصف البعد الذي يتركه في نفس القارئ و السامع وبحسبي أن أقول : ‹ان ارواح الملائكة المقربيّن وأنبياء الله اجمعين تتجلّى في أدعية الامام زين العابدين›[2] فقد وجدتُ في هذه الكلمات صدقاً وتعبيراً دقيقا عما يتركه الخطاب السجادي في نفس القارئ من أثرٍ روحيّ وعمقٍ فكري وثراء لغوي ، مع ذائقة فنيّة عالية ومن أجل تيسير شئٍ من هذه الصعوبة التي أشار اليها الشيخ (مغنية) في تقصّي مواطن الابداع في اسلوب الصحيفة آثرنا الاعتماد على ماجاء في كتاب (منهاج البلغاء وسراج الادباء) لحازم القرطاجني ت 684هـ من دراسة نقدية في هذا الجانب اي جانب الابداع : دواعيه وأدواته .

فقد نوّه (حازم القرطاجني) الى القوى الخاصة التي بتوفّرها لدى المنشئ يتحقق التجويد والابداع في التعبير ، وقد حصرها في عشر نقاط ، لو تتبّعناها لوجدناها رصداً لأسس النقد الجمالي ومقاييسه عند العرب ، ولسوف يحاول البحث جاهداً عرض هذه القوى على أدعية الصحيفة وتتبع حضورها وبيان مدى فاعليتها فيها وهي :-

1- <u>وجود الطبيعة الفنية ونشاط المخيلّة</u> القادرة على ابتداع صور مبتكرة اي (القوة على التشبيه فيما لا يجري على السجية ولا يصدر عن قريحة بما

---

(1) زهر الاداب وثمر الالباب ، ابراهيم بن علي الحصري القيرواني :102/1 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الجيل ، لبنان 1972

(2) في ظلال الصحيفة السجادية : 43

يجري على السجيّة ويصدر عن قريحة )[1] بمعنى قدرة المبدع على تصوير المعاني قبل حصولها بالفعل . ومن دلائل هذه الطبيعة في الاثر السجادي :-

(القدرة على تشخيص الفكرة) في الادعية بوسائل منها مثلاً

أ- التقابل الصوري. يقول (ع) في دعائه لابويه : (اللهم اجعلني اهابهما هيبة السلطان العسوف ، وابرّهما برّ الام الرؤوف )[2] وكذلك في دعائه في الاشتياق الى نيل المغفرة يقول : ( وصيرّنا الى محبوبك من التوبة وأزلنا عن مكروهك من الاصرار )[3] فالصورة جامعة لاكثر من تضاد:

| | |
|---|---|
| صيِّرنا | أزلنا |
| محبوبك | مكروهك |
| من | عن |
| التوبة | الاصرار |

وحين يستعيذ من المكاره وسيءِ الاخلاق نجد الميدان رحبا لحضور هذا التقابل الصوري لانّه تعوُّذ من امر ، ودعاءٌ للحصول على نقيضه ، ومنه التعوّذ من (متابعة الهوى ، ومخالفة الهدى ، وسنة الغفلة وتعاطي الكلفة ، وايثار الباطل على الحق والاصرار على المأثم ، واستصغار المعصية واستكثار الطاعة ومباهاة المكثرين والازراء بالمقلّين )[4] وتكاد كل جملة تقف في خلاف مع ما يجاورها ليكون التضاد في الصورة أعم و أشمل . على ان هذا التقابل الصوري لا يبتعد عن المرئيات كما في سعيه الى تجسيد فكرة الحضور الالهي وتمثّلها في كل حال وما يسبغه الخالق على عباده من نعم وآلاء ، فهو يستعين بالتضاد القريب في قوله (وكم من سحائب مكروه جلّيتها عني

(1) منهاج البلغاء : 200

(2) الصحيفة : 112

(3) م . ن : 61

(4) الصحيفة : 59

وسحائب نعم أمطرتها عليّ وجداول رحمة نشرتها وعافية ألبستها وأعين أحداث طمستها وغواشي كربات كشفتها)[1]

ب_ الاستعانة بالحسيّات والمدركات لتقريب الفكرة ، كما في قوله واصفاً حنوه البالغ وبرّه بأبويه : (واجعل طاعتي لوالديّ وبرّي بهما أقرّ لعيني من رقدة الوسنان ، وأثلج لصدري من شربة الظمآن)[2]

وتبدو الصورة حركية بتوظيف الحواس متدرجّةً من بصيرة القلب الى حركات الجسد في قوله (وآجعل همسات قلوبنا وحركات أعضائنا ولمحات أعيننا ولهجات ألسننا في موجبات ثوابك)[3].وفعالية التخيل تتجلّى (في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعاً من الانتباه للمعنى الذي تعرضه ، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثّر به)[4] .

من هذه الطرق مثلا تجسيده المعاني كما في تجسيد معنى المحبة وعرضه في مشهد مرئيّ مستعينا بالاستعارة في قوله : (واغرس في افئدتنا أشجار محبّتك وأتممْ لنا أنوار معرفتك ، وأذقنا حلاوة عفوك ولذّة مغفرتك وأقرر أعيننا يوم لقائك برؤيتك)[5] فقد جعل للحبّ أشجاراً تغرس وتورق ، ثم جعل له في نصٍّ آخر حياضاً وسقايةً ومذاقاً في قوله : (وأوردنا حياض حبّك وأذقنا حلاوة ودّك وقربك )[6] تعبيرا عن الحب الالهي .

ج- ومنها اللجوء الى التدرج في تشخيص الفكرة حتى تتنامى شيئا فشيئا وتتسع لتصل ذروتها ، ففي دعائه اذا نظر الى الهلال : يصفه أولا بأنه آية من آيات ملك الله يتردّد في منازل التقدير فهو عرضة للزيادة والنقصان

---

(1) م . ن :225

(2) م . ن : 112

(3) م . ن : 62

(4) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر احمد عصفور : 398

(5) الصحيفة : 311

(6) م . ن : 290

والطلوع والافول والانارة والكسوف حتى يصل الى انه مفتاح شهرٍ حادثٍ لامر حادث ، لكي يدعو ويسأل الله فيه ان يكون هلال بركة وأمن وسعد يقول

(ايها الخلق المطيع الدائبُ السريع المتردّد في منازل التقدير المتصرّف في فلك التدبير ، آمنتُ بمن نوّر بك الظّلم وأوضح بك البُهم ، وجعلك آية من آيات ملكه وعلامةً من علامات سلطانه وامتهنك بالزيادة والنقصان والطلوع والافول والانارة والكسوف في كل ذلك انت له مطيع والى ارادته سريع ، سبحانه ما أعجب ما دبّر في امرك وألطفَ ماصنع في شأنك ، جعلك مفتاح شهرٍ حادث لأمر حادث فأسال الله ربي وربك وخالقي وخالقك ومقدّري ومقدّرك ومصوّري ومصوّرك ان يصلّي على محمد واله وأن يجعلك هلال بركة لا تمحقها الايام . . ) [1]

(3) م . ن : 173

ولا تبلغ فاعلية التخييل مبلغها في التأثر بالنفوس في كلّ موضع بل انها (تؤثر فيها بحسب ما تكون عليه درجة الابداع فيها وبحسب ما تكون عليه الهيئة النطقية المقترنة بها ) [2] . ولقد وجدنا الجودة الفنية في اللفظ والمعنى والاسلوب والصورة التي تولدت من هذا كله ، بما يحرّك الذهن والعاطفة معا ويحقق الاستجابة المنشودة.

2- <u>امتلاك ناصية الوحدة :-</u> وان كان (حازم القرطاجني) قد وضع هذا الشرط مقياسا لانتظام القول ، حتى يبدو الاثر الفنيّ أشبة بالعقد المفصل [3] ، فإنّ ما وجدناه في دراستنا للخطاب السجادي هو هذا الترابط والوحدة التي تنتظم بنية الخطاب متمثّلة بالتسلسل الموفّق غير المنقطع ، وحسن الانتقاء ومهارة الانتقال الصائب في عرض الافكار والمعاني كأن

---

(1) منهاج البلغاء : 121

(2) م. ن : 297

(3) الصحيفة :33

يرتبط أوّل الدعاء بآخره بصيغة معينة ، أو بمفردةٍ خاصة تتكرر كما في دعائه (في التحميد لله والثناء عليه) وهو دعاء ليس بالقصير اذ يبدأ (ع) بقوله :(الحمد لله الاول بلا أول كان قبله ، والاخر بلا آخر يكون بعده..)[1] ثم يختمه بقوله (ع) :

(.. ونصير به في نظم الشهداء بسيوف اعدائه انه ولي حميد )[2] ليأتي التوافق المقصود بين (الحمد مبتدئا والحميد منتهيا ، فضلاً عن كونه تذكيرا بعنوان الدعاء . وكذلك ما جاء في دعائه لنفسه وأهل ولايته اذ يستهلّ مناجيا (ع) :-

( يا من لا تنقضي عجائب عظمته ، صل على محمد وآله واحجبنا عن الالحاد في عظمتك . . . )[3]

وفي آخر فقرة من الدعاء نجد التّنويه بما تقّدم والتذكير بمضمونه سيراً على النسق نفسه في قوله :-

(اللهم صلّ على محمد واله ، واجعل سلامة قلوبنا في ذكر عظمتك)[2]

وفي دعائه (اذا نظر الى الهلال) يبدأ الخطاب بقوله : (ايها الخلق المطيع الدائب السريع . . .)[4] ليختم بقوله : (وأتممْ علينا باستكمال طاعتك)[5].

فهي الوحدة التي تنتظم القولَ ليأتي مبنيّاً بترابطٍ أوّلهُ موصول بآخره، واخره يعود الى أوّله ، والذي تحقّقَ بجملةِ امورٍ منها التقّسيم المنتَظم للافكار، من هذا ما تصدّر دعاءه بخواتم الخير حيث يقول : (يامن ذكره شرفٌ للذاكرين ، ويا من شكره فوز للشاكرين ، ويامن طاعته نجاة

(1) م ن : 37

(2) م . ن : 49

(3) م . ن : 51

(4) م . ن : 173

(5) م . ن : 174

للمطيعين )[1] وعلى نسقِ هذه المحاور الثلاثة التي هي (الذكر والشكر والطاعة) يأتي تقسيم الدعاء بتنظيم متوازٍ حيث يقول مباشرة :-

(صلّ على محمد وآله واشغل قلوبنا بذكرك عن كلِّ ذكر وألسنتنا بشكرك عن كلِّ شكر ، وجوارحنا بطاعتك عن كلِّ طاعة)[2]

ومنه ايضا ما أستهل به دعاءه في (اللجوء الى الله تعالى) حيث يقول :-

(اللهم ان تشأ تَعْفُ عنا فبفضلِك ، وان تشأ تعذبنا فبعدلك)[3] الفكرة هنا تشعبَّت على جانبين هما العفو والعقاب الالهي لتأتي تكملة الدعاء مراعية هذا التشعب بقوله مكملاً : (فَسهِّل لنا عفوك بمنِّك وأجِرنا من عذابك بتجاوزك . . )

ومن الامور التي آزرت تحقيق الوحدة (التنوع)[4] لازالة الملل عن السامع وتجديد نشاطه بتجديد الكلام عليه ، كأن يأتيه مثلا بالتضادّ[5] أو أو غيره من الفنون ومنها القدرة على ايجاد الانسجام وهو ما سيكون ركيزة المبحث القادم .

3- الانسجام : وهو داعٍ من دواعي تحقق الوحدة ، ويتّم بوضع بعض الفصول والمعاني من بعض بشكل أفضل بالنظر الى أول الكلام ومنعطفه وخاتمته[6] . ولقد وجدناه حاضرا في جملة امور منها :-

( أ ) انسجام الجمل والاساليب مع بعضها : فإن بدأ (ع) بجملة قصيرة فانه لا يشفعها مباشرة بجمل أطول، بل يشبع ادراكنا لهذا القصر بجمل

(1) م . ن : 65

(2) الصحيفة : 65

(3) م . ن : 63

(4) ينظلر في هذه الدراسة مبحث (التفصيل)

(5) ينظر منهاج البلغاء : 137 و 141

(6) ينظر منهاج البلغاء : 200

أخرى متوافقة ينتقل بعدها الى جمل متوسطة، وبعدد متوازن _في الاغلب_ مع سايقتها ، ثم الى جمل أطول تتوالى كما توالت سابقاتها .

ويأتي الانسجام في اختيار الاساليب

فإن كان التركيب يعتمد اسلوب الالتماس فانه _اي الخطاب_ يغنيه ويفيه حقه لتحل محله بعدها جمل تعتمد التقاطع بالتضاد ، ثم جمل تعتمد التواصل بالعطف يقول : (اللهم اغننا عن هبة الوهابين بهيبتك ، واكفنا وحشة القاطعين بصلتك حتى لا نرغب الى أحدٍ مع بذلك ولا نستوحش من أحدٍ مع فضلك اللهم فصل على محمد واله وكدْ لنا ولا تكدْ علنا ، وامكر لنا ولا تمكرْ بنا وأدِلْ لنا ولا تدلْ منّا)[1].

(ب) انسجام المعاني بترتيبها حسب تسلسلها فهناك التقديم وهو على ألاعم (حمدٌ) مفصَّلٌ بحسب توجّه الدعاء ، أو تمجيدٌ للّه تعالى وذكر صفاته (سبحانه) ثم الصلاة على النبي واله وبعدها المباشرة في الدعاء لتأتي الخاتمة ، كلّ هذا في منهج موحد وفي اجابة عن اسئلة ضمنية بتوازن بين الشكل والمضمون وحين لا يعتمد الدعاءُ تقديماً ممهِّداً بالحمد والتمجيد فلغايةٍ خاصةٍ ومنها الحاجة النفسية مثلا ، ففي دعائه في (اللجوء الى اللّه تعالى) يقول : (اللهم ان تشأ تعفُ عنا فبفضلك ، وان تشأ تعذّ بنا فبعدلك)[2] لكنه يحيل ضمنا الى ذكر صفات اللّه تعالى ومنها (العفوّ والعدلُ) .

(جـ) انسجام الصوت مع الموضوع : لما كان (الأيقاع سمةً من سمات النصوص الممتازة في الثقافة لا تختلف كثيرا في النثر عنها في الشعر)[3] فإن حسنَ النغم وانسجام الصوت مع الموضوع المطروق يأتي

---

(1) الصحيفة : 50

(2) الصحيفة : 63 وفي هذا المضمون اقتراب من قول الامام علي (ع) اللهم احملني على عفوك ولا تحملني على عدلك) شرح نهج البلاغة 184/11

(3) مفهوم النص ، نصر حامد ابو زيد : 157 ط 3 بيروت 1996

استجابة أيضا لكون الدعاء مشافهاً مسموعاً ، ، وهو بحاجة الى تنغيمٍ خاص يؤثر في السامع ليرققّه ويرغبّه ويستميله وليعبرّ إن كان مقصود الدعاء خالصا لله تعالى في طلبِ خيرٍ أو دفع شرٍ عن ذروة الخشوع والتعبد والاحتياج والافتقار اليه تعالى

وهكذا تلّون الصوتُ المتناهي الينا في قراءة الادعية السجادية ، فمن دعائه في (دفع كيد الاعداء) نجد الصوتَ واحداً من بداية الخطاب الى منتهاه وهو المناشدة والحضور الالهي في صيغة (الهي) و (كاف المخاطبة) يقول (وذريعتي اني لم اشرك بك شيئا ولم اتّخذ معك الها وقد فررتُ اليك بنفسي واليك مفرُّ المسئ . . .)[1]

في حين نجد الصوت خاصا في دعائه (في الاعتذار) من غير استطراد أوخروج عن هذا السياق فما نسمعه هو صوت المعتذر مشبَعاً خاصّا يخالطه صوت المعتذر فهو يقول :-

(اللهم اني اعتذر اليك من مظلومٍ ظُلم بحضرتي فلم أنصرهُ ومن معروفٍ اسدي اليّ فلم اشكره ومن مسئٍ اعتذر اليّ فلم اعذره . . )[2] وهكذا تتوالى الاعتذارات في حضور واضح للذات ويبدو التَّرقيق صوتا غالبا .

وان كان قد خالط هذا النص اصواتُ الاخرين فانّ في دعائه في التذلل لله نجد توحّد الصوت وهو صوت الذات في وقفة اعتراف واستغفار :

(فأنا المقرُّ بذنبي المعترف بخطيئتي ، وهذه يدي وناصيتي ، استكين بالقود من نفسي، ارحم شيبتي ونفادَ ايّامي واقتراب أجلي وضعفي ومسكنتي وقلّة حيلتي . . )[3] ولكم جاء الصوت المختار منسجما مع المضمون المطروق ، فصوت الحاء مثلا من الاصوات المهموسة التي تلائم التوسّل واللّين والرقّة ولقد

---

(1) الصحيفة : 223

(2) م ن : 158

(3) م ن : 236

ورد في المناجاة العاشرة (المتوسلين) (اربع عشر مرة) بما يثري الجوّ الدعائي كما في قوله : (رحمتك ، الرحمة ، حلّ ، حطّ ، حرم ، حقق ، أحللتهم ، بحبوحة ، ارحم ، وحيد ، الحرمان ، ارحم ، الراحمين)(1).

وفي دعائه في طلب الحوائج نجد الصوت منفتحا منطلقا من الاستهلال حتى الختام يقول مبتدئا :-

(اللّهم يا منتهى مطلب الحاجات ، ويا من عنده نيل الطّلبات ويا من لا يبيع نعمه بالاثمان ، ويا من لا يكدّر عطاياه بالامتنان . .) ويختم قائلا : (فضلك آنسني واحسانك دلّني فأسألك بك وبمحمد واله صلواتك عليهم ان لا تردني خائبا)(2).

ولعلّنا نتحسسّ الفتح والاطلاق في (اللهم ، يا منتهى ، الحاجات الطلبات ، الاثمان ، عطاياه ، الامتنان ، آنسني ، دَلّني ، خائبا) ولكأنَّ هذا الصوت المنفتحَ يشخِّص لنا اليدَ المرفوعةَ للاعلى بالنداء والنفّسَ الصاعدَ بالرجاء وبما يحقّقُ الانسجامَ بين الصوت والموضوع .

4- <u>الشمولية والاستقصاء :</u> اي عرض المعنى عرضا كاملا من كل جوانبه من غير اخلالٍ أو نقص بترتيب متوافق(3)، وقد اتضّح هذا الشمول في امور عدة منها (الزمان و المكان و الاثر) ففي شمولية الزمن هناك ادراك الماضي والحاضر والمستقبل معا . نقرأ في دعاء (التذلّل لله عز وجل) الاقرار والاعتراف بالذنب ووصف الحال حاضراً (ربّ افحمتني ذنوبي وانقطعت مقالتي فلا حجّة لي فانا الاسير ببليّتي المرتَهن بعملي المتردّد في خطيئتي المتحيِّر عن قصدي ، المنقطع بي ، قد اوقفت نفسي موقف الاذلاء المذنبين موقف الاشقياء المتجرّين عليك المستخفيّن بوعدك)(4).

---

(1) م ن : 298

(2) الصحيفة : 73

(3) ينظر مناهج البلغاء 104

(4) الصحيفة : 236

ينتقل بعدها الى الماضي لتعميم حسرة الانسان وندمه :- (سبحانك ايّ جرأة اجترأتُ عليك وأيّ تغرّيْرُ غررت بنفسي . . .) ومن ثم الى الزمن القادم باستباق ما سيحصل :

(مولاي وارحمني اذا انقطَع من الدّنيا أثري وامَّحى من المخلوقين ذكري وكُنتُ في المنسيّن كمن قد نُسي ، مولاي وارحمني عند تَغيُّرِ صورتي وحالي اذا بلي جِسمي وتفرقت أعضائي وتقطّعتْ أوصالي)[1] والارتحال الى الزمن الابعد عند الحساب في الاخرة زمنا ومكانا (وارحمني في حشري ونشري ، واجعل في ذلك اليوم مع اوليائك موقفي وفي احبّائك مصدري وفي جوارك مسكني يارب العالمين)

ومع شمولية الزمان والمكان هناك شمولية الاثر عملاً وعلماً ، ففي العبادة نجد : الذكرَ بالقلبِ ، والشكرَ باللسانِ ، والطاعة بالجوارح ، يقول في دعائه (بخواتيم الخير) (واشغلْ قلوبنا بذكرك عن كلِّ ذكر ، وألسنتنا بشكرك عن كلِّ شكر وجوارحنا بطاعتك عن كلِّ طاعة)[2]

وفي تشخيص صورة متكاملة للانسان في كل ما سيحاسب عليه من جوارح وما يكتسبه من اعمال نجد تفصيلا اكثرممّا تقدم من دعاء في قوله :

(الهي هل تسود وجوها خَرّت ساجدة لعظمتك ، أو تخرس ألسنةً نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك ، أو تطبع على قلوبٍ انطوت على محبّتك ، أو تَصِمّ اسماعاً تلذذّت بسماعِ ذكرك في ارادتك ؟ أو تغُلّ أكفّاً رفعتها الامال اليك رجاء رأفتك ! أو تعاقب أبداناً عملت بطاعتك حتّى نحلت في مجاهدتك أو تعذّب أرجلاً سعت في عبادتك ؟) ولقد تدرّج في تقصّيه لهذا الموقف من الوجهِ أوّل اِطلالةٍ للمرءِ ، الى اللسان وما يفصح عن خبيئة الانسان ، ثم القلب وما تخفى السرائر فالسمع ، والأكفّ ثم البدن جميعا ، ومنها الى الأرجل

---

(1) الصحيفة : 237

(2) م . ن : 65

الساعية . كل هذا بعرضٍ متكاملٍ يفي بكينونة الانسان جسداً ونفساً مالكة له مصرِّفة اياه بما يرضي الله او يسخطه

وفي دعائه لأبويه نجد الشمولية في طلب العلم والالهام من ربّه بما يفرض عليه من واجبات ازاء والديه ويُجمل هذا بكلمةِ (التَّمام) في قوله : (والهمني علمَ ما يجب لهما عليّ الهاماً واجمع لي علم ذلك كله تماما) [1] ، ومنها الهيبة لهما والرأفة بهما ، حيث يقدّم من صور الرفق ما يكاد يكون شاملاً للعاطفة الانسانية في التعامل معهما ، ففي المحادثةِ ضعفُ الصوت ، وفي الخُلقِ اللّين ، والعطف والشفقة ، وفي الوفاء شكر التربية والرعاية فان كان تقصيراً منه فليقابل بحسنةٍ لهما وزيادة في الدرجة ، أمّا إن قصَّرا هما بفعلٍ أو حقٍ فالاثابةُ عفوٌ وبرٌ . [2]

ومن الشمولية ايضا انه حين ذكر في الدعاء تعبير (التخصيص بالرحمة لوالديه) في قوله (واخصص اللهم والديّ بالكرامة لديك) فانه عمّ بالخطاب المؤمنين وامهاتهم (واخصص ابويّ ماخصصتَ به آباء عبادك المؤمنين وامهاتهم) ويتحقق الشمول الزمني ايضا بالدعاء لهما آناء اللّيل واطراف النهار (اللهم لا تنسني ذكرهما في ادبار صلواتي وفي انىً من آناء ليلي وفي كل ساعة من ساعات نهاري) [3]

وحين يعبّر الخطاب باجمالٍ ليدلّ على الشمولية فانه لابد أن يستقصي بعدها بتفصيلٍ دقيق يقول في دعائه (عند الصباح والمساء) :-

(أصبحنا وأصبحت الاشياء كلها بجملتها لك . .) ليأتي بعدها التفصيل (سماؤها وأرضها وما بثثْتَ في كلِ واحدٍ منهما ساكنة ومتحركّة ومقيمة وشاخصة وما علا في الهواء وماكُنّ تحت الثرى) [4]

---

(1) الصحيفة : 111

(2) ينظر م . ن : 112

(3) م . ن : 114

(4) م . ن : 53

ويأتي الترتيب بتسلسلٍ دقيق فخلقُ السماء قبل الارض والساكن يكون اولاً ثم يظهر بالحركة ، والمقيم قبل الشاخص والظاهر في السماء من طيرٍ وغيره يُرصَدُ

قبل الذي يستتر تحت الثرى . وكل هذا يمثّل لنا صورة شاملة للمخلوقات . ومن شمولية الزمان والمكان والعملِ معاً ما جاء في (التحميد لله) يقول (ثم له الحمد مكان كلِّ نعمة له علينا ، وعلى جميع عباده الماضين والباقين عدد ما احاط به علمه من جميع الاشياء ومكان كلّ واحدة منها عددها اضعافاً مضاعفة ابداً سرمدا الى يوم القيامة ، حمداً لا منتهى لحدّه ولا حسابَ لعدده ولا مبلغ لغايته ولا انقطاع لأمده)[1]

5- <u>التناسب</u> : نبه (حازم القرطاجني) الى اهمّية التناسب في بنية الكلام واثره في استجابة المتلقّي وكلما (وردت انواع الشئ وضروبه مترتبة على نظامٍ وتشاكل وتأليفٍ متناسب فإنَّ ذلك أدعى لتعجبّ النفسِ وايلاعها )[2] ولقد كان هناك جهد واضح في وضع بعض اجزاء العبارات والمعاني من بعض بشكل متناسب ففي دعائه في (الالحاح على الله تعالى) سنتبيَّن كيف وفق الخطاب في تبليغ التسبيح لله (خالقا علياً مدبراً محيياً ومميتاً)، وذلك في مناظرة بديعة بدأ بها الدعاء (ياالله الذي لا يخفى عليه شئ في الارض ولا في السماء ، وكيف يخفى عليك ياالهي ما أنت صنعته ! وكيف لا تحصي ماأنت صنعته ! وكيف يغيب عنك ما أنت تدبرّه ! أو كيف يستطيع ان يهرب منك من لا حياة له الا برزقك ! أو كيف ينجو منك من لا مذهب له في غير ملكك ؟)[3] استوعبت المناظرة سؤالا وجوابا جملا طويلة في حين جاءت الخاتمة بجمل قصيرة متوافقة بالصيغة وبالتأخير والتقديم يقول : (فاليك أفرُّ ، منك اخاف ، وبك استغيث ، واياك ارجو ، ولك ألجأ

---

(1) الصحيفة : 37

(2) منهاج البلغاء : 245

(3) الصحيفة : 233

وبك اثق ، واياك أستعين ، وبك اؤمن ، وعليك أتوكل ، وعلى جودك وكرمك اتكل)[1]

وسبق ان قدمنا في الفصل الاول ونحن ندرس خصائص منهج الصحيفة ذلك التناسب الواضح بين توجّه الدعاء وطرق الافضاء به طولاً وقصراً بحسب المناسبة . ومن صور التناسب ايضا تلك الرقة في الدعاء عند التذلّل والجزالة مع التحميد والتمجيد والتسبيح يقول في أحد أدعيته (اذا استقال من ذنوبه وتضرّع) :-

(اللهم وهذه رقبتي قد أرَّقتها الذنوب فصلّ على محمد واله واعتقها بعفوك وهذا ظهري قد أثقلته الخطايا فصلّ على محمد واله وخففٍّ عنه بمنّك..)[2]

ويتغير نمط الاسلوب في التحميدِ لله حين يصف هذا الحمدَ بقوله : واصفا اياه (حمدا يرتفع مناّ الى أعلى عليين في كتابٍ مرقوم يشهده المقربوّن، حمداً تقرّ به عيوننا اذا برقتّ الابصار ، وتبيَّضُ به وجوهنا اذا اسودّت الأبشار، حمداً نعتق به من أليمِ نار الله الى كريم جوار الله ، حمداً نزاحم به ملائكته المقربين ونضامّ به انبياءه المرسلين..)[3]

وفي التوجه نفسه لكن باعتماد التضادّ يأتي الائتلاف المتوقع في الخطاب في قوله (اللهم انك من واليت لم يضرره خذلان الخاذلين ، ومن أعطيتَ لم ينقصه منع المانعين ومن هديت لم يُغْوِه اضلال المضلّين)[4]

(1) م ن : 235

(2) الصحيفة : 39

(3) م . ن :35

(4) م . ن : 50

فالولاء مناهضٌ للخذلان والعطاء مضاد للمنع والهداية مناقضة للغواية ، ومفتاح التوقع هو الفقرة الاولى اذ منحتنا الاشارة الى ما يمكن الاستجابة له في الفقرات المتوالية من غيرِ إخلالٍ في هذا التنسيق البديع .

ومن حسن الائتلاف في السياق ما ورد في ختام دعائه (عند الشدة) ففيه التماس التسوية بين زمانين وحالين يقول :-

(وارزقني التحفُّظ من الخطايا و الاحتراسَ من الزلل في الدنيا والاخرة في حال الرضا والغضب)[1] اما لماذا فأنه يسوّغ هذا بقوله : (حتى اكون بما يرد عليّ منهما بمنزلةٍ سواءٍ عاملا بطاعتك مؤثرا لرضاك ، على ما سواهما في الاولياء والاعداء)[2] وايثار رضا الله تعالى في المواقف التي تكون مع الاحبّاء والاعداء هي لغايةٍ بعينها يقول : (حتى يأمن عدوي من ظلمي وجوري وييأس وليّ من ميلي وانحطاط هواي)

ويأتي التماس التسوية أيضا في آخر ما يناجي به وهي التسوية بالاخلاص في التوجّه بين دعاء الشاكر في الرضا ودعاء المضطر في البلاء يقول :

(واجعلني مِمّن يدعوك مخلصاً في الرخاء ودعاء المخلصين المضطرّين لك في الدعاء)

هذه الفقرة الاخيرة من دعائه لخصّت مجمل ما تقدّم في حسنِ تنسيقٍ ونظام وذلك بتوزيع طلب التسوية بين زمانين وحالين وتوجّهين . كما انّ التضادّ يحققّ نوعاً من التَّناسب ، فوجود التّناقض في التركيب يثمر في النهاية عن نوعٍ من التَّناسب الدلالي[3] وهذا ماحصل في (تبيّضُ به وجوهنا) و (اذا سودَّت الابشار)

---

(1) الصحيفة : 107

(2) م ن : 107

(3) ينظر:(البلاغة والاسلوبية) محمد عبد المطلب :217 الهيئةالمصريةالعامة1984

كما وجدنا هذا التناسب فيما يمكن ان نطلق عليه بـ(أدب الدعاء) وهو ما سنَّه الخطاب في نهجه المتَّسق على وفق خطوات بدت وكأنها تقليد وعرفٌ مطلوب في كل دعاء فقد توزع على جانبين الاول (يخص الخالق تعالى) وهو ما استُهِلّت به الادعية وفيه (التوحيد والتمجيد والشكر لله مشفوعا بالصلاة على النبي واله الطاهرين ، والثاني (يخص المخلوق) وفيه الاقرار بالعبودية والتذلّل والاعتراف بالذنب مع التصريح بالحياءِ مخلِصا .

فمن التمجيد قوله : (يامن لا تنقضي عجائب عظمته صلّ على محمد واله وآحجبنا عن الالحاد في عظمتك) (1)

ومما هو أقرب من هذا البدء بسورة التوحيد مع تغير يسير : (ياواحد يا أَحد يا صمد يا من لم يلد ولا يولد ولم يكن له كفوا احد) (2)

وبعد التوحيد والتمجيد (الشكر لله) وهو من دواعي الادب الجمّ لما فيه من وفاءٍ بذكر النعِّم السالفة قبل طلب النعِّم القادمة يقول (عليه السلام): (انت الذي أجَبْتِ عند الاضطرار دعوتي وأقلْتَ عند العثار زلتَّي ، وأخذت لي من الاعداء بظلامتي الهي ما وجدتك بخيلاً حين سألتك ولا منقبضاً حين أردتك ، وجدتك لدعائي سامعاً ولمطالبي مُعطِياً ، ووجدتُ نعماكَ عليّ سابغةً في كلٍّ شأن من شأني وكلّ زمان من زماني فانت عندي محمود وصنيعك لديّ مبرور تحمدك نفسي ولساني وعقلي حمداً يبلغ الوفاء وحقيقة الشكر...) (3)

ثم يتردّد ذكر الصلاة على النبي واله كما في دعائه :

(اسألك اللهم بان لك الحمد لا اله الا انت ان تصلي على محمد وآل محمد عبدك ورسولك وحبيبك وصفوتك وخيرتك من خلقك) (4)

---

(1) الصيحفة :49

(2) م . ن :238

(3) م . ن : 230

(4) م . ن : 217

لأن مع الصلاة يستجاب الدعاء (وصلّ عليه واله كما صليّت على عبادك الصالحين و أفضل من ذلك يا رب العالمين صلاة تبلغنا بركتها وينالنا نفعها ويستجاب لها دعاؤنا) (1)

وبعد هذا التشخيص الوافي لمواضع التوحيد والتمجيد والحمد والصلاة على النبي واله يأتي ذكر مواقف العبد قبل المباشرة بالدعاء فهو المقرُّ بآلعبودية المتذلّل المعترف بالذنب المخلص في التضرّع الواقف موقف الحياء من الرب .

فمن الاقرار بالعبوديّة الذي قابل ذكر التوحيد قوله :

(اصبحت وأمسيت عبداً داخراً لك ، لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرّاً الا بك أشهد بذلك على نفسي وأعترف بضعف قوّتي وقلة حيلتي فأنجز لي ما وعدتني وتممِّ لي ما آليتني فاني عبدك المسكين المستكين الضعيف الضرير الذليل الحقير المهين الفقير الخائف المستجير) (2)

وفي مقابل ما قدّم من شكر لالاء الله وفضله ونعمائه وذكره لعبده وتفضلّه عليه يذكر لنا في هذا الجانب (اي جانب المخلوق) الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة والتذلّل والوقوف موقف الحياء باخلاص يقول (ع) :-

(وها انذا بين يديك صاغرا ذليلا خاضعا خاشعا خائفا معترفا بعظيم من الذنوب تحملته وجليل من الخطايا اجترمته مستجيرا بصفحك لأئذا برحمتك موقنا انه لا يجيرني منك مجير ولا يمنعني منك مانع . .) (3)

ونجد توبيخ النفس في صدق الاعتراف والتقرب من نيل عفو الله ورضاه :

---

(1) م . ن : 191

(2) الصحيفة : 101

(3) م.ن : 205

(بل انا ياالهي اكثر ذنوبا وأقبح اثارا أشنع افعالاً واشدّ في الباطل تهورا وأضعف عند طاعتك يتقظا و أقل لوعيدك انتباها وارتقابا من ان احصي لك عيوبي أو اقدر على ذكر ذنوبي وانما اوبّخ بهذا نفسي طمعا في رأفتك) [1]

ويبلغ الدعاء مبلغ الوقوف في حياء باخلاص التوجّه والنيّة الحقة في التقرب من الخالق : (ياالهي لو بكيت اليك حتى تسقط اشفار عيني وانتحبت حتى ينقطع صوتي...

ثم لم أرفع طرفي الى افاق السماء استحياء منك ما استوجبت بذلك محو سيئة واحدة من سيّئاتي) [2] وهذا الحياء مقامُ من وقفَ بين حالين : الرغبة والرهبة من الحساب : (وهذا مقام من استحيى لنفسه منك وسخط عليها ورضي عنك فتلقّاك بنفسٍ خاشعة ورقبة خاضعة وظهرٍ مُثقَلٍ من الخطايا واقفا بين الرغبة اليك والرهبة منك ، وأنت أولى من رجاه وأحقٌّ من خشية واتقّاه فاعطني يارب ما رجوت وأمّني ممّا حذرت) [3]

ومع الحياءِ (الاخلاصُ) في الدعاء لله وحده :-

(اللهم انّى أخلَصْتُ بانقطاعي اليك ، وأقبلْتُ بكُليّ عليك وصرفْتُ وجهي عمَّن يحتاج الى رفدك . . .) [4]

جاءت محاور (ادب الدعاء) في تأليف متناسب متناظر و مطّردٍ في الوقت نفسه ، فتوحيد الله تعالى يقابله الاقرار بالعبودية ، وتمجيد الله تعالى وذكر عظمته يقابله التذلّل واستكانة العبد وخضوعته ، والشكُر على النعماء يقابله ذكر ذنوب المرء ، والاعتراف بالتقصير والتوبة وحين يشفع الدعاء في

---

(1) م ن : 82

(2) م . ن : 83

(3) م . ن : 141- 142

(4) م . ن :127

استهلاله بالصلاة على النبي وآله نجد ذكر الحياء والاخلاص في الوقوف بين يديه تعالى مفتاح الدخول الى باب الطلب والرجاء اي باب الدعاء .

6- حسن الائتلاف : وهو الذي يحدث الطِلاوة (بائتلاف الكلم من حروف صقيلة وتشاكل يقع في التأليف)[1] اي في الهيئة اللفظية والهيئة المعنوية . وهو التوافق الحاصل بين الدال والمدلول ، والتعبير عن المعاني بلغة ايحائية في حسن أداءٍ وتناسق مما يؤدي الى حسن موقعٍ في النفس

وحسن الموقع هذا او لنقل الاستجابة الفاعلة المتحققّة من الدعاء قد يأتي بالالفة في التعبير أي التوقّع المريح كما في قوله : (يامن لا تفنى خزائنُ رحمته صلّ على محمد واله وآجعل لنا نصيبا في رحمتك)[2] . ولو لم يتَّسع لنا قارئين للدعاء اكماله لكان التوقع مصيباً في تقدير (رحمتك) عوداً على ما بدأ به . ومن شواهد حسن الائتلاف أيضا تماثل الكلام في اللفظ أو الصيغة أو المقطع، وهو ما يُحسّن ديباجة القول يقول في دعائه في يوم عرفة : (سبحانك سبيلك جَدَدٌ وأمرك رشدٌ ، وأنتَ حيٌّ صَمَدٌ ، سبحانك قولك حُكْمٌ ، وقضاؤك حتمٌ وارادتك عزمٌ ، سبحانك لارادَّ لمشيّئتك ولا مبدّل لكلماتك ، سبحانك قاهر الارباب باهر الايات فاطر السموات بارئ النسمات)[3]

جاء التماثل اللفظي وحسن الائتلاف فس ( جدد / رشد / صمد) والتماثل في الصيغة في ( قاهر / باهر / فاطر / باري) مع التماثل في المقاطع في الخطاب بأجمعه .

ومن التماثل الصوتي (التوازن) وهو : ان (تُراعى في الكلمتين الاخيرتين من القرينتين الوزن مع أختلاف الحرف الاخير منهما)[4]

(1) منهاج البلغاء : 225

(2) الصحيفة : 49

(3) م . ن : 199

(4) نهاية الارب ، النويري 105/7 المؤسسية المصرية العامة للتأليف القاهرة

وهذا ما نتحسسّه في دعائه (ع) :- (يامن تُحلّ به عقد المكاره ، ويا من يُفثأ به حدُّ الشدائد ، ويا من يُلتمس منه المخرجُ الى روح الفرج ، ذلّت الصعاب ، وتسببّت بلطفك الاسباب ، وجرى بقدرتك القضاء ، ومضت على ارادتك الاشياء)[1] فمع التوازن الحاصل في (عقد المكاره وحدّ الشدائد) نجد الازدواج[2] في قوله بعدها : (يُلتمس منه المخرج الى روح الفرج) وكذلك التوازي في التركيب في قوله (ذلّت لقدرتك الصعاب ، وتسببت بلطفك الاسباب)

وقد يجمع الخطاب بين (المتوازي) وهو تساوي الكلمتين في عدد الحروف وفي نوع الحرف الاخير و (المطرف) وهو اختلاف عدد الحروف واتفاق نوع الحرف الاخير[3] ، يقول في يوم (عرفة) ( لا اله الا أنت العليّ المتعال ، الشديد المحال ، وانت اللّه لا اله الا انت الرحمن الرحيم ، العليم الحكيم ، وانت اللّه لا اله الا انت السميع البصير القديم الخبير)[4] فقد جمع بين المتوازي في الرحيم الحكيم والبصير الخبير وكذلك المطرف في (المتعال، المحال)

7- <u>الاتزان :</u> وهو (القوة على التخيّل في تسيير تلك العبارات متزنة وبناء مباديها على نهاياتها ونهاياتها على مباديها)[5] . ومنه وضع اجزاء الجمل في موازاة بعضها اي اتحادها في الوضع والكيفية ومنه المقابلة بأن يؤتى بمعنين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك في الترتيب . ففي دعائه مثلا (في دفاع كيد الاعداء) نجد تصوير هداية اللّه تعالى ورحمته ثم تصوير عصيان الانسان وضلاله في جمل متزنة :

---

(1) الصحيفة : 199

(2) هو عند البلاغين : (ان تكون كل فاصلتين في النثر على قافية واحدة) ينظر الصناعتين للعسكري : 195

(3) ينظر نهاية الايجاز في دراية الاعجاز للرازي : 65 تحقيق ابراهيم السامرائي ومحمد بركات ط عمان 1985

(4) الصحيفة : 196

(5) منهاج البلغاء : 200

(الهي هديتني فلهوتُ ، ووعظت فقسوتُ ، وأبليتَ الجميل فعصيْتُ ثم عرفتُ ما أصدرت إذ عرفتنيه فاستغفرتُ فأقلْتَ ، فعدتُ فسترت . . .)[1] وقد يتحقق هذا في سياق استلال جملةٍ من اخرى بتناظر جميل كما في قوله (ع) (أسألك خوفَ العابدين لك وعبادة الخاشعين لك ، ويقين المتوكّلين عليك ، وتوكلّ المؤمنين عليك)[2] وقوله : ( واشغل بطاعتك نفسي عن كلّ ما يرد عليّ حتّى لا أحبّ شيئا من سخطك ولا أسخط شيئا من رضاك)[3] .

وحين يستهلّ الدعاء بطلب الرحمة تأتي الخاتمة لتذكر صفة الرحمة للذات الالهية (يا فارج الهم وكاشف الغمّ يا رحمن الدنيا والاخرة ورحيمهما) ثم يختم : (ونجّني من مُضلاّت الفتن برحمتك يا أرحم الراحمين)[4]

ومن صور التلاحم هذا قوله في الدعاء لجيرانهِ إذ يبدأ بقوله بعد الصلاة والتسليم : (وتولّني في جيراني ومواليّ والعارفين بحقنّا والمنابذين لأعدائنا بأفضل ولايتك)[5]

ويفصلّ الخطاب هذه الحقوق التي للناس عليه من جيران ومعارف ومقرّبين من هدايتهم والرفق بهم وعيادة مرضاهم وكتم اسرارهم ، ثم يعود في ختام الدعاء ليلتفت اليهم ويدعو بأن تكون مواقفهم منه مماثلة (وارزقني مثل ذلك منهم واجعل لي أوفى الخطوط فيما عندهم وزدهم بصيرة في حقّي ومعَرفةً بفضلي حتى يسعدوا بي وأسعد بهم . .)[6] ولا يتحقق الاتزان في التركيب والجمل حسبْ بل حتى في عدد هذه الجمل ففي دعائه لاهل الثغور يدعو أولاً لهم بقوله :

---

(1) الصحيفة : 223

(2) م . ن : 239

(3) م . ن : 102

(4) م . ن : 238

(5) م . ن : 119

(6) الصحيفة : 120

(وكثّر عدّتهم واشحذ اسلحتهم واحرس حوزتهم وامنع حومتهم . . .) بما يساوي عشرين التماساً بتناظر في العبارات ، ليقابلها بالمثل اي عشرين التماسا اخر حين يدعو على الاعداء بادئا بقوله : (اللهم أفلل بذلك عددهم وأقلم عنهم اظفارهم وفرّق بينهم وبين اسلحتهم واخلع وثائق افئدتهم وباعد بينهم وبين ازوردتهم . . .)[1] . . وفي ذروة التوجه داعيا يأتي الاتزان بالتقابل ففي دعائه بالتوبة يقول : (اللهم فصل على محمد واله والقني بمغفرتك كما لقيتك باقراري وارفعني عن مصارع الذنوب كما وضعت لك نفسي)[2]

ومن الشواهد التي تعّ غاية في الاتزان ما جاء في دعائه اذا احزنه امر حيث يصور موقف الانسان (الضعيف ، الخائف ، المفرد)

1- يقول في الضعيف (يا كافي الفرد الضعيف . . وضعفت عن غضبك . . ومن يقوّيني وأنت اضعفتني).

2- وفي الخائف (وواقي الأمرِ المخوف. . وأشرفتُ على خوف لقائك . . . ومن يأمنني منك وأنت أخفتني)

3- وفي المفرَد (يا كافي الفرد . . . افردتني الخطايا فلا صاحب لي ، ومن يساعدني وأنت أفردتني)

ويأتي الاتزان في تسيير العبارات في المناجاة مقابلا كل فقرة بما تقدَّم ، فالله تعالى للضعيفِ مُجيروللخائف مؤمِّن وللفردِ ناصر ومعين . يقول (لا يجير ياالهي الارب على مربوب ، ولا يؤمن الاغالب على مغلوب ، ولا يعين الاّ طالب على مطلوب وبيدك ياالهي جميع ذلك)[3]

8- <u>التدرّج والتنامي</u> : لما كان من مقومات الجمال (الوحدة والتنويع) فان الوصول الى هذه المقومات يأتي بالتدرج من مؤثر الى اخر اقوى تأثيرا ، ومن

---

(1) م . ن : 122

(2) م . ن : 134

(3) الصحيفة : 100

جزء الى كلّ ، ومن غامضٍ الى واضح ، ومن مهموس الى مجهور ، ومن ايقاع هابط الى آخر صاعد صاخب ، فالتدرّج والتنامي هو (الالتفات من حيز الى حيز والخروج منه اليه، والتوصل به اليه) [1] . توزع هذا التدرج في الخطاب السجادي على :-

أ- التدرج في طول الجمل : قصيرة فمتوسطة ثم طويلة ، ففي ذكر اسماء الله الحسنى يبدأ بالجمل القصيرة في قوله (انت الله لا اله الا انت الاحد المتوحد ، الفرد المتفرّد ، وانت الله لا اله الاّ انت الكريم المتكرّم العظيم المتعظّم الكبير المتكبّر، وانت الله لا اله الاّ انت العليّ المتعال الشديد المحال . . .) وبلفظتين لفظتين يستمر الخطاب حتى يصل الى نمط آخر بجمل متوسطة في قوله (وانت الله لا اله الا أنت الاوّلُ قبل كلّ احد ، والاخر بعد كل عدد وانت الله لا اله الا انت الداني في علوّه العالي في دنوه وانت الله ثم تطول الجملة اكثر في قوله بعدها (وانت الله لا اله الا انت الذي انشأت الاشياءَ من غيرِ سِنخٍ [2] و صوَّرت ما صوَّرت من غير مثال ، وابتدعت المبتدعات بلا احتذاء . .) [3] وهكذا حتى اخر الدعاء .

لا اله الا انت ذو البهاء والمجد والكبرياء والحمد)

ب- التدرج في الافضاء بالمضامين من (التمجيد) تقديساً وتنزيها الى (التسبيح) خشوعا ورهبة الى (الحمد) ثناءً ورضىً (فالصلاة على النبي) واله تعظيما واكراماً حتى المباشرة في الدعاء بفقرات منتظمة تتنامى شيئا فشيئا ، هكذا كان الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى يستوفي فيها الخطاب خطوات النفس في أدبها في حضرة خالقها مناجية داعية

---

(1) منهاج البلغاء :200

(2) سنخ : أصل

(3) الصحيفة : 196 وينظر ايضا ص 50

أما ما ورد في دعائه (مكارم الاخلاق) وهو دعاء طويل فإنَّ توزيع الافكار فيه قد جاء على وفقٍ تقسيم صحيح إذْ يبدأ ببيان علاقة النفس بالخالق وما يتوجّب عليها من فرائض ، ثم علاقتها بالاخرين وما يتطلّب ذلك من افعالٍ يقول :

(اللهم صلِّ على محمد واله ، وبلّغني بايماني أكمل الايمان وآجعل يقيني أفضل اليقين وانتهِ بنيّتي الى أحسن النيّات وبعملي الى احسن الاعمال)[1] هنا يبدأ التفصيل في بيان عيوب النفس التي من شأنها ان تُبعِد المخلوق عن الخالق (ولا تبتليّني بالكبر وعبّدني لك ولا تفسد عبادتي بالعجب) وبعد أن يفي الخطاب ذكر معايب النفس ويوضح حقوق الرب عليها في الاصلاح يلتفت بتدرج ماهر الى ذكر علاقة النفس بالاخرين : (وأجرِ للناس على يديّ الخير ولا تمحقه بالمن وهب لي معالي الاخلاق واعصمني من الفخر) ليفصّل في التواضع جاعلاً منه هَدفا و مصوّرا اياه في عدة صور قد تتحقق بالمقابلة بين مكانته عند الناس وعنده (ولا ترفعني في الناس درجة الاّ حططتني عند نفسي مثلها ، و لا تحدث لي عزّاً ظاهراً الاّ احدثتَ لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها)[2] او الاستعانة بالبدائل أو طلب العوض في تقريب صوره علاقة النفس بالاخرين

(وأبدلني من بغضة أهل الشنئان المحبة ومن ظنه أهل الصلاح الثقة ، ومن عداوة الادنين الولاية ، ومن عقوق ذوي الارحام المبرّة ، ومن خذلان الاقربين النصرة ، ومن حبّ الموارين تصحيح المقة ، ومن ردّ الملابسين كرم العشرة ، ومن مرارة خوف الظالمين حلاوة الامنة)[3]

ومع طول الدعاء فانّه في مجمله يتوزَّع على أمرين :

---

(1) الصحيفة : 91

(2) م . ن : 92

(3) الصحيفة : 93

الاول : طلب الهداية والحق والطاعة ، والاخر : العصمةُ من الفخر والكبرياء والعجب . يتوجّه الاول الى علاقة الانسان بربه ، ويتوجّه الاخر الى علاقة الانسان بمن حوله ، مقدّما الاهم فالمهم ، ويأتي التوافق في توزيع العبارات على وفق الاتجاهين فنجد كثرة الاسماء والمصادر في الجانب الاول كمثل

(الهدى ، الحق ، النيّه ، التقوى ، الصلاح ، حسن السيرة ، سكون الريح ، طيب المخالقة ، السبق الى الفضيلة ، القول بالحق ، الاقتصاد والسداد)

وتأتي الافعال بكثرة في الجانب الاخر وهو بيان علاقة النفس بالاخرين (اعارض من غشني ، اجزي ، اثيب ، اكافي ، اخالف ، اشكر ، اعفنى . ..)

وقد ياتي التدرّج بما يلائم مراحل خلق الانسان ففي دعائه لولده ، يبدأ بالدعاء لهم صغاراً (. . . وربِّ لي صغيرهم وقوِّلي ضعيفهم ، وأصحّ لي أبدانهم واخلاقهم وعافهم في انفسهم وفي جوارحهم . .) ثم الدعاء لهم بعد ان يكبروا (اللهم اشدد بهم عضدي وأقم بهم أودي وكثّر بهم عددي وزيّن بهم محضري واحيي بهم ذكري واكفني بهم في غيبتي وأعنّي بهم على حاجتي . . . واجعلهم لي عوناً على ما سألتك...) [1]

كما نجد التدرج في التعبيرِ عن منازل الهلال في دعائه (اذا دخل شهر رمضان) بما يوافق التدرّج في محو الذنوب (المحاق ، السلخ ، الانقضاء) :

(اللهم صلّ على محمد واله وآمحق ذنوبنا مع امحاقِ هلاله واسلخ عنّا تبعاتنا مع انسلاخ ايامّه حتى ينقضي عنّا وقد صفّيتنا فيه من الخطيئات) [2]

وعند دعائه في ختم القرآن ، نجد التدرّج في ذكر الغاية الشريفة من تلاوته ابتداء من خيره في الحياة الدنيا بالتطهير من الرجس والذنوب ، فخيره

---

(1) م . ن : 115

(2) الصحيفة : 179

عند الممات بالاجتياز بسلامةٍ ، ثم في الاخرة بنيلِ رضوانه تعالى في الجنّة : (واجعل القرآن وسيلة لنا الى أشرف منازل الكرامة ، وسلّما نعرج فيه الى محلِّ السَّلامة ، وسبباً نجزى به النجاة في عرصة القيامة ، وذريعة نقدم بها على نعيم دار المقامة) [1] ويفصّل الخطاب بعدها كلّ هذه المآثر وفي كلِّ مرحلة ، بل ان هذا التدرج يأتي موافقا لما يرد في القرآن الكريم ففي سورة الشورى جاء في ذكر الانزال اولاً «الله الذي انزل الكتاب بالحق» [2] ثم جعل الله تعالى هذا النور هداية «. . . ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا» [3] .

وهذا التدرج في ذكر الانزال اولاً ثم جعلهِ هدايةً للعباد. نجده في الخطاب السجادي في دعائه (اللهم انك اعنتني على ختم كتابك الذي انزلته نوراً) ثم يواصل (وجعلته نوراً نهتدي به من ظلم الضلالة والجهالة . . وميزان قسط لا يحيف عن الحق لسانه و نور هدىً) [4] وحين يعترف العبد بين يدي الله تعالى ويطلب التوبة يأتي العرض بتأنٍ وتنامٍ ، وذلك بذكر الحال قبل المباشرة بالدعاء وفيه وصف الاقبال عليه تعالى ، ومن ثمّ تشخيص المثول عند الدعاء :-

(اللهم انه يحجبني عن مسألتك خلال ثلاث وتحدوني عليها خلّة واحدة، يحجبني أمرٌ أمرتَ به فأبطأتُ عنه ، ونهيٌ نهيتني عنه فأسرعتُ اليه ، ونعمةٌ أنعمتَ بها عليّ فقصرَّتُ في شكرها ، ويحدوني على مسألتك تفضلك على من أقبلَ بوجهه اليك ، ووفدَ بحسنِ ظنّه اليك) [5]

---

(1) م . ن : 168

(2) الشورى 17

(3) الشورى 52

(4) الصحيفة : 166

(5) الصحيفة: 67

وحين يباشر الدعاء يمثل لنا الوقوف بين يدي الله تعالى بأساليب متنوعة مطيلاً في هذا الجزء :-

(فها انذا يا الهي واقف بباب عزّك وقوف المستسلم الذليل ، وسائلك على الحياء منّي سؤال البائس المعيل ، مقرٌّ لك بأنّي لم استسلم وقت احسانك الاّ بالاقلاع عن عصيانك . .) حتى يصل الى ذروة التشخيص بما امتلكه الخطاب من جودة التعبير وصدق العاطفة : (فقام اليك بقلبٍ طاهر نقي ، ثم دعاك بصوتٍ حائلٍ خفي ، قد تطأطأ لك فأنحنى ، ونكّس رأسه فانثنى ، قد أرعشت خشيته رجليه ، وأغرقت دموعه خدّيه)[1] وفي دعائه في (ذكر التوبة) ما يماثل ما تقدّم اذ تدرَّجَ من النيّة والقصد حتى المثول والخشوع :- (فأمَّكَ بطمعه يقيناً وقصدَك بخوفه إخلاصاً ، قد خلا من كلِّ مطموع فيه غيرك ، وأفرخَ روعه من كلّ مخدور منه سواك ، فمثَّلَ بين يديك متضرعّاً وغمض بصره الى الارض متخشعا ، وطأطأ رأسه لعزّتك متذلّلاً وأبثَّكَ من سرِّه ما أنت اعلم به منه خضوعاً)[2]

ج- وهناك التدرّج التعبيري في الخطاب كالابتداء بصيغةٍ غير مباشرة في ذكر صفات الخالق سبحانه ، ثم الانتقال بعدها الى صيغة مباشرة في الدعاء بما يشكل خصائص أدبيات الخطاب السجادي يقول في تضرّعه: (يامن برحمته يستغيث المذنبون ويا من الى ذكر احسانه يفزع المضطرون . . .) وتتوالى هذه العبارات لينتقل بعدها الى الخطاب المباشر:

(انت الذي وسعتَ كل شئ رحمة وعلماً ، وانت الذي جعلتَ لكلّ مخلوقٍ في نِعمكَ سهما وأنت الذي عفوه أعلى من عقابه . .) ويؤخر التعبير عن الذات حتى يقول بعدما تقدم (وأنا ياالهي عبدك الذي أمرته بالدعاء . . انا الذي

---

(1) م . ن : 67- 68

(2) م . ن : 133

اوقرت الخطايا ظهره ، وانا الذي أفنت الذنوب عمره . .)[1] وهكذا يستمرّ الخطاب على هذا التدرّج المتسامي في أدبيات الدعاء .

ء- ومن انماط التدرّج ايضا التدرج الصوتي ابطاءً واسراعاً طولاً وقصراً . ففي دعائه اذا عرضت له مهمة يقول مبتدئاً :

(يامن تحلّ به عقد المكاره ويا من يُفثأ به حدّ الشدائد ويا من يُلتمس منه المخرج الى روح الفرج) فالجمل قصيرة بما يوازي الانفاس المتلاحقة صاعدة نازلة ، مُعبِّراً بالاصوات المهموسة غالبا (الحاء والثاء والهاء والفاء والخاء والسين والكاف) لما فيها من رقة وتحنّن ، ثم يقول مُغَلِّبا الاصوات المجهورة (نزل بي يا رب ما قد تكأدني ثقله وألمّ بي ما بهضني حمله وبقدرتك أوردته عليّ وبسلطانك وجّهته اليّ فلا مصدر لما أوردت ولا صارف لما وجهت)[2] . جاء التدرج في مجمله وبكل انماطه متوافقاً مع المطلوب من الدعاء غير مفاجئ او مقطوعٍ عما سبقه مراعياً بذلك اموراً عدة منها : أدبيات الخطاب في التوجه بالدعاء ومنها مراعاة الكلام نفسه وطرق الافضاء بالمضامين في حسن تقسيمٍ يتنامى ، ولا يَثِب ويتصاعد ولا ينقطع .

9- القدرة على الوصل :- الوصل هو العلم بمواضع العطف والاستئناف ومعرفة الهيئات التي يتم بها وضع حروف العطف في مواقعها ، وهو يعدّ (من اعظم أركان البلاغة)[3] ولا يقدر على هذا الفن (الاّ الاعراب الخلّص والاقوام الذين طبعوا على البلاغة واوتوا فنا من المعرفة في ذوق الكلام)[4].

وبه يتمّ احكام التأليف ذلك (ان العرب انتهت من احكام

---

(1) الصحيفة : 79- 80

(2) م . ن : 57

(3) البيان والتبين ، الجاحظ 88/1

(4) دلائل الاعجاز ، الجرجاني : 240

الصنعة الجديرة بالتأثير في النفوس الى مالم تنته اليه أمه من الامم ) ، وانهم (اتخذوا الكلام المحكم نظماً ونثراً للوعظ والحضّ على المصالح)[1]

وقد وجد البحث مسوّغات لهذه القدرة والسعة في الخطاب السجادي منها:

1- سعة اللغة العربية نفسها وكون البيان من خصائصها نقرأ في المزهر للسيوطي في (انا لو احتجنا الى أن نعبّر عن السيف واوصافه باللغة الفارسية لما امكننا ذلك الا باسم واحد ، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة . . وأين لسائر اللغات من السعة ما للغة العرب ؟)[2]

2- إنّ من خصائص الدعاء وطبيعة التعبير عنه الافضاء بلسان حال الناس جميعا ، على اختلافهم في الموقف والباعث النفسي ، من هنا احتاج الخطاب الى التوسّع والافاضة ليكون أشمل

3- كما ان من طبيعته أيضا الاستناد الى مقوماتٍ كعرض الحال أو المقام وعرض الادلة والحجج والاستشهاد للتّوثيق مع إيفاء كل جزء حقّه مثل ذكر صفات الخالق وصفات المخلوق وصفات الاعمال والعبادات ، كذلك تزيين المعاني في قلوب المريدين بألفاظ متنوعة للتأثير والاستجابة .

ولقد احتّل حرف (الواو) الصدارة في وصل الكلام ثم (أو) بعدها ذلك ان (الواو) يفيد (الاشراك) من أجل زيادة معنى الجمع قوة وظهوراً ، اما (او) فتفيد تردّد الفعل بين شيئين ولا تجعلهما لاحداهما بعينه .

فمن شواهد حسن الربط بالواو ، وأو ، للتقابل في عرض الوقف قوله:-

(ولا تفتني بما أعطيتهم ، ولا تفتنهم بما منعتني فأحسد خلقك وأغمط حكمك واعصمني من أن اظنّ بذي عدم خساسة أو أظنّ بصاحب ثروةٍ فضلاً)[3]

---

(1) منهاج البلغاء : 122

(2) المزهر للسيوطي : 322

(3) الصحيفة : 150

لم يكن الوصل كما ترى هنا وفي غير هذا الموضع أيضا تراكمات في الجمل فحسب في عطف بعضها على بعض بل نجد التفاعل الحاصل في السياق بأكمله ، ففي البدء يذهب الدعاء الى التعوّذ من الفتنة من النعمة فهناك (الداعي والاخرون والعلاقة الحاصلة من المنع والعطاء الرباني لخلقه ، وفي الفقرة الاخرى طلب العصمة بالتقدير الباطن في النفس بتحقير المعدَم وتعظيم المنعَم عليه ) و الفقرة بأجمعها تصبّ في سياقٍ واحد هو حسن النوايا بالاخرين وصولاً لحسن العبادة الحقة التي هي خالصة بين العبد والرب غير معزولة عن العلائق الانسانية التي هي محلّ الحساب .

ومن شواهد العطف والاستئناف بعده ما جاء في تصوير موقف الاقرار والاعتراف :-

(رَبِّ أفحمتني ذنوبي وانقطعت مقالتي فلا حُجَّةَ لي فأنا الاسير ببليّتي المرتّهن بعملي ، المتردّد في خطيئتي المتحيّر عن قصدي المنقطع بي)[1]

وقد جاء الواو في سياق ذكر المساوئ أو المحاسن لكونها تفيد التعداد ففي الاستعاذة (من المكاره وسئ الاخلاق ومذام الافعال) نجدها غالبة في الحضور مفيدة احكام الكلام ، في حين وردت (أو) في عبارات محدّدة . تنقل قوله مبتدئا :

(اللهم اني أعوذ بك من هيجان الحرص وسَوْرة الغضب وغلبة الحسد وضعف الصبر ، وقلة القناعة وشكاسة الخلق والحاح الشهوة وملكة الحمية ومتابعة الهوى ومخالفة الهدى وسِنة الغفلة وتعاطي الكلفة ، وايثار الباطل على الحق والاصرار على المأثم . . . وترك الشكر لمن اصطنع العارفة عندنا ، أو أن نعضد ظالماً أو نخذل ملهوفا أو نروم ماليس لنا بحق أو ان نقول في العلم بغير علم، ونعوذ بك أن ننطوي على غشِّ أحد و أن نعجبَ بأعمالنا ونمدّ في

---

(1) م.ن : 236

آمالنا...)[1] . ففي الجزء الاول من الدعاء تعدادٌ لمساوئ النفس البشرية التي تغلب عليه ولا يقدر على ردّها الا بمعونة الله بما يشمل الاخلاق المذمومة ، ثم تعداد الافعال الصادرة عن المرء التي يتحكم بها وبمقدوره صدّها بالايمان والصبر والهداية لذا اختار للاولى المصادر مثل (الهيجان ، الغلبة ، الضعف ، الالحاح ، الشكاسة) واختار للثانية الافعال التي تدل على التقلب والحركة (نعضد ، نخذل ، نروم ، نقول ، ننطوي . .)

ومن الملاحظ أيضا هذا التوازن الذي حققّته (أو) في مقابلتها بين (أن نعضد ظالما أو نخذل ملهوفا) وهو توازن في الصيغة ومؤدّاها ، في حضور الاثبات في الاولى (أن نعضد أو نخذل) ووقوع النفي في الثانية (ماليس لنا بحق أو ان نقول في العلم بغير علم)

وكان من منهجية الدعاء أن يتوسّط الجملَ الموصولةَ بعضُ التراكيب المهمّة والاساسية من مثل : (اللهم صل على محمد واله) أو (الهي واللهم ، واللهم يا من) و (السلام عليك) في دعاء (وداع شهر رمضان) ، اذ تتكرر هذه التحيّة المودّعة ومعها جمل مترابطة ، متواصلة تعبّر عن خصوصية هذا الشهر ومكانته المقدَّسة والاثيرة عند الله تعالى وعند المسلمين يقول الخطاب :-

(السلام عليك يا شهر الله الاكبر ، ويا عيد اوليائه ، السلام عليك يا اكرم مصحوب من الاوقات ويا خير شهر في الايام والساعات السلام عليك من شهرٍ قرُبت فيه الامال ونُشِرت فيه الاعمال السلام عليك من قرينٍ جلَّ قدرُهُ موجوداً و أفجعَ فقدُهُ مفقوداً ومرجوٍّ آلم فراقه السلام عليك من اليف انسَ مقبلا فسرَّ وأوحشَ منقضياً فمضَّ السلامُ عليك من مجاورٍ رَقَّتْ فيه القلوبُ وقلَّتْ فيه الذنوبُ . . . . .)[2].

(1) الصحيفة : 59

(2) الصحيفة : 185- 186

ومن هذا أيضا الابتداء ب (يا من) ثم تكرارها مع الجمل الموصولة : (يا من يرحم من لا يرحمه العباد ، ويا من يقبل من لا تقبله البلاد ، ويا من لا يحتقر أهل الحاجة اليه ، ويا من لا يخيّب الملحيّن عليه ويا من لا يجبَهُ بالردِّ أهلَ الدالّةِ عليه) [1] وقد يكون العطف من أجل ذكر سبب ما تقدّم من كلام أو للاستطراد فيه ، كي لا ينفصل الدعاء بعضه من بعض فيختّل نسق الكلام، وكلما استرسل الدعاء زادت العناية بالوصل لان الحاجة استثارة المقابل هنا اكثر مما هي عليه في بدئه .

10- <u>مهارة الانتقاء:</u> وذلك بحسِن التمييز فهي (القوة المائزة حسن الكلام من قبيحه بالنظر الى نفس الكلام وبالنسبة الى الموضع الموقع فيه الكلام) [2] فالخطاب ينتقي بدقة المفردات الموحية و يضعها في الموضع الملائم والسياق المناسب ولنقرأ ما جاء في ذكر آدم (ع) والصلاة عليه : (اللهم وآدم بديع فطرتك ، وأوّل معترف من الطين بربوبيتك و بَدْرُ حجتّك على عبادك وبريتّك ، والدليل على الاستجارة بعفوك من عقوبتك ، والناهج سبل توبتك ، والموسَّل بين الخلق وبين معرفتك والذي لقنّته ما رضيتَ به عنه، بمنِّك عليه ورحمتك ، والمنيبُ الذي لم يصرّ على معصيتك ، وسابق المتذلّلين بحلقِ رأسه في حرمك والمتوسل بعد المعصية بالطاعة الى عفوك وابو الانبياء ..) [3].

و ينتقي المفردات بدقة في وصف (ادم عليه السلام) مرتّباً اياها هو اولاً (بديع الفطرة المعترف بالربوبية الحجة على العباد) وبعد الخطيئة هو (المستجير التائب ولولاه ما عرفنا الرب ، الملقّنَّ المنيب المتذلل المتوسل بالطاعة)

وحين يدعو بالصلاة عليه نجد عبارات مكثّفة لكنها دَقيقة بما تحمله من شمولية في المعنى :

---

(1) م . ن : 186

(2) منهاج البلغاء : 200

(3) الصحيفة : 247

(فصلّ عليه انت يا رحمن وملائكتك وسكان سمواتك وأرضك كما عظّمَ حرماتك، ودلنّا على سبيل مرضاتك يا أرحم الراحمين)[1]

وجاء اختيار الجملة الاخيرة (على سبيل مرضاتك) موافقاً لما ورد في قصة ادم (ع) حين دلّه الله تعالى على سبيل التوبة والمغفرة يقول تعالى : «فتلقّى ادمُ من ربِّه كلماتٍ فتاب عليه انه هو التواب الرحيم»[2]

ومهارة الانتقاء تتضّح في التنّويع الذي يجريه كما في الفواصل مثلا ، اذ لا يجريها على حرفٍ واحدٍ ، بل يعمد الى ذكر سجعات متباينة نَتحسَّسُ فيها تنوّع النَّبرِ صعوداً وهبوطا في اختيارٍ موفق بين المفرَدة المسْجَعةِ وما يسبقها ففي (طلب الستر والوقاية) يقول :

(أخفِ عنهم ما يكون نشره عَليَّ عارا ، واطوِ عنهم ما يلحقني عندَكَ شَنارا ، شَرِّف درجتي برضوانِك ، وأكمِل كرامتِي بغفرانِك ، وأنظمني في أصحابِ اليمين ، ووجّهني في مسالكِ الامنين)[3]

وتتضَّح الصلة بين (عَلَيَّ عارا) و (عندَكَ شنارا) في الفتحِ صعوداً وبين (درجتي برضوانك ، كرامتي بغفرانك، اصحابِ اليمين، مسالك الامنين) في الكسر هبوطاً في النبر المتجاور . وقد يعمد الى سجعاتٍ متقاربة تسمح بظهور قوة النبر على الفاصلة التي يقف عندها الخطاب وذلك على وفق طبيعة الدعاء، كأن يقتضي الخطاب تعداداً وذكراً لامور واوصاف كثيرة فيأتي في جمل تحمل زخماً ودلالةً مكثَّفة وذلك في سجعاتٍ متجاورة ، يقول في (الاستعاذة من المكاره):-

---

(1) الصحيفة : 245

(2) البقرة : 37

(3) الصحيفة : 165

( . . ونعوذُ بك من سوء السريرة واحتقار الصغيرة وأن يستحوذ علينا الشيطان ، وينكبنا الزمان ، أو يهضمنا السلطان ، ونعوذ بك من تناول الاسراف ومن فقدان الكفاف ، ونعوذ بك من شماتة الاعداء ومن الفقر الى الاكفاء ، ومن معيشةٍ في شدّه ، وميتةٍ على غير عدّه . . .) [1]

(1) م . ن : 60

# الفصل الثالث

# السمات الروحية



## (توطئة)

إن كانت ملامح تَفَرُّد هذا الاثر الفنّي الجليل بابداعه قد اتضّحت من خلال ما عالجناه من خصائص جماليةٍ ومنهج مطّردٍ فان تناول السمات الروحية سيطلعنا على شخصيّة مبدعة فيما تعرَّضَ له من مسائلَ اخلاقية تنمُّ عن عقيدة صادقة ، وحقوقٍ انسانيّة تعبّر عن انسانيّةٍ تنشد تعاليم القرآن وسنة الرسول (ﷺ) بالموعظة الحسنة والتزهيد في الحياة الدنيا والترغيب بالبرّ والاحسان

اتضحت شخصية الامام (ع) في صدقه وهو يعبّر عن كل ما يختلج في النفس من خوفٍ وخشوع وحياء وانابةٍ وتضرّعٍ ، وذلك في حالات شعورية عالية بين يدي الله تعالى أسماها مقامات ، فمن مقام اعترافٍ كما في قوله : (وهل ينجيني منك اعترافي لك بقبيح ما ارتكبت أم اوجبْتَ لي في مقامي هذا سخطك) (1)

---

(1) الصحيفة : 68

الى مقام توبةٍ : (هذا مقام من تداولته أيدي الذنوب ، وقادته أزمّةُ الخطايا واستحوذ عليه الشيطان فَقَصرَّ عمّا أمرْتَ به . . .)[1]

ومن مقام العائذ بالله:- (فهذا مقام العائذ بك ومحلّ المعترف بك)[2] الى مقام الشاكر لنعمائه (سبحانه) : (هذا مقام من اعترف بسبوغ النعّم وقابلها بالتقصير وشهد على نفسه بالتضّييع)[3]

هذه الوقفات وغيرها هي التي جَسَّدت عبودية المخلوق ومثَّلت ربوبيةَ الخالق ، ورسمت أدقَّ الاحاسيس في قلب المؤمن في الخوف والرجاء وقابلتها بأعظم صفات الالوهية في السخط والرضا . لم تكن أدعية منفردة خاصّة قيلت في موقفٍ له زمانه ومكانه ، بل انبسطت على مساحةٍ أوسع في مكانها ، وعلى فضاءٍ أرحب في زمانها ، وتحدَّثت عن نفوسٍ أعمّ وأشمل فجاوزت فرديَّتها .

ما كان الصوت سجاديّا للسجّاد حسب ، بل انسانيا للانسانية جمعاء ، فلقد عرف ربّه حين عرف نفسه فعرف الانسانية معها ، من هنا كان الدعاء صاعداً من القلب الى حضرة الرب نابضاً بالاحاسيس الروحيّة : (قيل لجعفر بن محمد الصادق عليه السلام : ما بالنا ندعو فلا يُستجاب لنا : قال : لانكم تدعون من لا تعرفونه)[4]

فبالحِسّ الانساني رضاً وطمانينة أو رفضا ومناهضة للانسانية كان يتوجّه ، وبالحسّ الصوفي العميق للالوهية حبّاً وشوقا كان يدعو ، من هنا اكتملت شرائط الابداع وتحققّت اصولها ، بتلك الهندسة الجمالية الفائقة المتعة ، وذلك المنهج الدقيق، وهذه الدفقات الروحانية ، ويقينا انّ ايّ قارئٍ لهذا الاثر لن يطالع كلماتٍ أو يتابع عبارات بل انه لينتفضُ احساساً وينتعش

---

(1) م . ن : 132

(2) م . ن : 141

(3) م . ن : 226

(4) شرح نهج البلاغة : 159/11

ذوقا وينحني اعجاباً ، ولن تمرّ هذه الادعيةً أمام بصره ، بل ستحاور روحه حتى تخشع ، وتلامس عينه حتى تدمع ، وترقّق قلبه حتى يركع، ولن يظَل بعدها كما بدأ قارئا مستطلِعاً بل سيؤول قارئا مكتشفاً عارفاً .

## المبحث الاول: الحسُّ الانساني

إن تجسيد الفضائل والمثل العليا في الادعية والمواعظ عموماً ، هو وسيلة من وسائل الابداع لأنّه يثير التطلّع الى الجمال والقيم النبيلة ، ويدفع المبدع الى التعبير عن أفكاره وآماله في تصويره لواقع الحياة ، ولقد تمثّل هذا التجسيد في عموم أدعية الصحيفة بما يمثِّل الحسّ الانساني النبيل ، كما يبدو اثره عند السامعين بذلك الاطمئنان والرضا وتلك القوة الورحية التي تمنح الاستجابة للداعي لخلوص نيّته وصدقه وسموّ توجهه ، نقرأ في المصادر الموثّقة : (قال طاوس : انّي لفي الحِجرْ ليلة اذ دخل (علي بن الحسين) (عليهما السلام) فقلت: رجلٌ صالح من أهل بيت صالح ، لأسمعنَّ دعاءه ، فسمعته يقول في أثناء دعائه: عبدك بفنائك سائلك بفنائك ، مسكينك بفنائك) فما دعوتُ بهنّ في كربٍ الاّ وفرّج عنّي) [1] . ولقد اتضّحت ملامح هذا الحسّ الانساني في جملة امور هي:-

1- الاحساس بالمسؤولية
2- صفاء النفس بالعفو
3- تصوير الواقع الانساني
4- التعبير عن الجماعة

1- الاحساس بالمسؤولية : اتّضح هذا الاحساس تجاه الاخرين في أوقات السلم والحرب معاً ، ففي الاول نجد في الخطاب السجادي ما يحدّد مهام الوليّ بين عباده في أداء سنن الله (تعالى) وهي : الرفق بالضعيف ، وعيادة

---

(1) شرح نهج البلاغة : 304/6

المريض ، وهداية المسترشد ، والنّصح للمستشير ، وتعهّد القادم ، وكتمان السرِّ ، وستر العورة ، ونصرة المظلوم ، وحسن المواساة بالاكرام قبل السؤال ، ثم ما يجب عليه بعد هذا التعامل وذلك بالاحسان اليهم إن أساءوا ، والتجاوز عن ظالمهم ، وحسن الظن والبرّ بهم ، وغضّ البصر حياء ، والتواضع والرحمة ، والابتعاد عن الحسد ، مع صفاء السريرة في غيابهم مودّة ، وان يكون الاحساس بالمسؤولية تجاهم كما هو تجاه الاهل

والخاصّة : (واجعلني اللهم اجزي بالاحسان مسيئهم وأعرض بالتجاوز عن ظالمهم واستعمل حسن الظن في كافتهم ، وأتولّى بالبرّ عامتهم واغضّ بصري عنهم . . .)[1] وفي نظرة متفائلة بالمقابَلَةِ بالمثل من لدنهم يقول في الجزء الاخير من الدعاء : (وارزقني مثل ذلك منهم) وذلك لكي تتحققّ السعادة ويعمّ الخير الجميع : (حتى يسعدوا بي وأسعد بهم)[2]

وفي الثاني (اي وقت الحرب) نقرأ دعاءه لأهل الثغور وفيه يجمل اولاً في الدعاء بتحصين الثغور وتقوية حماتها ، ليفصّل بعدها بذكر مقوّمات هذا التحصين وهذه القوة ، وذلك بتكثير الجند وشحذ العتاد وتقوية النفوس : (وكثّر عدتهم واشحذ أسلحتهم ، واحرس حوزتهم ، وامنع حومتهم ، ودبِّر أمرهم وواتر بين ميرهم . .)[3] . ولقد توزعت المضامين بعدها بشكل دقيق بدءً بالدعاء للمسلمين فالدعاء على المشركين ثم العودة من جديد على النسّق نفسه لينتهي الخطاب كما بدأ بالدعاء لكل غازٍ أو مرابطٍ أو متعهِّدٍ لأهل المجاهدين او ناوٍ للغزو والجهاد ، كل هذا في جملٍ قصار متناسقة ومتوازية في التركيب والمقاطع -كما رأينا- وكأنها توصل الينا بهذا الترجيع ما يثيره ايقاع الحرب في جموع الجند وهي تندفع في سرايا منتظَمة ومتتابعة .

---

(1) الصحيفة : 119(دعاؤه لجيرانه واوليائه)

(2) م . ن : 119

(3)

ويتّضح الحسّ الانساني في التوجه بالدعاء بالخير للمسلم الغازي في كلّ ما يخص حياته الجهادية مرحلة اثر اخرى فقبل القتال يدعو له : (اللهم و ايّما غاز غزاهم من اهل ملتّك . . فلقّه اليسرَ وهيّئ له الامر وتولّه بالنجح وتخيَّرْ له الاصحاب واستقوِ له الظهر واسبغ عليه في النفقة ومتّعه بالنشاط وأطفِ عنه حرارة الشوق، وأجره من غمّ الوحشة وأنسه ذكر الاهل والولد . . واعفه من الجبن وألهمه الجرأة)[1] وعند المنازلةِ : (فاذا صافَّ عدوك وعدوه فقلّلهم في عينه وصغّر شأنهم في قلبه) فان استشهد (فان ختمتّ له بالسعادة وقضيت له بالشهادة . . فبعد ان يجتاح عدوك بالقتل وبعد ان يجهد بهم الاسر وبعد أن تأمن أطراف المسلمين وبعد ان يولي عدوك مدبرين).

2- صفاء النفس بالعفو: ومن ملامح الحسّ الانساني بالغير الدعوة للعفو وهو دليل صفاء النفس من شوائب الحقد والضغينة ، جرّاء الظلم والاساءة من الاخرين ففي دعائه (في طلب العفو والرحمة) يبدأ بطلب التحرّز من ظلم الغير (واكسر شهوتي عن كل محرم ، وآزو حرصي عن كل مأثم ، وامنعني عن اذى كلّ مؤمن) والتصريح بالعفو عمنّ اساء اليه . (وأيّما عبد نال منّي ما حظرت عليه وانتهك منّي ما حجرْتَ عليه فمضى بظلامتي ميّتا أو حصلتْ لي قبله حيّا فاغفر له ما المَّ به مني واعف له عما أدبر به عني)[2] ويسترسل الخطاب مبينا أن عفوه هذا انما هو زكاة لنفسه كي تصفو بعفو الله عنه ، لان الحاصل من هذا كله سعادة البشر بفضل من الله. (واجعل ما سمحتَ به من العفو عنهم وتبرَّعْتَ به من الصدقة عليهم أزكى صدقاتِ المتصدّقين وأعلى صلات المتقربيّن ، وعوّضني من عفوي عنهم عفوك ومن دعائي لهم رحمتك حتى يسعد كلّ واحد منا بفضلك وينجو كلٌّ منّا بمنّك)[3].

---

(1) الصحيفة : 121

(2) م . ن : 125

(3) م . ن : 159

بل انه يقدم الاعتذار من تبعات العباد إن لم ينصرهم في ظلم أو يشكرهم في معروف او يعتذر عن اساءة أو يرفدهم في حاجة او يسترهم في عيب (اللهم اني اعتذر اليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم انصره ، ومن معروف اسدي اليّ فلم اشكره ، ومن مسئ اعتذر اليّ فلم اعذره ومن ذي فاقة سألني فلم اوثره ومن حقّ ذي حق لزمني لمؤمن فلم أوفره ومن عيب مؤمن ظهر لي فلم استره . .)[1]

ويقابل هذا الدعاءَ بالعفو عن اساءةِ الغير دعاءٌ اخر بأن يهب الله الرحمة كلَّ من اصابة ظلمٌ أو غيبةٌ او تحاملٌ ولم يردها اليه وأن يرضِه عنه بما يشاء:-

(وأسألك في مظالم عبادك عندي ، فايّما عبد من عبيدك أو أمةٍ من إمائك كانت له قِبلي مظلمةٌ ظلمتها اياه في نفسه ، أو في عرضه ، أو في اهله وولده أو غيبةٌ اغتبتُ بها ، أو تحاملٌ عليه بميلٍ أو هوى أو أنفة أو حمية أو رياء أو عصبية ، غائباً كان ، أو شاهداً وحيّاً كان أو ميتا ، فقصرت يدي وضاق وسْعي عن ردّها اليه والتحلّل منه ، فأسألك يا من يملك الحاجات وهو مستجيبة بمشيّته ، ومسرعةٌ الى ارادته أن تصلّي على محمد وآل محمد ، وأن ترضيه عنّي بما شِئْتَ وتهبَ لي من عندك رحمة . .)[2]

وهذا الامان الروحيّ لا يتأتّى الاّ لمخلصٍ في عبادته لله تعالى ، فبهِ يبتدئ يومه وبه ينهيه : (ووفِّقنا في يومنا هذا وليلتنا هذه وفي جميع ايامنا لاستعمال الخير وهجران الشرّ وشكر النعم ، واتبّاع السنة ومجانبة البدع والامر بالمعروف والنهّي عن المنكر وحياضة الاسلام وانتقاص الباطل واذلاله ، ونصرة الحق واعزازه وارشاد الضالّ ومعاونة الضعيف وادراك اللهيف . .) وفيه استبشار ورجاء بالخير القادم في هذا اليوم (واجعله أيمنَ يومٍ عهدناه وأفضلَ

---

(1) الصحيفة : 158

(2) م . ن : 262

صاحبٍ صحبناه وخيرَ وقتٍ ظللنا فيه ، وآجعلنا مِن أرضى من مَرَّ عليه الليل والنهار من جملةِ خلقك واشكرهم لما أوليتَ من نِعمك و أقومهم بما شرعت من شرائفك وأوقفهم عمّا حذرت من نهيك) [1]

3- تصوير الواقع الانساني: وهو ملمحُ من ملامح الحسّ الانساني وتوجّه أصيل عني فيه الخطاب السجادي بتصوير جوانب الحياة العامة فضلاً عن البواعث الذاتية التي قد تأتي جرّاء المرض أو الكبر أو مواقف عدد من الناسِ . ولقد كانَ لآنعكاس الحياة السياسية على المجتمع أثر كبير في ظهور السلبيات والعلل والفساد في شتّى مجالات المجتمع ، فجاءت المضامين صورة صادقة عن أوضاع الناس ومايعانونه، جاهدَ الخطاب في رفضها والتحذير منها وبيان خطرها وكشفها وذلك بأسلوب مباشر في التعبير وآخر غير مباشر مع التنويع في الصيغ التعبيرية وقد اتسَّم هذا الحسّ الانساني بالحيوية والتوق الى تحرير الانسان والعناية به قيمةً وسلوكاً ، في فهمٍ دقيقٍ لجوهر الاسلام الذي يسعى الى تكريم المرء وضمان حقوقه من حيث هو انسان قادر على اختيار أفعاله ومن هذا الاختيار رفضه وسعيه لتغيير ما يراه انحرافا عن مبادئ الاسلام وسنّة رسوله (ص) .

وقد يأتي هذا الفهم - اي تكريم الانسان- في سياق الشكوى ممّا آلت اليه الامور بعد أن ابتُزَّ المقام الذي شرَّف الله تعالى به اصفياءَه وحاملي امانته بين عباده ، وخلفاءَه في أرضه فهو يقول :-

(. . حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتَّزين يرون حكمك مُبَدَّلاً وكتابَك منبوذا ، وفرائضك مُحَرَّفة عن جهات اشراعك ، وسنن نبيك متروكة) [2]

(1) م . ن : 55

(2) الصحيفة : 219

وفي دعائه في الكرب والاقالة نجد تنّوع الاساليب في عرض شكواه عند ربه ورجائه في الاغاثة واقالة العثرة .

كان البدء اِجمالا (الهي لا تشمت بي عدوّي ولا تفجع بي حميمي وصديقي) ثم يفصل بعدها (فقد ضعفت قوتي وقلّت حيلتي واشتدت حالي وأيستُ مما عند خلقك فلم يبق لي الا رجاؤك عليّ)

جاء التفصيل في وصف الحال بافعال موحية دالة (ضعفتْ ، قلّتْ ، أيستُ ، لم يبق) ويأتي التأكيد استدراراً للعطف بجمل متواصلة :

(اِنّ قدرتَك على كشفِ ما أنا فيه كقدرتك على ما ابتليتني به ، واِنّ ذكر عوائدك يؤنسني والرجاء في انعامك وفضلك يقويني لاني لم أخل من نعمتك منذ خلقتني) يبدأ بعدها الخطاب المباشر ب(انت) (وأنتَ ياالهي مفزعي وملجأي والحافظ لي والذابّ عنيّ . .) ويعود ليوافق ما تقدم من عرض حالِ الضعف وقلة الحيلة والتوسّل في تغييره :

(وارحم ضعفي وقلّة حيلتي واكشف كربتي واستجب دعوتي وأقلني عثرتي وامنن عليّ بذلك) لينتقل بعدها الى اسلوب جديد فيه شئ من المناظرة : (أمرتني يا سيدي بالدعاء ، وتكلفتَ بالاجابة ووعدك الحق الذي لا خلف فيه ولا تبديل) ويأتي التكرار في الخاتمة بطلب الاغاثة : (وأغثني فانّك غياثُ من لاغياث له) ويعود كما بدأ في توافقٍ - لا يحيد عنه - ليجمل قائلاً :-

(فأجبني واكشف هميّ وفرِّج غميّ وأعِد حالي الى أحسنِ ما كانت عليه) [1]

4- التعبير عن الجماعة: ولم يكن حاضِراً في الشكوى العامة حِسب بل في الشكوى الخاصة أيضا ومن دلائله حضور (نا) الجماعة بدلاً من (ياء النسب) في التعبير ، ففي دعائه (اذا ذكر الشيطان فاستعاذ منه ومن عداوته وكيده) يستهلّ قائلاً : (اللهم انّا نعوذ بك من نزغات الشيطان الرجيم

---

(1) الصحيفة : 251

وكيده ومكائده) لتتوالى بعدها الصيغ مشفوعة ب (نا) في الدعاء كله معبّرة عن الجماعة كمثلِ : (اخسأه عنا ، اكبته بدؤوبنا ، اجعل بيننا وبينه سترا ، واجعل اباءنا وامهاتنا واولادنا واهالينا وذوي ارحامنا وقرباتنا وجيراننا من المؤمنين والمؤمنات في حرزٍ حارز وحصن حافظ . .) وليختتم كما بدأ بهذا الحسّ الانساني الشامل : (وأعذنا واهالينا واخواننا وجميع المؤمنين والمؤمنات مما استعذنا منه ، واجرنا ممّا استجرنا بك من خوفه) [1]

وفي اللجوء الى الله تعالى يتّسق الدعاء في توجهه الانساني الشامل بوضع ال (نا) قبل الذات ايضا : (اللهم ان تشأ تَعْفُ عنّا فبفضلك وإن تشأ تُعذّ بنا فبعد لك . . يا غنيّ الاغنياء ها نحن عبادك بين يديك وأنا افقر الفقراء اليك ، فاجبر فاقتنا بوسعك ولا تقطع رجاءنا بمنعك) [2] وبصيغة (نحن) يتحقق التعبير عن هذا الحسّ الجماعي يقول متواصلاً : (سبحانك نحن المضطروّن الذين أوجبتَ إجابتهم وأهل السوء الذين وعدت الكشف عنهم . .)

وحين يدعو في (الصلاة على اتباع الرسل ومصدقيهم) يلتمس من الله تعالى المغفرة والرضوان لكلّ من اتبع الرسل وصدّقهم (من اهل الارض بالغيب) في كل دهر وزمان كان فيه رسول :

(اللهم واتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الارض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب والاشتياق الى المرسلين بحقائق الايمان في كل دهر وزمان أرسلتَ فيه رسولاً وأقمت لاهله دليلا من لدن آدم الى محمد صلى الله عليه واله) [3].

بهذا الحسّ الانساني المرهف أحبّه الناس وهابوه ، ففضلا عن نسبه الشريف ، وورعه وتقواه ، كان قريباً منهم بكرمِهِ ولينِ خلقه وحلمِه وعفوِه

---

(1) م . ن : 87

(2) الصحيفة : 63

(3) م . ن : 46

عمَّن أساء اليه ، ومن هنا جاء تَنحيّهم له في موسم الطواف كي يستلم الحجرَ هيبةً واجلالاً وحبّاً وإكراما[1] ، وحقَّ ان تتردّد أبيات قصيدة الفرزدق في شخصه الكريم بهذه المناسبة، والتي نختار منها ما يحيلنا الى هذا الحسّ الانساني حيث يقول :

## المبحث الثاني: ( الحسّ الصوفيّ )

ان ملامح الحس الصوفي تتجلّى في أدعية الصحيفة ومناجياتها التي بلغت خمس عشرة مناجاة ، وليس هذا بالغريب ، ذلك ان بذور التصوّف الاولى ظهرت (في نزعات الزهد القوية التي سادت في العالم الاسلامي في القرن الاول الهجري)[2]، لذا غُدَّ (الحسن البصري ت 110 هـ) وهو أشهر أعلام حركة الزهد في نظر الصوفية واحداً منهم (لانه كان ينزع الى حياةٍ روحية خالصة في عبادته)[3] .

ومع ان كلمة (صوفي) قد استعملت في النصف الاول من القرن الثاني للهجرة للفصلِ بين الزهاد والمتصوفة ، اذ اطلقت أوّل ما اطلقت على (أبي

---

(1) ينظر : زهر الاداب ، الحصري 1/ 103- 104 والقصيدة اولها :

هذا ابنُ خيرِ عباد الله كلهّم ... هذا النقيُّ التقيُّ الطاهرُ العَلَمُ
هذا الذي تعرف البَطحاءُ وطأته ... والبيتُ يعرفه والحِلُّ والحرم
عَمَّ البريّة بالاحسان فانقشعَتْ ... عنها الغيابةُ والاملاقُ والظّلمُ
كلتا يديه غياثٌ عَمَّ نفعُهما ... تستوكفان ولا يعروهما العُدمُ
سهلُ الخليقةِ لا تُخشى بوادرُهُ ... تزينه الاثنتان : الحلمُ والكرمُ
لا يُخلِفُ الوعدَ ميمونٌ بغرّتهِ ... رَحْبُ الفناءِ أريبٌ حين يعتزمُ
ما قال (لا) قطُّ الاّ في تشهُّدِه ... لولا التشهُّد كانت لاءه نَعَمُ

(2) في التصوف الاسلامي وتاريخه ، رينولد نيكولسون : 2 ترجمة ابي العلاء عففي ط القاهرة 1946.

(3) م . ن : 3

هاشم الكوفي ت 150 هـ) [1] ، الا ان التصوف الذي معناه الانقطاع الى الله تعالى والعزلة عن كل ما سواه صار لاحقاً لنزعة الزهد القوية التي هي تطبيق للتعاليم الاسلامية والالتزام بالقواعد الشرعيّة والغاية منه الوصول الى رضا الله تعالى ومحبتّه وأسباب الزهد كثيرة : منها العوامل السياسية والاجتماعية والفكرية ، ولقد كان للاضطرابات والفتن الداخلية الدامية في عصر بني امية أثر في شيوع هذه الحركة ، كما انتشرت عندما ظهر الميل الى ملذات الحياة والابتعاد عن الدين والقيم الاسلامية في المجتمع آنذاك[2] فكان أن قابله النزوع الى الجانب الروحي والمبالغة - احيانا- في الشعور بالمعصية والتوجّه للتوبة واعلان الندم والميل الى اصطناع اساليب الذكر والتوكل الناشئ أصلا من الخوف من العقاب الاخروي فهو منحىً موازٍ لما حصل ، كما كان للباعث الديني أثره البالغ ومنه الاقتداء بسيرة الرسول الكريم (ص) فمحبّة النبي لربّه

فيها اثرٌ روحي بالغ ، ذلك انه كان : (في حالة حضورٍ مع الله وانه كان يدرك ذلك من نفسه ادراكاً مباشراً ، وهذا هو التديّن في احدى حالاته وأعمقها وفي اكثر ما يكون حيوية) [3] فتصوف الزهد والورع هو أقدم أنواع التصوّف الاسلامي ، فيه صفاء الروح ونقاء النفس في انقطاعها الى ربها ذلك (ان الانتقال من عالم الملك والشهادة الى عالم الغيب والملكوت انتقال يتم بالروح والقلب دون الجسد ، ولا يتم هذا الانتقال الاّ بالمجاهدة التي يتم بها التقليل من سيطرة الجسد والحسّ والمطالب الحيوانية للانسان على الروح والقلب الى الحدّ الادنى ثم ينتقل السالك بعد ذلك الى تطهير القلب من الصفات الذميمة . . . وعن طريق هذا التطهير يتّم جلاء القلب وصفاء الروح) [4]

---

(1) البيان والتبين ، الجاحظ : 366/1 تحقيق عبد السلام محمد هارون ط الخانجي القاهرة 1985

(2) ينظر مقدمة ابن خلدون : 3/ 1063 تحقيق د. علي عبد الواحد وافي ط البيان العربي 1960

(3) في التصوف الاسلامي : 113

(4) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن ، د.نصر حامد ابو زيد :259 ط3 بيروت1996

وهو ما وجدنا اثره حاضرا حيويا وفاعلاً في مضامين الفكر السجادي وأساليبه وتوجّهاته ولقد توزَّعت دراسته على جانبين : دراسة المصطلح الصوفي فيه، الذي استقرّ فيما بعد في كتب التصوف ، ودراسة اسلوب المناجاة الذي عبَّر عن الحبّ الالهي وغلب عليه الشوق للقاء الرب .

## اولا (المصطلح الصوفي) :

حين نصل الى القسم الاخير من أدعية الصحيفة وهو ما يخصّ المناجاة ، سنتبيّن فيها وجود المصطلح الصوفي . ففي (مناجاة الخائفين) هناك ما يحيلنا الى مقام الخوف عند المتصوفّة وفي (مناجاة الراجين) إحالة الى (مقام الرجاء) وفي (مناجاة الشاكرين) عودة الى (مقام الشكر) وفي (مناجاة المريدين) تذكير بمقام الارادة وفي (مناجاة التائبين) اقتراب من (مقام التوبة) وفي (مناجاة الزاهدين) وقفة عند أوّلٍ مقام من مقامات التصوف وهو (مقام الزهد) وهكذا في بقية ما ورد فيها .

ولقد قام البحث بدراسة التقابل الحاصل بين ما ورد في مناجيات السجاد (ع) وما ورد في كتب التصوّف واخترنا في الميدان التطبيقي

1- مصطلح الهمّة في (مناجاة المريدين) وقد قابلنا ما ورد فيها بكتاب (محاسن المجالس) لابن العريف ت 526هـ[1] يقول الخطاب السجادي مناجيا : (. . فقد انقطعت اليك همتّي ، وانصرفَت نحوك رغبتي ، فأنت لا غيرك مرادي ، ولك لا لسواك سهري و سهادي ولقاؤك قرة عيني ، ووصلك مُنى نفسي ، واليك شوقي . وفي محبّتك ولهي ، والى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي ورؤيتك حاجتي ، وجوارك طلبي ، وقربك غاية سؤلي وفي مناجاتك روحي وراحتي)[2].

---

(1) هو ابو العباس احمد بن محمد الصوفي الصهناجي ، ولد في المرية سنة481هـ فقيه ، وزاهد متصوف . نشر كتابه هذا المستشرق اسين بلايثوس باريس1933 ينظر ترجمته في بغية الملتمس للظبي 154والصلة لابن بشكوال1/83

(2) الصحيفة : 293

ولنقابلها بما ورد من وصف (الهمة) في حديث (ابن العريف)عن حال المنقطعين الى ربهم (لم يبق لهم مع الحق ارادة ، ولا في عطائه شوق الى استزاده، فهو منتهى مرادهم وغاية رغبتهم فيعتقدون ان ما دونه قاطع عنه قال الله تعالى «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون»[1].

فزهدهم جمع الهمّة عن تفرقات الكون ، لأن الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلّق بالاحوال . . . وتوكلهم رضاهم بتدبير الحق وتخلصهم من تدبيرهم[2].

ولعل القارئ سيجد الأثر الصوفيّ واضحاً في النصيّن ، فيما يتعلق بتعريف (الهمّة) وهي الانقطاع الى الله تعالى حُبّاً وشوقاً وغايةً لانه (سبحانه) المراد في العبادة والتوجه.

2- ويرد مصطلح (الذوق) في (مناجاة المحبيّن) بقوله (ع) مناجياً : (الهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتّك فرام منك بدلا)[3] ونماثله بما ورد عن الحب الالهي عند المتصوفة يقول ابن العريف ان (للعوام منها شرب وللخواص شرب. . وكلٌّ من القوم نطق بحسب ذوقه وأفصح عن مقدار شربه وذوقه) وحين نروم تعريفا للذوق نجد المعنى متطابقا مع ما ورد في الخطاب فحدُّه (وجود تعظيم في القلب يمنع الشخصَ من الانقياد لغير محبوبه . . وقيل ايثار المجبوب على غيره وقيل موافقته فيما ساء وسرّ ونفع وضرّ)[4]

على ان هذه المحبة لا تظهر بالالفاظ والتعبير عنها قولاً وانمّا بالشمائل والاحوال (فالمحبّة الصادقة لا تظهر على المحب بلفظة وانما تظهر بشمائله

---

(1) الانعام : 91

(2) محاسن المجالس : 95

(3) الصحيفة : 295

(4) محاسن المجالس : 90

ولحظه ، ولا يفهم حقيقتها من المحبّ سوى المحبوب لموضع امتزاج الاسرار والقلوب)[1]

وهو ما أُشيرَ اليه في الخطاب السجادي مناجياً (اللهم اجعلنا مِمَّن دأبهم الارتياح اليك والحنين ودهرهم الزفرة والانين ، جباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم ساهرة في

خدمتك، ودموعهم سائلة من خشيتك وقلوبهم متعلقة بمحبتّك وأفئدتهم مُنخلعة من مهابتك)[2] بل تتوافق العبارات أحيانا ومن هذا (المراد والرغبة) فقد جاء في المؤلف الصوفي (فهو منتهى مرادهم وغاية رغبتهم)[3] ونقرأ (في مناجاة المفتقرين) : (فيا منتهى أمل الاملين وغاية سؤل السائلين ويا أقصى طلبة الطالبين ، ويا أعلى رغبة الراغبين . .)[4]

3- وفي الاشارة الى العارفين الذين يصلون الى هذه الهمم ويعرفون ربهَّم به وليس اليه ، نقرأ لابن العريف : (المعرفة محجَّتي والعلم حجَّتي فالعالم يستدلّ اليَّ والعارف يستدلّ بي ، فالعلماء لي والعارفون بي ، علق العبّاد بالاعمال والمريدون بالاحوال والعارفون بالهمم)[5] ونقابلها بما ورد للامام في (مناجاة العارفين) حيث يقول : (الهي قصرت الالسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن ادراك كنه جمالك ، وانحسرت الابصار دون النظر الى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقا الى معرفتك الاّ بالعجز عن معرفتك)[6]. فالطريق الى هذه المعرفة لا يتحققّ الا بالتجربة بالتجربة الذوقية، اي الحب الالهي. و ها هو يصف العارفين بقوله :

(1) م . ن : 91

(2) الصحيفة : 296

(3) محاسن المجالس : 95

(4) الصحيفة : 301

(5) محاسن المجالس : 75

(6) الصحيفة : 303

(وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ، وعلت لسبق السعادة في الزهادة هممهم وعذب في معين المعاملةِ شربهم ، وطاب في مجلس الانس سرّهم . . فأعذنا من طردك وابعادك واجعلنا من أخصِّ عارفيك)[1]

4- كما تتَضّح ملامح الحسّ الصوفي في حديثه عن حقيقة الخوف عند العارف، وهو الحرمان من القرب لان مراده ليس النجاة من النار حسب ، بل النظر الى الخالق ، فعزُّ المؤمن توحيده لربّه ، وذلّه مهانة هجران الرب له ، يقول : (ولا تحجب مشتاقيك عن النظر الى جميل رؤيتك الهي ، نفسٌ أعزَزْتها بتوحيدك كيف تذلّها بمذلّةِ هجرانك)[2]. وحين نقرأ ما كتب عن العارفين نجد أن خوفهم هو (هيبة الجلال لا خوفَ العذاب ، لأنَّ خوف العذاب مناضلة عن النفس، وهيبته سبحانه تعظيم للحق ونسيان للنفس)[3] وهم يعيدون اصول المصطلح الى ما ورد في القرآن الكريم : «وخافون ان كنتم مؤمنين»[4] والى ماجاء عن رسول الله (ص) في قوله : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً)[5]. ويجعله أصحاب التصوف على منازل هي : (الخوف والخشية والهيبة) فالخوف شرط من شروط الايمان {والخشية من شرط العلم قال الله تعالى : «انما يخشى اللهَ من عباده العلماء»[6] والهيبةُ من شرط المعرفة المعرفة قال الله تعالى : «ويحذركم الله نفسه»[7])[8] }. واما (الصبر) فهو عند عند المتصوفة (صونهم قلوبهم عن خواطر السوء)[9]

---

(1) م . ن : 304- 305

(2) الصحيفة : 280

(3) محاسن المجالس : 96

(4) ال عمران : 175

(5) صحيح البخاري، الكسوف ،باب الصدقة في الكسوف، 1940 ط لبنان سنة 2001

(6) فاطر : 28

(7) ال عمران : 28

(8) الرسالة القشيرية : 199

(9) محاسن المجالس : 96

وهو ما يتضح في مناجاة السجاد من إقرار الطاعة والجهاد في الله واخلاص النيّة في المعاملة يقول (ع) : (اجعل جهادنا فيك وهمنّا في طاعتك وأخلِص نيّاتنا في معاملتك فانّا بك ولك ، ولا وسيلة لنا اليك الا انت) [1]

6- ولمزيدٍ من التوثيق في وجود الاثر السجاديّ في التصوف الاسلامي اخترنا جانبا آخر من (مناجاة العارفين) سوف يرصد البحث فيه جملة مصطلحات صوفيّة ويُحيلها الى مظانّها في كتب التصوف يقول :- (الهي فاجعلنا من الذين ترسَّخت أشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، وأخذت لوعةُ محبتّك بمجامع قلوبهم ، فهم الى أوكار الافكار يأوون ، وفي رياض القرب بالمكاشفة يرتعون ، ومن حياض المحبّةِ بكأس الملاطفةِ يكرعون، وشرايع المصافاة يردون ، قد كشف الغطاء عن أبصارهم ، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم ، وانشرحت بتحقيق المعرفة صدورهم ، وعلت لسبقِ السعادة في الزهادة هممهم ، وعَذُب في معين المعاملة شربهم ، وطاب في مجلس الانس سرّهم ، وأمن في موطن المخافةِ سِربُهم ، واطمأنّت بالرجوع الى ربّ الارباب انفسُهم، ويتقّنت بالفوزوالفلاح أرواحهم ، وقرَّت بالنظرِ الى محبوبهم أعينهُم ،واستقرَّ بادراكِ السؤل ونيل المأمول قرارهم ، وربحت في بيع الدنيا بالاخرةِ تجارتهم ، الهي ما ألذ خواطر الالهام بذكرك على القلوب وما أحلى المسير اليك بالاوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك وما أعذب شرب قربك . . [2]

ولنتناول اولا مدلول (القرب والمكاشفة) ، فالقرب مصطلحا صوفيا ينقسم على رتبٍ : (القربُ من طاعته والانصاف في دوام الاوقات بعبادته) فهو قرب الايمان والتصديق ثم (قربٌ باحسانه وتحقيقه) ويكون في الدنيا والاخرة

(1) الصحيفة : 291

(2) الرسالة القشيرية : 303

ولا يتحقق الا ببعد المخلوق عن الخلق ويكون باعمال القلب يقينا وايمانا (ومن تحقق بقرب الحق سبحانه فأَدونه دوام مراقبته اياه)[1]

ومن هذا ما ورد من ان بعض المشايخ كان يؤثر واحداً من تلامذته فسئل من اصحابه عن ذلك ، فدفع الى كل واحد منهم طيراً وقال : اذبحوه بحيث لا يراه أحد ، فمضى كل منهم وذبح الطير بمكانٍ خال ، وعاد هذا التلميذ والطير معه لم يذبح ، فسأله الشيخ فأجاب : أمرتني أن أذبحه بحيث لا يراه احد ، ولا موضع الا ووجدت الحق سبحانه يراه ، فقال الشيخ : (من أجل هذا قدمته عليكم {إذ الغالب عليكم حديث الخلق وهذا غير غافل عن الحق)[2] وفي اصطلاحات التصوف لابن عربي نجد ان القرب هو (القيام بالطاعة)[3]

اما (المكاشفة) فحضور الحق (بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة الى تأمل الدليل وتطلّب السبيل ولا مستجير من دواعي الريب ولا محجوب عن نعت الغيب)[4] فصاحب المكاشفة يدنيه علمه[5].

اما مصطلح (المعرفة) في قوله : (وانشرحت بتحقيق المعرفةِ صدورهم) فأنها (صفة من عرف الحق سبحانه باسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي من الله تعالى بجميل اقباله وصدق الله تعالى في حميع أحواله . . . فبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه ‹عزوجل›)[6]

---

(1) م . ن : 153

(2) الرسالة القشيرية: 154

(3) رسائل ابن عربي : 533

(4) الرسالة القشيرية : 148

(5) م . ن : 149

(6) م . ن : 417

ومن امارات الوصول للمعرفة (حصول الهيبة من الله تعالى فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته)[1]

كما قيل ان المعرفة (توجب الحياء والتعظيم كما ان التوحيد يوجب الرضا والتسليم)[2] والعارف عند (ابن عربي) و (من أشهده الربُّ نفسَه فظهرت عليه الاحوال، والمعرفة حاله)[3]

وأما (الشرب) في قوله (وعذب في معين المعاملةِ شربهم) فانه حاصل التجربة الذوقية ، لذا يأتي بعد الذوق (وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الري) ولا يتمّ الاّللصفوة من العباد ( فصفاءُ معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ودوام مواصلاتهم يقتضي لهم الري . .)[4]

وفي قوله (ع) (وطاب في مجلس الانس سرهم) نقرأ عن الانس انه (أثر مشاهده جمال الحضرة الالهية في القلب وهو جمال الجلال)[5] ، ويطلق لفظ لفظ (السر) (على ما يكون مصونا مكتوماً بين العبد والحق سبحانه في الاحوال)[6] وهو على أقسام فيقال : (سر العلم بازاء حقيقة العالم به ، وسر الحال بازاء معرفة مراد الله فيه ، وسرّ الحقيقة بازاء ما تقع به الاشارة)[7] وفي هذا المجلس حيث الذكر الصادق بالقلب يتحقق اطمئنان الروح والأمن يقول الخطاب (وأمن في موطن المخافة سربهم واطمأنّت بالرجوع الى ربّ الاربابِ أنفسهُم)

---

(1) م . ن : 418

(2) م . ن : 419

(3) رسائل ابن عربي : 539

(4) الرسالة القشيرية : 146

(5) رسائل ابن عربي : 532

(6) الرسالة القشيرية : 161

(7) رسائل ابن عربي : 533

## ثانيا الحبّ الالهي :

ورد ذكر المحبّة الالهية للعبد ومحبّة العبد للرب في القرآن الكريم يقول تعالى :«ياايها الذين امنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يُحبّهم ويحبوّنه»[1]. ومن الاحاديث القدسية ما جاء عن النبي (ص) انه قال (يقول الله تعالى : (من آذى لي وليّاً فقد استحلَّ محاربتي ، وما تقرّب الي العبد بمثل اداء ما افترضتُ عليه ولا يزال العبدُ يتقرّبُ اليّ بالنوافلِ حتّى أحبّه . ..)[2]

ويستدعي مفهوم الحبّ الرغبة في لقاءِ المحبوب جاء في الحديث النبوي الشريف (من أحبّ لقاءَ الله أحبَّ اللهُ لقاءه ومن لم يحبّ لقاء الله لم يحبّ الله تعالى لقاءه)[3] وقوله (ص) : (اذا أحب الله عز وجل العبد قال لجبريل : يا جبريل اِنّي أحبُّ فلاناً فأحبّه ، فيحبّه جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: ان الله تعالى قد أحبّ فلانا فأحبّوه ، فيحبّه أهلُ السماء ، ثم يضع له القبول في الارض)[4]

ومن مفاهيمه عند أهل التصوف استيلاء ذكر المحبوب والتغافل عن صفات النفس يقول الجنيد ت 267هـ انها (دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب)[5]

والذي وجده البحث في مضامين الحب الالهي عند الامام السجاد في صحيفته الاحساس بالالوهية الشاملة والقدرة الربّانية الساريةُ يقول من دعائه (عند الصباح والمساء) : (أصبحنا و أصبحت الاشياءُ كلُّها بجملِتها لك) وبعد أن يُفصّل في هذه الاشياء يعود الى الانسان وعلاقته بخالقه فيقول : (أصبحنا في قبضتك يحوينا ملكك وسلطانك وتضمنّا مشيئتك ، ونتصرَّف عن أمرك ،

(1) المائدة : 54

(2) صحيح البخاري في الرقاق ، باب التواضع ص 1157

(3) م . ن : باب التوحيد

(4) صحيح البخاري : في الادب المقة من الله تعالى ص 1085

(5) الرسالة القشيرية : 425

ونتقلّب في تدبيرك ، ليس من الامر الاّ ما قضيت ، ولا من الخير الاّ ما أعطيتَ) [1] فالانسانية جمعاء في قبضة الخالق ما يحويها هوملكه وما يسيّرها مشيئته ، وان تصرَّفتْ فعن أمره، وإن تقلّبت ففي تدبيره . وهذا الحسّ بالالوهية الشاملة نابع من الحبّ الالهي الذي يستوجب خروج حبّ الدنيا من القلب وهو خاص بالصفوةِ من الصالحين يقول داعيا ملتَمِسا :

(وأخرجْ حبَّ الدنيا من قلوبنا كما فعلْتَ بالصالحين من صفوتك) [2]

ذلك ان الزهد هو أوّلُ مقامات العارفين ، وعلماء التصوّف يحيلون هذا المصطلح الى مضمون قوله تعالى : «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم» [3]، ذلك ان (الزاهد لا يفرح بموجودٍ من الدنيا ولا يتأسّف على مفقود منها) [4] ولقد جاء في الخطاب قوله : (وحمدي لك في كلِّ حالاتي حتى لا أفرح بما اتيتني من الدنيا ولا احزن على ما منعتني فيها) [5]

والنفَسَ الصوفي في ذكر الحب الالهي يتَّضح من خلال وصف (الشوق) في مفردات (الوصل واللهفة والدنو والقرب)يقول:

(وغلّتي لا يبردها الاّ وصلك ، ولوعتي لا يطفيها الاّ لقاؤك وشوقي اليك لا يبلّه الاّ النظر الى وجهك ، وقراري لا يقرّ دون دنوّي منك ، ولهفتي لا يردّها الاّ روحك) [6] ويبدو التأثر هنا بما قاله الرسول الكريم (ص) في دعائه وفيه وفيه وصف لشوقه لله تعالى : (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحييني ما علمتَ الحياة خيراً لي ، و توفّني ما علمتَ الوفاةَ خيراً لي ،اللهمَّ إنّي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك القصد في الغنى والفقر وأسألك الرضا

---

(1) الصحيفة السجادية : 53

(2) م. ن : 311

(3) الحديد : 23

(4) الرسالة القشيرية : 190

(5) الصحيفة : 102

(6) الصحيفة : 300

بعد القضاءوبرد العيش بعد الموت واسألك النظر الى وجهك الكريم ، وشوقاً الى لقائك في غير ضرّاء مضرّه ولا فتنة مضلّة ، اللهمّ زيّنا بزينةِ الايمان ، اللهم اجعلنا هداة مهتدين)[1] ويصاحب (الشوقَ) ورود مصطلح (الذكر) الذي جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى : «يا ايها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا»[2]

وقوله (جلّ وعلا) : «الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم»[3] أي بذكرِ اللسان والقلب . وفي قول الرسول (ص) : (لا تقوم الساعة على احدٍ يقول : الله الله)[4] وهو في علم التصوف (ركن قوي في طريق الحق سبحانه سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحدٌ الى الله تعالى الاّ بدوامِ الذكر)[5]

هذا (الذكر) المتواصل نجد حضوره في الخطاب السجادي (اذا أحزنه امر وأهمتّه الخطايا) : (اللهم صلّ على محمد واله ، وفرِّغ قلبي لمحبتّك واشغله بذكرك وانعشه بخوفك وبالوجل منك ...... وامننْ عليّ بشوقٍ اليك وبالعمل لك بما تحبّ وترضى)[6] . ولسنا نقول ان هذا الاسلوب هو من السهل الممتنع ، بل بل انه من السهل المُتَعذَّر ان يصدر الا ممّن (عرف الله وأقبلَ بكلّه عليه وحده دون سواه ونهل من نبعه تعالى الذي لا يفيض ولا يغيض وهنا يكمن سرّ الجلاء والوضوح)[7] .

---

(1) صحيح النسائي ، السهو باب الدعاء بعد الذكر : 224

(2) الاحزاب : 41

(3) ال عمران 191

(4) صحيح مسلم 236/2 دار احياء التراث العربي لبنان الطبعة الاولى

(5) الرسالة القشيرية : 312

(6) الصحيفة : 102- 103

(7) في ظلال الصحيفة السجادية : 640

## المبحث الثالث: ( الاطمئنان النفسي )

ان اطمئنان النفس وما يصاحبه من رضى ينجم عن الحسّ الديني العميق، وما يمازج الروح من حبٍّ الهي ، لأن هذا الحب يعني : (الاستسلام المطلق لارادة الله)[1] والزهاد المتصوفة ربما (كان افضل وصف لهم هو الرضا)[2] .

وقد وردت لفظة (الرضا) في القرآن الكريم بمواضع عدة نذكر منها قوله تعالى «رضي الله عنهم ورضوا عنه»[3] كما جاءت في احاديث الرسول الكريم كما في قوله (ص) (ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا)[4] ولقد ترددّت في كتب الزهد والتصوف وعرفت (حالاً) و(مقاماً)[5] أيضا أيضا . ننقل ما جاء عن الزاهدة (رابعة العدوية ت 135 هـ) حين سئلت متى يكون العبد راضياً ؟ فأجابت : (اذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة)[6] وما وما جاء في قول (الجنيد ت 267 هـ) من ان (الرضا رفع الاختيار)[7] ومع ان في الدعاء احتياجا فان (الرضا شرطه في الاجابة وعلى العبد ان يكون صاحب دعاء بلسانه وصاحب رضا بقلبه ليأتي بالامرين جميعا)[8]

---

(1) في التصوف الاسلامي ، رينولدنيكولسون : 4ترجمة د.ابو العلاء العفيفي ط القاهرة 1956

(2) في التصوف الاسلامي ، رينولدنيكولسون : 4ترجمة د.ابو العلاء العفيفي ط القاهرة 1956

(3) المائدة : 119

(4) صحيح مسلم، الايمان باب الدليل على ان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا 16/2

(5) ينظر الرسالة القشيرية : 264

(6) م . ن : 266

(7) م . ن : 288

(8) شرح نهج البلاغة 159/11

ولقد اتضّح الرضا (سمة روحية) في ادعية الصحيفة ومنها ما جاء في دعائه وهو يسّوغ هذا الاطمئنان في مقدمة الخطاب باطلاع الله تعالى وعلمه الذي لا يخفى عليه شئ وبأذنه ينصر المظلومين ، وهو بعد عرض شكواه من الظالم يلتمس تحقيق جملة امور من الله تعالى كمثل : (خذ ظالمي وعدوي عن ظلمي بقوتك) (لا تسوِّغ له ظلمي........ ورضنّي بما أخذْتَ لي ومنّي واهدني للّتي هي أقوم)[1] .

فإن تأخّرت اجابةُ الدعاء أو لم تحصلْ ، لا يجزعُ بل يرضى أيضا بهذا الاختيار الالهي لانه لا يحدث الا عن حكمةٍ وتدبيرٍ من الله يقول : (فصلّ على محمد واله وأيدّني منك بنيّةٍ صادقة ، وصبر دائم ، وأعذني من سوء الرغبة ، وهلع أهل الحرص ، وصَوِّرْ في قلبي مثال ما ادَّخرتَ لي من ثوابك وأعددْتَ لخصمي من جزائك وعقابك ، واجعل ذلك سبباً لقناعتي بما قضيْتَ وثقتي بما تخيّرتَ)[2]

وحين يحتار في أمرين يلوذ باختيار الخالق له ويطمئن اليه : (واذا هممنا بهمّين يرضيك احدهما عنا ويسخطك الاخر علينا ، فمِلْ بنا الى مايرضيك عنّا وأوهن قوّتنا عما يسخطك علينا ، ولا تُخَلِّ في ذلك بين نفوسنا واختيارها)[3]
[3] ولا تجزع النفس بل تطمئن وترضى إثر أيّ مصاب أو حادثٍ أو مرضٍ أو كربٍ، لأنَّ في هذا كله تمحيصا وتطهيرا وتنبيها وتذكيرا ، ولأنَّ هذا الرضا يهوِّن ويخففّ عن النفس ما تجده من وحشة وألم يقول: (اللهم فصلِّ على محمد وآله وحَبِّبْ اليَّ ما رضيتَ لي ويسّر لي ما أحلَلْتَ بي)[4].

ولا يسري هذا الاطمئنان جرّاء التسليم لقضاء الله تعالى- حسب- بل انه يرافق علاقة الانسان بالاخرين ، فان حصل من المقابل غشٌّ أو هجرٌ أو قطيعة أو

(1) الصحيفة : 75

(2) م . ن : 76

(3) م. ن : 61

(4) م . ن : 78

غيبة او غيرها من جوانب السلبيّة فإنَّ النفّسَ المطمئنة راضية لا تقابلها بالمثل بل بالنقّيضِ : (وسدّدني لأن اعارضَ من غَشَّني بالنصحِ ، وأجزيَ من هجَرني بالبرّ ، وأثيبَ من حرمني بالبذلِ ، وأُكافئ من قطعني بالصلة ، وأُخالف من اغتابني الى حسن الذكر ، وأن اشكرَ الحسنة واغضيَ عن السيّئة) (1).

وأنفاس الرضا او (رَوْح الرضا) كما اختار لها من تعبير لا تتحققّ الا إثر الشكر على النعماء والسرّاء، والقناعة في الضرّ والنفع يقول : (اللهم صل على محمد وآل محمد وارزقني الحقَّ عند تقصيري في الشكر لك بما أنْعَمْتَ عليَّ في اليسرِ والعسرِ، والصحة والسقم حتّى أتعرَّفَ من نفسي روح الرضا وطمأنينة النفس منّي بما يجب لك فيما يحدث في حال الخوف والامن والرضا والسخط والضرّ والنفع) (2) وفي جانب التعامل مع الغير أيضا نذكر في تناوله للحسدِ جانباً سلبيّاً في النفس البشريّة ، لأن الحسدَ كالنارِ تأكل قلب صاحبها لذا فإنَّ البردَ والسلامةَ منها يكون بسلامة الصدر ونقاء الروح وطلب الفضل من الله والتوجه اليه : (وارزقني سلامة الصدر من الحسدِ حتى لا أحسد أحداً من خلقك على شئ من فضلك وحتّى لا أرى نعمةً من نِعمك على احدٍ من خلقك في دين أو دنيا أو عافيةٍ أو تقوى أو سعةً أو رخاءً الا رجوتُ لنفسي أفضل ذلك بك ، ومنكَ وحدك لا شريك لك) (3)

ولأن هذا التوجه عميق وصادق في نفس الامام (ع) ولأن اثره الروحي وسم مواقفه في الحياة فقد أفردأحدَ أدعيته (في الرضا اذا نظر الى أصحاب الدنيا) وابتدأه بالحمد مع الرضا قائلاً :- (الحمدُ لله رضًى بحكم الله) ليفصّل بعدها كيفية الوصول الى هذا المقام وذلك بترك التطلّع الى ما أنعمَ الله عليهم وفي المقابل التماس الرب ابعادهم عن الغرور حين لا يرون آثار النعمة التي رزقوا

---

(1) الصحيفة : 93

(2) م . ن : 106

(3) م . ن : 107

إِيّاها يقول (ع) : (ولا تفتنّي بما أعطيتهم ولا تفتنهم بما منعتني فاحسد خلقك وأغمط حكمك)[1]

هكذا اتصلُ النفسُ الى الطيبة ، والصدرُ الى السّعةِ ، والروحُ الى الثقة بالله رضاً وقناعة : (وطيِّب بقضائك نفسي ، ووسِّع بمواقع حكمك صدري ، وهبْ لي الثقة لأقرّ معها بأن قضاءك لم يجرِ الاّ بالخيرة)

ويَسري هذا الاطمئنان بذكرِ الله تعالى فَبهِ تسكن القلوب يقول تعالى «أَلا بذكر الله تطمئنُّ القلوب»[2] من هنا نقرأ له في (مناجاة الذاكرين):- (الهي : بك هامت القلوب الوالهة ، وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة ، فلا تطمئن القلوب اِلاّ بذكراك ولا تسكن النفوسُ الاّ عند رؤياك)[3] وليس ببعيدٍ أن يتوجّه قسم من مضامين الخطاب الى هذا الجانب وهو الرضا والطمأنينة) لما لهذا من علاقة بباعثٍ قوي هو الباعث السياسي والاقتصادي الذي قد يصنع هوّةً بين طائفةٍ مُرَفَّهةٍ غنية وأخرى مُعدَمةٍ فقيرة ، فحين تشتّد الامور عسراً ، فان هناك سبلا للوصول الى الرضا ومنها الزهد في الحياة الدنيا والشوق لملاقاة الله تعالى وحين يقول (في المعونة على قضاء الدين) :

(اللهم صلّ على محمد واله ، وهب لي العافية من دَيْنٍ تخلِقُ به وجهي ، ويَحارُ فيه ذهني ، ويتشعَّبُ له فكري ، ويطول بممارسته شغلي ، وأعوذ بك ربِّ من همِّ الدين وفكره وشغل الدين وسهره. . .وأجرني منه بوسعٍ فاضلٍ أوكفافٍ واصل)[4]

فانه لا يتوقّف عند مشارف الدعاء ، بل يتخطّاه الى ما يُعدّ تشخيصا وعلاجاً بالدعوة للاقتصاد ، وعدم الاسراف ، وطلب الرزق بالحلال وانفاقه في

---

(1) الصحيفة : 150

(2) الرعد : 30

(3) الصحيفة : 307

(4) الصحيفة : 130

البرّ والابتعاد في حال الغنى عن الخيلاء وعن البغي والطغيان مع صحبة الفقراء، وان يعوّه الله عما حرم من متاع الدنيا بمتاع الاخرة الباقي، يقول (ع):-

اللهم صل على محمد واله واحجبني عن السَّرفِ والازدياد وقوِّمني بالبذلِ والاقتصاد ، وعلِّمني حُسْنَ التقديرِ واقبضني بلطفك عن التَّبذير ، وأجْر من أسباب الحلالِ أرزاقي ووجِّه في أبواب البرِّ إنفاقي وأزْوِعَنّي من المالِ ما يُحدِثُ لي مَخْيَلَةً أو تأدِّياً الى بَغْيٍ أو ما أتعقَّبُ منه طغياناً ، اللهم حبِّبْ اليَّ صحبةَ الفقراء أعنّي على صحبتهم بِحُسْنِ الصبْرِ ، وما زَوَيْتَ عنّي من متاع الدنيا الفانية فاذْخَرْهُ لي من خزائنِك الباقية . . . .)[1]

ولأن الانسان قد يعرض له في هذه الحياة الدنيا الاختلاط بشرار الناس عن غير اختيارٍ منه ، وما قد يناله منهم من أذىً فيكون بذلُ النفس عندها هو العزّة كما ان الفرار الى الله تعالى يعني غناها عن مذلّةِ الافتقار اليهم ، والسلامة من أَذاهم وشرّهم. روى محمد الباقر (ع) قال (لما حضرت الوفاة علي بن الحسين (ع) أبي ضَمّني الى صدره ، ثم قال : يا بنيّ اوصيك بما أوصاني به أبي يومَ قُتِل وبما ذكر لي أنّ اباه علياً (ع) أوصاه به : يا بنيَّ عليك ببذل نفسك ، فانه لا يسرُّ اباك بذُلِّ نفسه حمر النعم)[2]

هذا التوجّه الروحي هو ما نقرؤه في مضامين دعائه (وَهَبْ لي القوة أحتمل بها جميع مرضاتك ، واجعل فراري اليك ورغبتي فيما عندك ، وألبس قلبي الوحشةَ من شرار خلقك ، وهب لي الانسَ بك وبأوليائك وأهْلِ طاعتك ، ولا تجعلْ لفاجرٍ ولا كافرٍ عليَّ مِنّة ، ولا له عندي يداً ، ولا بي اليهم حاجة بل اجعلْ سكون قلبي وأنس نفسي واستغنائي وكفايتي بك وبخيار خلقك)[3]

---

(1) م . ن : 131

(2) نهج البلاغة : 75/7

(3) الصحيفة : 102

## المبحث الرابع: ( الرفض والمناهضة )

في المبحث السابق وجدنا (الرضا والاطمئنان النفسي) سمةً روحيّةً في توجّهات الخطاب السجّادي ، وسوّغنا ذلك بامورٍ أوّلها الذكر الدائم لله تعالى والتوجّه اليه والاخلاص في العبادة والزهد في الحياة الدنيا ، ثم ما كان للوضع الاجتماعي والسياسي بجوانبهِ السلبيّة انذاك من اثر ، وفي هذا المبحث سنجد الجانب الاخر المقابل للرضا ، وهو الرفض والمناهضة والتصّريح بالظلم الواقع مع الدعوة للتغيير جهراً واعلانا ، بالدعاء ، الذي صار سلاحاً فاعلاً في الخطاب السجّادي .

ولو عدنا الى قوة الدعاء وما جاء عن اثره في القرآن الكريم في تغيير الاوضاع والاحوال بما فيها من مُنْكَرٍ أو إساءةٍ أو ظُلْمٍ لوجدناها كثيرة ، فمنها ما جاء لانزال عقوبة بعد أن يعجز الاصلاح بالتحذير والتنبيه والتوّجيه ، يقول تعالى في قصة موسى (ع) : «ولقد فَتَنّا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم ، أن أدّوا اليّ عباد الله انيّ لكم رسول امين ، وأن لا تعلموا على الله اني اتيكم بسلطان مبين ، وانّي عذتُ بربيّ وربّكم ان ترجمون وان لم تؤمنوا بي فاعتزلون ، فدعا ربّه إنَّ هؤلاءِ قوم مجرمون ، فأسرِ بعبادي ليلاً انّكم متّبعون»[1] وقوله تعالى في قصة نوح (ع) :- «كذبت قبلهم قومُ نوحٍ وكذَّبوا عبدنا وقالوا مجنون مزدجر ، فدعا ربّه اني مغلوبٌ فانتصر ففتحنا ابواب السماء بماءٍ منهمر»[2] وقوله تعالى على لسان نوح (ع) داعيا «لا تذر على الارض من الكافرين ديّاراً»[3]

ولقد جاء الدعاء السجاديّ في ردّ الظلم متوزعاً على جانبين الاول يخصّ صاحب الدعاء والثاني يخصّ الاخرين وذلك في تَناولٍ يسمح بتداخل الخاص مع العام

---

(1) الدخان : 17- 23

(2) القمر : 9- 11

(3) نوح : 26

فمن مضامين الدعاء للنفسّ : الشكوى الى الله من العدو ومن الشيطان المضلّ ومن النفس قلباً متقلبا وعينا غافلة . يقول (ع) :- (الهي أشكو اليك عدوّاً يضلّني وشيطاناً يغويني . . الهي اليك اشكوقلبا قاسيا مع الوسواس متقلّبا وبالدّين والطبع متلبّسا ، وعيناً عن البكاءِ من خوفك جامدة ، والى ما تسرُّها طامحة) [1]

ومع الشكوى تأتي الاستجارة والتعوّذ وأعوذ باللّهِ ونصرته واعوذ باللّهِ من جورِ الجائرين ، وكيد الحاسدين ، وبغي الظالمين . . .) [2] والتحرزّ بسلطان الله من جور السلاطين يقول (ع) (بك استجيرُ يا ذا العفو والرضوان من الظلم والعدوان ومن غِير الزمان ، وتواتر الاحزان . . . أحترز بسلطانك من جور السلاطين) [3].

وكان من سمة أدعيته في ردّ ظلم الغير والاساءة الشمولية والاستقصاء ، مستندا الى الايات الكريمة كما في قوله (ع) (ومن أرادني بسوءٍ فاصرفه عنّي ، وآدحر عنّي مكره ، وادرأ عنّي شرّه ، ورُدَّ كيده في نحره ، وآجعل بين يديه سَدّاً حتى تعمي عنّي بصره وتُصِمَّ عن ذكري سمعه وتقفل دون احظاري قلبه ، وتخرس عنّي لسانه ، وتقمع رأسه وتذلّ عزّه وتكسر جبروته وتذلُّ رقبته وتفسخَ كِبْرَه وتؤمنني من جميع ضَرِّه وشرِّه....) [4] ويعمّ الشكوى الأمل بنصرة الله والثقة باجابة الدعاء والتفاؤل

بالتغيير يقول : (وكم من حاسدٍ قد شرق بغصّته ، وشجي منّي بغيظه ، وسلقني بحدِّ لسانه ، ودحرني بقرفِ عيوبه وجعل عِرْضي غرضاً لمراميه ، وقَلَّدني خلالاً لم تزل فيه ، ودحرني بكيده وقصدني بمكيدته ، فناديتك يالهي مستغيثا بك واثقا بسرعة اجابتك عالماً انه لا يُضطَهدُ من آوى الى ظِلِّ

(1) الصحيفة : 277

(2) م . ن : 272

(3) م . ن : 258

(4) الصحيفة : 110

كنفك ، ولا يفزع من لجأ الى معقلِ انتصارك ، فخصَّنني من بأسه بقدرتك...)[1]

هذا الاطمئنان بعلمِ الله بظلم الظالمين وقدرته تعالى على ردّ الظلم ونصرة المظلوم هو الذي هَيَّأ لمنزع المقابلة في الدعاء كما في قوله : ( ولا أظْلمَنَّ وأنتَ مطيقٌ للدفع عنّي ولا أظلِمَنَّ و أنتَ القادرُ على القبضِ منّي)[2]

وكذلك في قوله مقابلا بين حاله وحال عدّوه عند الله تعالى (لا تسوِّغ له ظلمي وأحسنْ عليه عوني ، واعصمني من مثل أفعالهولا تجعلني في مثل حاله ، وعوّضني من ظلمه لي عفوك ، وابدلني بسوء صنيعه بي رحمتك)[3]

كما هيَّأ لمفردات الأمل والقوة كي تشغل حيِّزا من الخطاب الشاكي : (وإنّ ذكرَ عوائدك يؤنسني ، والرجاء في انعامك وفضلك يقوّيني)[4] وكذلك الثقة بالتغيير وبتدّلِ الحال (وصل دعائي بالاجابة ، واقرن شكايتي بالتغيير)[5]

ولقد جاء تناوله لهذا العدو وتصوير مكائده دقيقا وهذا ما سيتضّح في دراسة وصفه لما يظهره ، ووسائل مكائده وقبح نواياه يقول : (وكم من باغٍ بَغاني بمكائده ، ونَصبَ لي شركمصائده ووكلَّ بي تفقّدَ رعايته ، وأظْبَأَ إلَيَّ إظباءَ السَّبعُ لطريدته انتظاراً لانتهاز الفُرْصة لفريسته وهو يُظهرُ لي بشاشةَ ملَقٍ وينظرني على شدَّة الحنقِ فلما رأيتَ ياالهي تباركتَ وتعاليتَ وغلَ سريرته وقبح ما انطوى عليه ، أركسته لأمِّ رأسه . . .)[6]

كما وصف غدر العدو وعدّته في مكائده وعديده وأعقبه بذكر نصرة الله له في دفع أذاه وكيده : (فكم من عدوٍ انتضى عليَّ سيف عداوته وشحذَ

---

(1) الصحيفة : 225

(2) م . ن : 95

(3) م . ن : 74

(4) م . ن : 249

(5) م . ن : 74

(6) الصحيفة : 224

لي ظبيةمديته وأرهقَ لي شبا حدّه وداف لي قواتل سمومه . . . فنظرت يا الهي ضعفي عن احتمال الفوادح وعجزي عن الانتصار ممّن قصدني بمحاربتي ووحدتي في كثير عددِمن ناواني وأرصدَ لي بالبلاء فيما لم اعمل فيه فكري فآبتدأتني بنصرك وشددت أزري بقوتك ثم فللت لي حدّه وصيّرته بعد جمع عديدٍ وحده وأعليت كعبي عليه . . .)[1] اما الجانب الاخر وهو ما يخصّ أعداء الغير فقد شمل اعداد أصفياء الله وخلفائه ، فأعداء ولي المؤمنين المحاربين لدين الله .

أ- أعداء أصفياء الله : صرّح الدعاء هنا برفضه لواقعٍ بعينه حين ذكر بأن المناوئين لأصفياء الله وخلفائه وأمنائه على دعوته قد ابتزّوهم مقامهم الذي خصصهم الله به حتى صاروا مقهورين مغلوبين ، ثم انّهم حرَّفوا شرائع النبي (ص) وسننه وتركوا فرائض الكتاب المبين ، لذا جاء النداء بطلب الفرج والنصّرة عاجلا مع الدعاء عليهم باللعّنة :-

(اللهم اِنَّ هذا المقامَ لخلفائك وأصفيائك ، ومواضع أمنائك في الدرجة الرفيعة التي اختصصتهم بها ، وقد ابتزّوها وأنتَ المقدّر لذلك ، ولا يُغالَبُ أمرك . . . حتى عاد صفوتك وخلفاؤك مغلوبين مقهورين مبتَزّين يروْن حكمك مُبَدّلاً ، وكتابَك منبوذا ، وفرائضك مُحَرَّفة عن جهات اشراعك وسنن نبيّك متروكة ، اللهم العن أعداءهم من الاولين والاخرين ، ومن رضي بفعالهم وأشياعهم وأتباعهم . . . وعجّل الفرجَ والروحَ والنصّرةَ والتمكين والتأييد لهم..)[2] ويعود الخطاب الى النفس ليخصّها في ردّ الاعداء (ولا تهلكني ياالهي غمّاً حتى تستجيب لي وتعرّفني الاجابةَ في دعائي وأذقني طعم العافية الى منتهى أجلي ولا تشمت بي عدوّي ولا تمكنه من عنقي ولا تسلطه عليّ)[3]

---

(1) م . ن : 223

(2) الصحيفة : 219

(3) م . ن: 220

2- اعداء وليّ المؤمنين : وحين يتوجّه بالدعاء لوليّ المؤمنين وامامهم فإنّ إقامةَ عمود الدين هي التي تتقدَّم هذا الدعاء راجيا من الله تعالى أن يعين الامام في إحياء ما أماته الظالمون وان يكون قويا على أعداء الاسلام لَيِّناً رحيماً مع أوليائه وان يهدي الى الصراط الذي انحرف عنه الجائرون ثم يعود لنفسه في خاتمة الدعاء ليخصّها فيما أعمّ به قائلاً :

(فأقِمْ به كتابك وحدودك وفرائضك وسنن رسولك صلواتك اللهم عليه واله ، وأحيي به ما أماته الظالمون من معالمِ دينك ، وآجلُ به صدأ الجور عن طريقتك وأبِنْ به الضَرّاء من سبيلك ، وأزل به الناكبين عن صراطك وآمحق به بُغاة قصدك عِوَجا وألِنِ جانبه لاوليائك وابسُطْ يده على اعدائك . . . . .)[1]
حتى يقول : (ولا تجعلني

للظالمين ظهيرا ولالهم على محو كتابك يداً ونصيرا ، وحُطني من حيث لا أعلم حياطة تقيني بها)[2]

يتوجّه بالدعاء على المشركين بان يُنقِصَ أعدادهم ويفرّقهم ، يقول : (اللهم اشغل المشركين بالمشركين على تناول أطراف المسلمين ، وخذهم بالنقص عن تنقّصهم وثبِّطهم بالفرقة عن الاحتشاد عليهم)[3] وأن يُحصِّن (سبحانه وتعالى) أطراف بلاد المسلمين ويؤيدّهم بالعزّة والكثرة ، ويؤلف جمعهم ويُبدّدَ عدوّهم :

(اللهم صلِّ على محمد واله ، وحَصِّن ثغورَ المسلمين بعزَّتك وأيِّد حماته بقوّتك وأسبغ عطاياهم من جِدتك اللهم صل على محمد واله وكَثِّر عِدَّتهم واشحذ أسلحتهم واحرس حوزتهم ، وامنع حومتهم وألِّف جمعهم . .)[4]

---

(1) م . ن : 203

(2) الصحيفة : 215

(3) م . ن : 123

(4) م . ن : 121

هكذا وجدنا الدعاء سلاحاً فاعلاً يزوِّد النفسَ والاخرين بالقوة على الرفضِ والمجابهة ، ويعينها على الصبرِ ثقةً بالاجابةِ والتأييد بالنصر مع التداخل في التعبير بين الخاص والعام ، ومن غير حدودٍ فاصلة ، فمما هو موجّه في دعاءٍ الى النفس يحتمل شمول الاخرين به ، وكذلك ما كان موجّها في الدعاء للاخرين تنضوي تحته مطالب النفس يقول : (فاسألك ببلاغة حكمتك ونفاذ مشيئتك أن لا تجعلني لغيرِ جودك متعرِّضاً ، ولا تصيرِّني للفتن غرضا ، وكن لي على الاعداءِ ناصراً وعلى المخازي والعيوب ساتراً ومن البلاء واقيا وعن المعاصي عاصماً برأفتك ورحمتك يا ارحم الراحمين)[1]

اتجّهت الادعية السجاديّة غي دعوتها للرفض والمناهضة الى تعبئة (الرأي العام ضد حكام البغي والعدوان وأعوانهم وضدّ المستغلين وطغيانهم)[2] من أجل حياة أفضل شاءها الله لعباده حين هداه النجدّين .وهو (ع) في كلِّ أدعيته التي تقدَّمت منها الخاصّة والعامّة ، الراضية والشاكية ، كان مستجيبا مطيعاً لأمر الله (عز وجل) لِعباده بالدعاءِ واثقا أيضا مطمئِنّا من الاجابة اذ يقول : (فها أنذا قد جئتك مطيعاً لأمرك فيما أمرتَ به من الدعاء متنجِّزاً وعدكَ فيما وعدتَ به من الاجابة اذ تقول «ادعوني استجب لكم»[3] )[4]

إثر هذا الدعاء وفي هذا الموضع من الدراسة بالأخص نقول : إن كانت الهيبةُ قد تقدَّمت مشروع البحث والتأمّل في الصحيفة السجاديّة منهجاً وفكراً وابداعًا ، فإنَّ (المعرفة) قد ختمت هذا المشروع ، تلك المعرفة التي لعلّها تساير

---

(1) م . ن : 278

(2) في ظلال الصحيفة السجادية ، شرح الشيخ محمد حواد مغنيه دار الكتاب الاسلامي 2002

(3) غافر : 60

(4) الصحيفة : 133

المقولة المعروفة عند المتصوفة (من عرف نفسه فقد عرف ربّه)[1] أي من تأمَّل ذاته فقد وصل الى خالقها .

فقد عرف الامام (ع) ربّه حق المعرفة حين خبر نفسه ومنَ حوله ، فسعى الى الموجدِ وعبدَه أفضلَ العبادةِ وناجاه أخلص المناجاة ، فمن قرأ أدعيته متمثّلاً صدقَه فقد عرف السجاد (ع) ومن ثمّ عرف ربَّه حقا ، فايّ عطاء بعد هذا العطاء وأيّ غناءٍ روحي في كلّ ما قدّم الامام لنا من دعاء .

---

(1) ينظر (بدّ العارف) لابن سبعين : 127 تحقيق جورج كتوره دار الاندلسي والكندي بيروت 1978 وينسبها المتصوفة للنبي (ص) والحديث ليس بثابت ينظر (المقاصد الحسنة) للسخاوي : 419 تحقيق عبد الله محمد الصديق دار الادب العربي 1956 وتسب المقولة أيضا للامام علي ابن ابي طالب ينظر شرح نهج البلاغة 449/20

# الخاتمة

حمداً لله الذي أعاننا على اتمام هذا القدر من التحليل والاستقصاء والاستنتاج في نصوص الصحيفة السجادية التي كانت مدار بحثنا ، نحمده حمد الشاكرين العارفين بعظم آلائه ونعمه علينا ونحن نعيش في رحاب هذا الأثر متأملين مفكرين مصغين لصوت الانصاف والعدل في تقويمنا أساليب الصحيفة ، ومضامينها الروحية ، ووجوه جمالها الفني ، وملامح الابداع فيها .

وإذا أردنا أن نستنبط من دراستنا اللغويّة والنقدية نتائج فإنّ القلم يتعثر، والعقل يحار ، لأنّ النصوص التي درسناها كانت أكبر من أن نستنتج منها أو نستخلص زبدة تعبّر عن حقيقتها ، لكن المألوف عند الباحثين هو تسطير عدد من المستنبطات التي تختزل المساحات الكبيرة التي شغلتها خصائص الأساليب في النصوص المدروسة وكانت حصيلتنا زهيدة نوجزها بما يأتي :

1- أسفرت الدراسة في بابها الأول عن يقين راسخ بأنّ نصوص الصحيفة السّجادية قد استمدت روحها ، وحسن بنائها ، وجمال نظمها من أساليب القرآن الكريم ، فقد كانت الروح القرآنية طافحة على سطح تلك الأساليب وغائرة في أعماقها ، وكأنّ منشئها قد أشبع كلّ عرق من عروق بدنه بنسغ القرآن الكريم حتى غدت أساليب الصحيفة مشبعة بذلك الرواء القرآني .

2- لقد كشف البحث في أساليب الصحيفة عن قدرة متميزة في الأمام زين العابدين  في النظم ، وحسن السبك ، وجمال التعبير تجعله من صفوة المبدعين ، الذين يعدّون بعدد أصابع اليد الواحدة لما قدّمه من نصوص فنية تنساب ألفاظها في مسارب تعبيرية دقيقة تضع المعاني في مواضعها الابداعية، وتضع الألفاظ في مواضعها الحقيقية (الأصلية) والمجازية (المستبدلة) التي تستوعب تلك المعاني بأجمل الصور البيانية .

3- أثبت البحث أنّ النصوص في الصحيفة السجادية كانت شواهد سليمة يمكن اعتمادها في الدرس النحوي خصوصاً واللغوي عموماً لكونها تستمد فصاحتها ، وسلامة نظمها من جذورها القرآنية ، وأصولها العربية الفصيحة .

4- كشف البحث عن انتماء النصوص السجادية إلى نُظُم تعبيرية لا مثيل لها في العمارة الأسلوبية تجلّت فيها دقة الموازنات الجميلة ، وتناسق الألفاظ وبناء الصيغ المتماثلة في تنسيق هندسي مذهل تعجز عنه أقلام الكتاب ، وقرائح المبدعين منهم . وقد سخّر الإمام عليه السلام هذه النظم الهندسية في تفريع المعاني وتشعيبها ، وصبّها في مسارب لفظية تؤاتيه لأنّ الألفاظ مخزونة في ذاكرته مستوعبة في كيانه .

5- تتجسم روح الإبداع في أساليب الصحيفة السّجادية في كونها سلسلة لمآخذ رصينة المبنى ، سليمة التأليف ، بعيدة عن الصناعة والتكلف ، تتجانس فيها الألفاظ ، وتتناظر الجمل ، وتتوائم الصيغ ، ويستعصي فيها البناء والنظم عن الإتيان بمثله .

6- أظهرت الدراسة الدلالية عناية بتسخير النصوص السجادية للقنوات الدلالية لإيصال المعاني إلى المخاطب ، سواء في تبويب المجالات الدلالية ، أو اجراء المقابلات الدلالية ، أو في حسن شحن اللفظة بالموحيات الدلالية والرموز والقرائن والاستفادة من الحال والمقام .

7- أظهر البحث اللغوي أنّ ألفاظ الروح والوجدان التي وردت في مناجيات الإمام عليه السلام كانت تراثاً لغوياً وروحياً استمدت منه الطوائف الإسلامية ولا سيما - أهل التصوف - كثيراً من مصطلحاتهم وألفاظهم ورتبهم ودرجاتهم التي شاعت فيما بعد ، وصارت من تراث الفكر التصوفي .

8- كشف البحث في ألفاظ الروح والوجدان أنّ هذه الألفاظ قد وُضعت في مواضع من النص يجعلها مُعبأة بطاقات تعبيرية وايحائية ورمزية تميزها عن الاستعمال الخارج عن نطاق الاتصال الروحاني بالله ربّ العالمين .

أمّا في الباب الثاني فقد وجد البحث :

1- في دراسته للخصائص المنهجية التي وسمت طرق الإفضاء بمضامين الصحيفة السجادية ذلك التوافق بين الفكرة وهيأة عرضها قصراً وطولاً ، والميل إلى التكرار بأنماطه المتعددة ، بين تكرار الأدوات والمفردات والأصوات والمضامين بما يكوّن سمة جمالية للخطاب السجادي لما لهذه الظاهرة الفنية من مسوغات استدعت حضورها ولم يكن التكرار من أنماطه جميعاً إعادة حرفية ، بل لزيادة أمر جديد ، أو تقدم المعاد بأسلوب مُختلف مما يشير إلى القدرة البيانية على التصرف وقراءة المتكرر وكأنه متجدد مُحققاً متعة التنبيه والترسيخ المتواصل ، وسايرت ظاهرة التكرار خصيصة أخرى هي التفصيل ، والاسترسال ، وتنوّع أساليب العرض ، ما بين سرد وحوار ومناظرة وتقابل وتماثل ، مع اعتماد المرجعية الدينية التي كان من أهم سماتها (الدقة) ومنها الدقة في التوظيف والموضع ، وكيفية التركيب اللغوي بما يماثل ورودها في القرآن الكريم مع الدقة في التوسع بالاقتباس ، والحفاظ في الوقت نفسه على وحدة تناول هذه المرجعيّة .

2- وفي الناحية التطبيقية من هذه الدراسة تقصّى البحث مواطن الإبداع في أسلوب الصحيفة السجاديّة بما يكون الأسس الجمالية التي حددها الناقد (حازم القرطاجني) وهو يتحدث عن القوى الخاصة التي بتوفرها لدى المنشئ يتحقق التجويد والإبداع وأولها وجود الطبيعة الفنيّة أي القوة أو القدرة على التصوير والتخييل ، وامتلاك ناصية الوحدة التي تجعل الخطاب منتظماً أشبه بالعقد المفصّل يحققه الانسجام الذي يضع بعض المعاني من بعض بشكل أفضل ، بالنظر إلى أول الكلام ومنعطفه وخاتمته ، ومنه انسجام الجمل والأساليب والمعاني والأصوات مع الموضوعات المطروقة .

ومن الأسس الجمالية التي تحققت في ابداع الصحيفة السجادية أيضاً الشمولية والاستقصاء وذلك بعرض المعاني عرضاً كاملا مستوفياً وحدات الزمان والمكان والعقل ، مع التناسب في بنية الكلام وما له من أثر في

استجابة المتلقي رقةً وجزالةً وقد جاءت محاور (أدب الدعاء) في تأليف متناسب متناظر ومطرّد في الوقت نفسه ، فتوحيد الله تعالى يقابله الإقرار بالعبودية ، وتمجيده تعالى يقابله التذلل والاستكانة ، والشكر على النعماء يقابله ذكر الذنوب والتوبة .

أمّا التوافق بين الدال والمدلول فجاء في حسن ائتلاف وتشاكل في التأليف ومن أنماطه التماثل اللفظي والصوتي والتوازي في التركيب وكان للاتزان موقعه في تسيير العبادات بتقابل كلّ فقرة بما تقدمه أو استلال جملة من أخرى بتناظر دقيق ووضع أجزاء الجمل بموازاة بعضها واتحادها في الوضع والكيفية .

ومن مقومات الإبداع والجمال في الأثر السجادي التدرّج والتنامي من مؤثر إلى آخر ومن جزء إلى كل ، ومن غامض إلى واضح ، ومن مجمل إلى مفصل ، ومن مهموس إلى مجهور ، والتفات من حيّز إلى آخر ، والخروج منه إليه ، والتوصّل به إليه كما يعبّر حازم .

وقد توزّع على تدرج في طول الجمل وتدرّج في الإفضاء بالمضامين وتدرّج في التعبير من أسلوب غير مباشر إلى آخر خطابي ، وتدرج في الصوت ابطاءً وسرعة .

أمّا القدرة على الوصل فقد عبّرت عن الغنى والسّعة في الخطاب وجاءت (الواو) بكثرة في شدّ أواصر الجمل لأنّها تفيد التعداد .

كما اتضحت مهارة الانتقاء بحسن التمييز في انتخاب المفردات الموحية ووضعها الموضع الملائم ، والسياق المناسب .

وفي دراسة السمات الروحية في الخطاب السجادي وجد البحث أنّها تتمثل أولاً في الحس الانساني النبيل والنهوض بالمسؤولية تجاه الآخرين في أوقات السلم والحرب وذلك في نظرة مشرقة متفائلة ترمي إلى تحقيق الأمان والسعادة للجميع مع صفاء النفس بالعفو عن المسيء وفي تصوير الواقع الانساني مما يعطي صورة صادقة عن أوضاع الناس والتعبير عن الجماعة في توجه انساني شامل عوضاً عن

تخصيص الذات في الدعاء لها وحدها وتتمثل ثانياً في وجود الحس الصوفي وبالأخص في المناجيات حيث أثبت البحث حضور المصطلحات التي انتمت فيما بعد إلى المعجم الصوفي وما نجم عن دراسة أسلوب المناجيات من تعبير عن الحب الإلهي من شوق وذكر وإحساس بالإلوهية الشاملة ، ولقد أوصل الخطاب بهذا الحس الصوفي أنّ الإمام لم يكن عابداً زاهداً حسب بل مؤمناً عارفاً ربّه حقّ المعرفة . وتتمثل ثالثاً بذلك الاطمئنان النفسي الذي عبّر عنه بالرضا والقناعة بما يختاره الخالق لعبده من السّراء والضّراء .

ومن السمات الروحية أيضاً ما قابل هذا الرضا وهذا الرفض والمناهضة والتصريح بالظلم الواقع والدعوة للتغيير بالدعاء الذي صار سلاحاً فاعلاً من الخطاب السّجادي من أجل حياة أفضل شاءها الله لعباده حين كرّمهم وفضّلهم على باقي خلقه بنعمة (الاختيار) في الفكر والعمل ومنحهم أشرف ما يمنح خالق خلقه وهي (الحرية) تلك التي وجدناها حاضرة قوية في كلّ أدعيته ـ خاصةً وعامة ، راضية وشاكرة ـ على أنّها حرية تستهدي وتستعين بعلم الله تعالى وحكمته وتدبيره يقول في دعائه " وإذا هممنا بهمّين يُرضيك أحدهما عنّا ويسخطك الآخر علينا فمل بنا إلى ما يُرضيك عنّا وأوهن قوتنا عمّا يسخطك علينا ولاتخلّ في ذلك بين نفوسنا واختيارها فانّها مختارة للباطل إلا ما وفقت ، أمارة بالسوء إلا مارحمت . "[1]

ولا يسعنا في خاتمة المطاف في عوالم هذه الصحيفة العظيمة إلا أن نقول إنّ ما استخرجناه من جواهرها قد ملأ صحائفنا ، وما زال بين سطورها درر وجواهر يستغرق جمعها كتباً أخرى ، لذا ندعو الله ﷻ أن يُوفق العاملين في ميادين اللغة والنقد إلى دراسة مزيد من النصوص الخالدة وجلاء الغبار عن لآلئها لتكون شموساً مضيئة في طريق البشرية ، وعلامات بارزة دالة على عظمة من أنشأها .

---

(1) الصحيفة السجادية.

# المراجع


- القرآن الكريم
- الارشـاد ، الشـيخ المفيـد ، ابـو عبـد الله محمـد بـن محمـد بـن النعمـان العكبري البغدادي (ت 413 هـ) المطبعة الحيدرية ، النجف ، الطبعة الثانية 1392هـ ، 1972م
- اصلاح المنطق ابن السكِّيت ، ابو سيف يعقوب بن اسحاق (ت 244 هـ) شـرح وتحقيـق احمـد محمـد شـاكر ، وعبـد السـلام محمـد هـارون ، دار المعارف بحصر الطبعة الثالثة
- اعلام الهداية ، المجمع العالمي لأهل البيت (لجنة التأليف) الطبعة الثانية 1425هـ ، قم - ايران
- الانصـاف في مسـائل الخـلاف بـين البصـريين والكـوفين ، ابـو البركـات الأنبـاري كمـال الـدين عبـد الـرحمن بـن محمـد بـن ابـي سـعيد (ت577هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة ، مطبعة السعادة مصر 1961
- بدّ المعارف ابن سبعين عبد الحق بن ابراهيم (ت 669هـ) تحقيق جورج كتوره ، دار الاندو الكندي بيروت 1978م
- البلاغة والاسلوبية ، محمد عبد المطلب ، الهيئة المصرية العامة 1984 م
- بيان اعجاز القرآن ، الخطابي ، حمد بن محمد بن ابراهيم (ت 388هـ) ضمن (ثلاث مسائل في اعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف مصر
- بيان السعادة

- البيان والتبين ، الجاحظ ابو عثمان عمرو بن بحر (ت 250هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ط القاهرة 1985
- التلخيص في علوم البلاغة ، القزويني محمد بن عبد اللاحمن (ت 739هـ) تحقيق عبد الرحمن برقوقي ط 1932
- جرس الالفاظ ودلالتها في البحث اللغوي والنقدي عند العرب ماهر مهدي، ط بغداد 1986
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، الهاشمي احمد ، الطبعة الثانية عشرة المعدلة 1379هـ - 1960م
- دلائل الاعجاز ، الجرجاني ، عبد القاهر (ت 471هـ) تعليق وشرح محمد عبد المنعم خفاجي الطبعة الاولى 1389هـ - 1969م مكتبة القاهرة مصر مطبعة الفجالة الجديدة وطبعة القاهرة 1977
- ديوان ابن الفارض ، ابو جعفر عمر بن علي السعدي (ت 632 هـ) تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، لبنان
- رسائل ابن العربي ، محمد بن علي الحاتمي الطائي (ت 638هـ) ضبط محمد شهاب الدين العربي دار صادر بيروت 1997
- الرسالة القشيرية ، عبد الكريم القشيري (ت 465 هـ) تحقيق هاني الحاج المكتبة الترفيقيه
- زهر الاداب وثمر الالباب ، الحصري ، ابراهيم بن علي القيرواني (ت413 هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل لبنان 1972 م
- سنن النسائي ، احمد بن شعيب بن علي (ت 303هـ) دار الكتب العلمية لبنان 2002

- شرح ابن العقيل على الفية ابن مالك ، بهاء الدين عبد الله العقيلي (ت 769 هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الثالثة عشرة ، مطبعة السعادة مصر 1962م
- شرح ديوان جرير ، محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، مكتبة محمد حسين النوري دمشق ، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت .
- شرح الكافية في النحو ، رضي الدين الاسترباذي ، محمد بن الحسن (ت 686 هـ) دار الكتب العلمية بيروت 1405هـ - 1985 م
- شرح اللمع ، ابن برهان العكبري ، ابو القاسم عبد الواحد بن علي الاسدي (ت 456 هـ) تحقيق الدكتور فائز فارس ، السلسلة التراثية الطبعة الاولى 1405هـ / 1984 م بطابع كولان تايمز التجارية
- شرح نهج البلاغة ، ابن ابي الحديد المعتزلي ط بيروت 2004
- شرح الوافية نظم الكافية ، ابن الحاجب ، ابو عمرو عثمان (ت 646 هـ) دراسة وتحقيق د. موسى بناي علوان العليلي ، مطبعة الاداب في النجف الاشرف 1400 هـ / 1980م
- صحيح البخاري ، البخاري محمد بن اسماعيل (ت 256هـ) دار احياء التراث العربي لبنان الطبعة الاولى
- الصحيفة السجادية الكاملة ، تقديم سماحة الشيخ محمد باقر الصدر ، دار التيار الجديد 2000 م
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر احمد عصفور ط القاهرة 1974
- الفضول المهمّة في معرفة الائمة ، ابن الصباغ ، علي بن محمد بن احمد المالكي ت (855 هـ) تحقيق سامي الغريري ، دار الحديث للطباعة والنشر قم / ايران 1422هـ

- في التصوف الاسلامي وتاريخه ، رينولد نيكولسون ، ترجمة د . أبي العلا العفيفي ط القاهرة 1946 م
- في ظلال الصحيفة السجادية ، محمد جواد مغنيه ، دار الكتاب الاسلامي ط 2002م
- في النحو العربي نقد وتوجيه ، د . مهدي المخزومي ، منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت الطبعة الاولى 1964
- الكتاب سيبويه ، ابو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت 180 هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، مطبعة المدني ، المطبعة الثالثة 1408 – 1988 م
- كتاب الاصول في النحو ، ابن السراج ، ابو بكر محمد بن سهل (ت 316 هـ) تحقيق الدكتور عبد الحسين الفتلي 1973م – 1393هـ مطبعة النعمان النجف (الطبعة الاولى)
- كتاب الصناعتين ( الكتابة والشعر ) ، العسكري ، ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل ( ت 395هـ ) تحقيق علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى 1371هـ /1952م دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه
- كتاب العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي ، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي . منشورات وزارة الثقافة والعلام ، الجمهورية العراقية ، سلسلة المعاجم والفهارس (56) . 1985م العراق
- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ، الدكتور فاضل السامرائي ، دار عمار .

- لهج التميم واثرها في العربية الموحدة ، غالب فاضل المطلبي دار الحرية للطباعة بغداد 1398هـ / 1978م
- مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبرسي ، ابو علي الفضل بن الحسن (ت 552 هـ) تحقيق هاشم الرسولي المحلاتي ، دار احياء التراث العربي بيروت 1379
- محاسن المجالس ، ابن العريف احمد بن محمد الصنهاجي ( ت 526 هـ) ، نشره المستشرق آسين بلاثيوس ط باريس 1933 م
- المختار من صحاح اللغة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ومحمد عبد اللطيف السبكي . مطبعة الاستقامة ، القاهرة الطبعة الرابعة
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي عبد الرحمن جلال الدين (ت 911 هـ) تحقيق محمد احمد جاد المولى ، علي محمد البجاوي ، محمد ابو الفضل ابراهيم . ط عيسى البابي الجلبي مصر .
- مشكلات علم الجمال الحديث ، (مجموعة من علماء علم الجمال) دار الثقافة الجديدة ، الاهرام
- معاني القرآن واعرابه ، الزجاج ، ابو اسحاق ابراهيم بن السري ( ت 311هـ ) تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي ، عالم الكتب الطبعة الاولى 1408 – 1988 م
- المغني في النحو ، ابن فلاح ، تقي الدين ابو الخير منصور اليمني ( ت 680 هـ ) تحقيق د. عبد الرزاق عبد الرحمن اسعد السعدي ، دار الشؤون الثقافية العامة 1999 م . بغداد
- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، ابن هشام الانصاري ، جمال الدين بن يوسف ( ت 761 هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد مطبعة المدني مصر.

- مفاتيح الجنان ، القمّي ، الشيخ عباس ، منشورات ذوي القربى ، الطبعة الاولى 1424هـ ترجمة محمد رضا النوري النجفي : أسرة
- مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ( ت425 هـ ) الطبعة الرابعة 1425هـ تحقيق صنوان عدنان داوودي – دار القلم دمشق الدار الشامية بيروت
- مفهوم النص ، نصر حامد ابو زيد ط 3 بيروت 1996
- المقتضب ، المبرّد ، ابو العباس محمد بن يزيد ( ت 285 هـ ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة - عالم الكتب بيروت
- مقدمة ابن خلدون ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، طبعة لجنة البيان العربي 1960
- منهاج البلغاء وسراج الادباء ، القرطاجني حازم بن محمد بن حسن (ت 684 هـ) تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة تونس 1966 م .
- الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ، الامدي ابو القاسم الحسن بن شبر بن يحيى ( ت 370 هـ ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد 1363 هـ - 1944 م
- الميزان
- النحويون والقرآن ، الدكتور خليل بنيان الحسون ، مكتبة الرسالة الحديثة ، الطبعة الاولى 1423 هـ ، 2002 م عمان الاردن
- نهاية الارب وبلوغ الارب ، النويري احمد عبد الوهاب (ت 733هـ) المؤسسة المصرية العامة للتأليف ، القاهرة
- نهاية الايجاز في دراية الاعجاز ، الرازي فخر الدين محمد بن عمر (ت 606هـ) تحقيق ابراهيم السامرائي ومحمد بركات ط عمان 1985

## المراجع


- نهج البلاغة الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) شرح الاستاذ محمد عبده مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، دار مكتبة كرم دمشق

**الدوريات**

أثر القرآن في الصحيفة السجادية الدكتور كاصد ياسر الزبيدي ، مجلة رسالة الاسلام بغداد ع 1 و 2 سنة 1971